محمد عبد الغني حسن



في صحبة الشعر والشعراء

الناشر
عالم الكتب
عبد الخالق ثروت القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتـــاب

فى أخريات سنة ١٩٧٢ أصدرت إحدى دور النشر بالقاهرة كتابا لى عنوانه « جوانب مضيئة من الشعر العربى » لقى من تقدير النقاد والقراء وترحيبهم ما أكد لى الاهتمام بكل موضوع يتصل بالشعر العربى فى شتى ميادينه .

ولم تكن دراساتى فى ذلك الكتاب موضوعات تقليدية أو مسائل مألوفة تدور حول المذاهب المختلفة ، والمناهج المتباينة فى دراسة الشعر العربى ، وفقاً لخصائصه ومدارسه ، وفنونه ، وطبقات شعرائه ، وأوزانه وقوافيه ، ونقده ، وما إلى ذلك من مسائل قديمة متعارفة ، استهلكها المؤلفون من قبل ، وأداروها على نواح من القول ، وإنما كانت دراسات متعمقة وتتبعات دقيقة لأحاسيس الشعراء المختلفين زمانا ومكانا نحو الظاهرة الطبيعية أو الصناعية الواحدة كما كانت متابعة دقيقة لنواح من الشعر العربى على مر العصور جاهلية ، وإسلاما وقديما وحديثا ، على اختلاف الأزمان والأوطان العربية فى شتى بقاع الأرض

وقد عالجت فى ذلك الكتاب مواقف وجوانب شعرية وإنسانية ، عبر عنها الشعراء فى مختلف العصور وفقاً لأمزجتهم ومشاعرهم وخيالاتهم وملابسات حياتهم وكان الموضوع الواحد يقتضينى دراسة طويلة ، ومتابعة مستمرة ، وتتبعا للشعر والشعراء فى القديم والحديث ، مما يجمع أطراف الماضى والحاضر فى حلقة واحدة ، ويلم أشتات القضية فى إطار موحد .

ولم يصدنى الجهد المطلوب لمثل هذه الدراسات الشاقة عن المضى فيها ، والخوض فى غمراتها ، باحثا من طريف الموضوعات الشعرية عما لا تذهب جدته ، ولا تضيع بهجته فأقبلت على كتاب جديد ، أستأنف فيه جهداً جديداً ، لموضوعات جديدة كل الجدة ، شائقة كل الشوق ، فأن زوايا

الشعر وجوانبه المشرقة لا تنتهى لمن يلتمسها منذ أيام الشاعر امرئ القيس فى الجاهلية حتى زماننا هذا فكان هذا الكتاب الجديد (فى صحبة الشعر والشعراء) الذى أعتز بتقديمه إلى القارئ الكريم : وقد عالجت فيه عشرات من أطرف الموضوعات المتصلة بالشعر ، وأكثرها تشويقا وإمتاعا للنفس وإفادة للقارئ ، كموضوع الله فى الشعر العربى القديم ، والشعر فى رمضان ، والعواصم العربية فى الشعر العربى والفكاهة فى الشعر المعاصر وفتنة الشعراء بشعرهم وملامح كثيرة الدوران فى شعر أحمد شوقى ، ومجالى الطبيعة فى شعر خليل مطران ، ومواقف الشعراء على منى وعرفات ، ومع الربيع وبعض شعراء الربيع ، وأمثال هذه الموضوعات التى تحتاج إلى معاناة ومعاودة ، وتولية الوجه نحو عديد من المصادر ، وتنقيب وتقليب لديوان الشعر العربى — بل لدواوين الشعراء — على مدى التاريخ الطويل للفكر العربى .

ولقد شجعنى رواج كتابى السابق « جوانب مضيئة من الشعر العربى » ، وحسن تلقى الباحثين له ، وإحسان القراء الظن به وبصاحبه ، على أن أمضى فى البحث قدما ، وأن أخطو فى الدراسة خطوة ثانية ، فأؤلف كتابا ثانيا هو هذا الكتاب الذى أقدمه إلى القارئ الكريم اليوم وعنوانه (فى صحبة الشعر والشعراء) وهو كتاب يمشى فى الدرب الذى اخترته للكتاب الأول ، ويفتح النوافذ والأبواب على مسائل جديدة طريفة تتصل بموضوعات الشعر العربى والشعراء على مدار العصور ، ويفسح الطريق لدراسات جديدة واستدراكات مفيدة ، قد يكون فاتنى — بلا شك — الوقوف عندها والإحاطة بها ، والتتبع لها ، فما أنا إلا بشر يجرى عليه من النقص ما ألتمس معه المعذرة عند المنصفين ، والمغفرة عند المتسامحين

وإذا كانت صحبتى للشعر والشعراء قد أضنتنى من ناحية ، وأمتعتنى وآنستنى من ناحية أخرى ، فأننى أرجو أن يكون فى ثمرات هذه الصحبة فائدة ومؤانسة وإمتاع للقارئ الكريم

وبالله التوفيق ::

القاهرة — محمد عبد الغنى حسن

الله

فى الشعر العربى القديـــم

هل يختلف الشاعر القديم عن الشاعر الحديث فى الاتجاه إلى الله إذا أظلم ليل ، أو حزب أمر ؟ ألم يتجه شاعر قديم إلى الله حين ضاق عليه الأمر ، لعله يجد له مخرجا مما هو فيه : وفرجا مما هو ملاقيه ، وعبر عن ذلك بقوله :

وإنى لأدعو الله والأمر ضيق
على ، فما ينفك أن يتفرجا

وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه
أصاب لها فى دعوة الله مخرجا

لا يختلف الشاعر الإسلامى عن الشاعر الجاهلى فى الابتهال واللجوء إلى الله والأنس بحضرته ولا يقال أن الأصنام كانت تعبد فى الجاهلية من دون الله ، وأن الشرك كان فاشيا ، والكفر كان طاغيا .. ففى غمرات ذلك الجو الملبد بالإشراك كانت تلتمع هناك ومضات من نور الإيمان، وضوء التوحيد فليس طبيعيا أن ينقطع ما بين الله والناس فى فترة من فترات الشرك وإلا فما بال هؤلاء (الحنفاء) قبيل ولادة محمد عليه الصلاة والسلام – بله بعثته ورسالته – ما بالهم وقد اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويطيفون به فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا ! وليكتم بعضكم على بعض قالوا أجل ! وكان هؤلاء النفر الأربعة ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث ،

وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم .. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ .. يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فأنكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام

فأما ورقة بن نوفل — ابن عم السيدة خديجة — فاستحكم فى النصرانية ، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى هداه الله إلى الإسلام فأسلم ، وأما عثمان بن الحويرث ، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر ، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهوديةولا نصرانية ، وفارق دين قومه من قريش فاعتزل الأوثان والأصنام والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، وقال أعبد إله إبراهيم (١) وقد قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام : (إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده) .

ولم يكن هؤلاء الحنفاء أربعة وحسب ، ولم يكونوا فى مكة وحدها ، بل كانوا فى المدينة وفى بقاع أخرى من جزيرة العرب ، ولم يكونوا شعراء وحسب ، بل كان فيهم الشاعر والكاهن والخطيب وهدى الله كثيراً منهم إلى نور الإسلام ، وحلاوة الإيمان كأبى ذر الغفارى ، وصرمة بن أبى أنس الشاعر الذى كان يكنى بأبى قيس .

وهؤلاء الشعراء الحنفاء فى الجاهلية كان يدور اسم (الله) فى كثير من شعرهم ، ويتكرر فى عدد من قصائدهم ، حتى لنكاد نعجب من دوران لفظ الجلالة فى أشعارهم إلى هذا الحد ، وهم فى بيئة مفعمة بالشرك ، كأنما نصبتهم « العناية الإلهية » ليكونوا معالم فى طريق الإيمان ، ومنائر فى سبيل التوحيد .

---

(١) ذكر الدكتور شوقى ضيف أن زيد بن عمرو أسلم وكان من الصحابة الأولين . وهو وهم — والحق أنه توفى قبل مبعث النبى ورثاه ورقة بن نوفل قبل ظهور الاسلام .

وكثيرا ما تلقى اسم « الله » فى شعر هؤلاء الجاهليين الحنفاء فى معرض الحلف به والقسم بقسمه ، والحمد له ، والثناء عليه ، والدعاء بالخير والشر باسمه ، ووصفه بأنه يعلم كل خافية ، ويدرى كل جانحة ، وأنه يحيي ويميت ، ويهلك ويبقى

ففى معرض الحلف بالله نجد الشاعر « عدى بن زيد العبادى » يقول مخاطبا النعمان

إننى والله ، فاقبل حلفى   لأبيل كلما صلى جأر

ونجد الشاعر زهير بن أبى سلمى يقول فى كافيته المشهورة

تعلمن ها لعمر الله ذا قسما   فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

ونجد الشاعر عبيد بن الأبرص يقول

فو الله إن مت ما ضرنى   وإن عشت ما عشت فى واحده

ونجد الشاعر النابغة الذبيانى يقول من داليته التى يعتذر بها إلى النعمان « فلا لعمر الذى طيفت بكعبته » ... إلخ ، ويقول من أبيات أخرى :

فقالت يمين الله أفعل إننى   رأيتك مسحورا يمينك فاجره

ونجد الشاعر كعب بن سعد الغنوى يقول فى مرثيته لأخيه ، المعدودة من مراثى العرب المشهورات

فو الله لا أنساه ما ذر شارق   وما اهتز من فرع الأراك قضيب

وفى معرض الحمد لله نجد الشاعر امرأ القيس يقول

أرى إبلى — والحمد لله — أصبحت   ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

ونجد النابغة الذبيانى يقول

فإذ وقيت — بحمد الله — شرتها   فانجى فزار إلى الأطواد فاللوب

وفى معرض الدعاء بالخير نجد النابغة الذبيانى يقول

حياك ربى ، فأنا لا يحل لنا   لهو النساء ، وإن الدين قد عزما

ونجده يقول فى أبيات أخرى

لا يبعد الله جيرانا تركتهم   مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم

ونجد عنترة العبسي يقول

لا أبعد الله عن عيني غطارفة　　إنسا إذا نزلوا ، جنا إذا ركبوا

ونجد حاتم الطائي يقول

سقى الله رب الناس سحا وديمة　　جنوب الشراة من مآب إلى زغر

وفي معرض الدعاء إلى الله بالشر نجد الشاعر عميرة بن جعيل التغلبي يقول :

كسا الله حيّي تغلب ابنة وائل　　من اللؤم أظفارا بطيئا نصولها

ونجد الشاعر قيس بن زهير يقول

لحا الله قوما أرشوا الحرب بيننا　　سقونا بها مرا من الشرب آجنا

وإذا تجاوزنا هذه المعاني الجزئية من وجود لفظ الجلالة « الله » في الشعر الجاهلي ، إلى المعنى الكلي من وجود الله نفسه ، وفكرة الألوهية الشاملة للتوحيد ، وجدنا شعراء جاهليين فاضت أشعارهم – التي رويت لنا عنهم – بفكرة الله صاحب الكمالات والآيات البينات ويتمثل هذا كثيرا في شعر « أمية بن أبي الصلت » الذي فكر كثيرا ، وقرأ في كتب الأوائل كثيرا ، فتعبد وتحنف وذكر إبراهيم ، ونبذ الأوثان ، والتمس الدين ، وهو صاحب البيت المشهور

كل دين يوم القيامة عند اللـ　　ـه – إلا دين الحنيفة – زور

ومن شعره الإلهي قوله ، وفيه يعد آلاء الله

إلــه العالمين وكل أرض　　ورب الراسيات من الجبـال

بنـاها ، وابتنى سبعا شدادا　　بلا عمـد يرين ولا رجـال

وسواهـا وزينها بنـور　　من الشمس المضيئة والهـلال

ومن شهب تلألأ في دجـاها　　مراميها أشد من النصـال

وشق الأرض فانبجست عيونا　　وأنهارا من العذب الزلال

وبارك في نواحيها ، وزكى　　بها ما كان من حرث ومـال

فكل معمر لابـد يوما　　وذي دنيا يصير إلى زوال

ويفنى بعد جدتـه ويبلى　　سوى الباقي المقدس ذي الجلال

وإذا كان شعر أمية بن أبي الصلت قد امتلأ بألفاظ لم تكن فى المعجم العربى فى عصره ، كلفظة « السلطيط » ، و « التغرور » لله ، وكلفظة « الساهور » وغيرها ، فأن معجمه الإيمانى التوحيدى — ولا نقول الإسلامى — كان يفيض بألفاظ ومصطلحات وعبارات إسلامية كأنه كان يمتحها من معين الفكر الإسلامى الذى لم يعش فيه إلا حتى نهاية السنة الثانية من الهجرة وله قصيدة دالية طويلة تفيض بمصطلحات إسلامية لا نجد مثلها حتى عند « حسان بن ثابت » شاعر الدعوة الإسلامية ، والمدافع عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول أمية

فسبحان من لا يعرف الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد
ومن لم تنازعه الخلائق ملكه وإن لم تفرده العبـاد فمفرد

وروى مؤرخ السيرة النبوية ابن هشام للشاعر أمية بن أبي الصلت شعرا فى توحيد « الله » يقول فيه من قصيدة يائية

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولا رصينا لا يني الدهر باقيا
وإنى لوسبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ! ألق سيبا ورحمة علىَّ وبارك فى بنى وماليـا

ومهما كانت هذه القصيدة لزيد بن عمرو بن نفيل كما قال الرواة ، أو لابن أبي الصلت كما قال ابن هشام مؤرخ السيرة . ومهما كانت صحيحة أو منتحلة— كما يقول أصحاب فكرة الانتحال فى الشعر الجاهلى — فأنها ابتهالات صافية خالصة إلى الله ، وترانيم من التوحيد وهى — على زمانها الجاهلى — تذكرنا بقصائد إلهية حديثة من شعر ميخائيل نعيمة ، وندرة حداد ، وأنور العطار ، ومسعود سماحة الشاعر المهجرى ، وخليل مردم بك ، ورياض المعلوف وغيرهم

على كل حال ، قد لجأ الشاعر الجاهلى فى شعره الإلهى إلى إظهار آيات الله ، وعجائب خلقه وبديع صنعه فى الكون . ولم يأن أن يدير النظر فى مجال الكون كأنه يستجيب — قبل نزول القرآن الكريم — إلى

قوله تعالى : (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) — سورة النحل آية ٤٨

وقد أطال الشاعر أمية بن أبي الصلت الدوران في هذا المدار ، فنرى له قصيدة رائية إلهية يقول فيها

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار ، فكل مستبين ، حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم بمهاة شعاعها منشور (١)

ولا نكاد نستحضر في الذكر قصائد ابن أبي الصلت « الإلهية » الجاهلية إلا استحضرنا معها في الذهن قصيدة الشاعر المهجرى مسعود سماحة ، وقصيدة الأديب الشاعر خليل مردم بك — رحمه الله — التي استهل بها ديوانه بعنوان « الله » ، والتي يقول فيها

سبحانك اللهم إنك أكبر من أن يحيط بكنهك المتفكر
حار اللبيب ، وزاغ عنك المبصر ورمى فأخطأ سهمه المتدبر
أقصى مدى للعقل فيك تحير

على أن الزمان الذى أبقى لنا قليلا من شعر « ابن نفيل » الإلهي ، أبقى لنا كذلك بعض القليل من شعر « ورقة بن نوفل » ، وقد كان حنيفا كصاحبه ، وما أصدقه وهو يقول

لا تعبدن إلها غير خالقكم فأن دعوكم فقولوا : بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به وقبل قد سبح الجودى والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوى ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الإله ، ويودى المال والولد

ومن الطريف أن هؤلاء الشعراء الأحناف فى الجاهلية ، كانوا يتلاقون فى العيان ، كما يتلاقون فى الفكر الإلهي المشرق ، ويظهر أنهم كانوا يتباحثون ، ويتبادلون الرأى ، ويهيء بعضهم بعضا مما أدركه — على هدى الفطرة — من

---

(١) المهاة هى الشمس ، ومن اسمائها أيضا الغزالة ، وذكاء

الوصول إلى الله ، فقد روى لنا الرواة أن « ورقة بن نوفل » حين التقى مع « ابن نفيل » تباحثا وتناشدا الأشعار التوحيدية ، فقال يهنىء صاحبه

رشدت ، وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنورا من الله حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك جنات الطواغي كما هيا
وأدراكك الدين الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

وإذا كان الشعراء الأحناف — أو الحنفاء — فى الجاهلية ، قد جاشت خواطرهم بالشعر الإلهى المقصود لذاته ، والذى كان نتيجة لميولهم واتجاهاتهم الفكرية الغالية ، ودراساتهم وقراءاتهم ، فأن ديوان الشعر الجاهلى كله لا يخلو من خطرات إلهية لشاعر هنا وشاعر هناك وهذه الخطرات تأتى فى معارض القول العامة كأنها توكيد لمعانى الألوهية فى النفس العربية منذ القديم ، فهذا الشاعر « زهير بن أبى سلمى » يقول

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

ويقول فى قصيدة أخرى ، مؤمنا ببقاء « الله » وإهلاكه الماضين

ألا : لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا
وإلا السماء ، والبلاد ، وربنا وأيامنا معدودة ، والليـاليا
ألم تر أن الله أهلك تبّعـا وأهلك لقمان بن عاد ، وعاديا؟

ويقول معتقدا بأن الله حق

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ما كان باديا

وهذا الشاعر « أعشى قيس » يدعو إلى تسبيح الله قائلا

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

وهذا الشاعر «عبيد بن الأبرص» يقول

من يسأل النـاس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول فى بعضه تلغيب

والله ليس له شريك علام .. أخفت القلوب (١)

وهذا الشاعر « ذو الأصبع العدواني » يعاتب ابن عمه فيقول

الله يعلمني ، والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني !

وهذا الشاعر « سويد بن كاهل » يحمد « الله » على ما وهب له ولقومه من سعة الخلق ، والإباء لصغائر الأمور وبناء المعالي ، فيقول

كتب الرحمن : والحمد له ، سعة الأخلاق فينا والضلع

وإبـاءً للدنيـات إذا أعطى المكثور ضيما فكنع

وبنـاءً للمعالي إنما يرفع الله ، ومن شاء وضع

هذه رحلة روحية ممتعة مع الشعر الإلهي في الجاهلية ، ومع موقف الشعراء هناك من « الله » ، وفكرة الألوهية وهو موقف العبد الخاشع الضعيف من الإله القوي العزيز فماذا كان موقف الشعراء بعد أن جاء محمد عليه الصلاة والسلام يصدع بأمر ربه وينشر الإسلام ، ويرسي قواعد الإيمان ؟

لقد كان شعراء الدعوة الإسلامية ينافحون عن النبي ويدافعون عن الدين ، فكان طبيعيا أن تمتلىء قصائدهم بالشعر الإلهي ، ولكن الحق أن أكثر ما روى لنا من شعر عصر النبوة وصدر الإسلام كان منصبا على الدعوة الإسلامية ذاتها ، وعلى صاحبها محمد عليه الصلاة والسلام فكان محمد ودعوته ورسالته هي مدار الكلام عند الشعراء واقتضى ذلك بالطبع أن تتعدد وتتجه أهداف الشعر الإسلامي إلى مدح الرسول ومدح الأنصار والصحابة ، وهجاء قريش والمشركين ونشر العقيدة ، وإعلان الشهادة بالإسلام والفخر بأن الله من على الشاعر بالإسلام والفرح بالإصابة في سبيل الله ، ورثاء النبي عليه الصلاة والسلام ، ورثاء الشهداء في الغزوات .

---

(١) اضطرب الوزن الشعرى عند الشاعر عبيد بن الابرص ، وتفطن له الناس من قديم ، وأشار اليه أبو العلاء المعرى فى قوله وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم * كما اختل فى وزن القريض « عبيد »

فهذا شاعر « كالجارود العبدى » يفد على النبى فيعلن إسلامه ويشهد بأن الله حق ، ويعبر عن ذلك بقوله

شهدت بأن الله حق وسامحت بنات فؤادى بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عنى رسالة بأنى حنيف حيث كنت من الأرض

وهذا «حسان بن ثابت» يصف النبى وقد أتى على فترة من الرسل والأوثان فيها تعبد ، فأمسى سراجا منيرا وهاديا ونذيرا وبشيرا ولكنه لا يكتفى بذلك بل يجعل محمدا سبيلا إلى قوله فى تسبيح الله

وأنت إله الخلق ربى وخالقى بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلها ، أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء ، والأمر كله فإياك نستهدى وإياك نعبد

أما «أبو قيس بن أبى أنس» ، فقد كان تنسك فى الجاهلية وفارق الأوثان ، واعتزل فى بيته وقال أعبد إله إبراهيم فلما جاء الإسلام وفد على النبى عليه الصلاة والسلام — كما يقول « ابن عبد البر » فى كتابه « الاستيعاب » — وهو شيخ كبير ، فأسلم وحسن إسلامه ، وعده ابن الأثير وابن عبد البر من الصحابة وقد كان أبو قيس هذا شاعرا فمما ذكرته كتب السير من شعره فى تسبيح « الله » قوله

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه ، وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال ربنا بمحال

ويتقدم بنا الزمن بعد صدر الإسلام خطوة أو خطوات ، فنلتقى فى آخر القرن الهجرى الأول بالرجاز المشهور « العجاج » ، فنراه يدخل مجال الشعراء الإلهيين بأرجوزة له فى « الله » يحمده ويعدد آلاءه قائلا

الحمد لله الذى تعلت بأمره السماء ، واستقلت
بأذنه الأرض وما تعنت أرمى عليها بالجبال الثبت
أوحى لها القرار فاستقرت رب البلاد والعباد القنت

والجاعل الغيث غياث المسنت(١) والباعث الناس ليوم الموقت
بعد الممات ، وهو محيي الموّت يوم ترى النفوس ما أعدت

وقد مضى العجاج يصف يوم الحساب وأهواله ورحمة الله التى وسعت كل شيء ولعل أرجوزته – على قدر ما علمنا – هى الوحيدة فى ديوان الشعر العربى ، التى تزاحم بمنكبها قصائد الشعراء ومقطعاتهم

وما أطمع الشاعر الناسك أبا العتاهية فى كرم الله وهو يقول

أليس الله فى كل قريبا بلى ! من حيث ما نودى أجابا
ولم نر سائلا لله أكدى ولم نر راجيا لله خابا

ولعل مقطوعته الصغيرة الدالية فى التدليل على وجود « الله » ، ووحدانيته ، هى من أشهر ما يحضر للاستشهاد فى مقام الشعر الإلهى ، وفيها يقول :

ألا إننا كلنا بائد وأى بنى آدم خالد ؟
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد ؟
ولله فى كل تحريكة وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سبق أبو نواس – فى الزمن وفى الشعر الإلهى – صاحبه ومعاصره « أبا العتاهية » ، فقد توفى سنة ١٩٨ هـ ولكنه يلتقى مع صاحبه فى الاتجاه إلى الله ، والابتهال إليه ، والتماس العفو من أوسع أبواب رحمته .

وهما متشابهان فى أسرافهما فى أمرهما ، فمن الطبيعى أن يتشابها فى طلب العفو ، وفى إحسان الظن بالله وجميل الرجاء فيه ، وما أصدقه وهو يقول

أيها الغافل المقيم على السهـ ـو ، ولا عذر فى المقام لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصا يوم تبدو السماء فوق الجباه
غير أنى على الإساءة والتفر يط راج لحسن عفو الله

---

(١) المسنت الذى أصابه الجدب وأسنت القوم أى أجدبوا

ويلح أبو نواس على موضوع « عفو الله » وكونه أكبر من كل ذنب كبير ، فيقول

يا نواسي توقر وتجمل وتصبر !
ساءك الدهر بشيء وبما سرك أكثر
يا كبير الذنب ! عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء عن أصغر عفو الله أصغر !
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر

والحق أن الشعر الإلهي عند أبي العتاهية وأبي نواس كان نابعا من الشعور بالذنب والطمع في العفو وابتهالات النواسي في ديوان شعره تتجه هذا المتجه فهو حين يفر إلى الله ، فإنما يفر منه في الوقت نفسه أنه يفر من حساب الله وعقابه ، إلى رحمته وعفوه وثوابه

وأكثر ابتهالات أبي نواس وتسبيحاته هي تلك التلبية الخاشعة التي نظمها وتلاها بين يدي الله في الموقف الكبير بعرفات عندما حج إننا نسمعها اليوم ينشدها أحد المنشدين فتهتز قلوبنا حين يقول

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك
لبيك أن الحمد لك والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك ..

وإذا كانت الذنوب تلجيء الشعراء إلى باب الله لالتماس عفوه ، فإن الشدائد والنوازل تلجئهم إلى باب الله لكشف الضر ، وإزاحة الشر والشاعر « علي بن الجهم » المتوفى سنة ٢٤٩ هـ خير مثال على هذا ، فقد غضب عليه الخليفة المتوكل يوما وأمر بحبسه ، فكتب إليه من السجن قصيدة يقول فيها

توكلنا على رب السماء وسلمنا لأسباب القضاء
ووطنا على غير الليالى نفوسا سامحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ولم أفزع إلى غير الدعاء
ولم لا أشتكى بثى وحزنى إلى من لا يصم عن النداء ؟

وأدام « على بن الجهم » اتجاهه إلى الله وهو فى سجنه ، وكأن المحبس كان له خروجا من الدنيا ، فليس وهو فيها من الأحياء ولا الموتى ، وفى هذا رفع شكواه إلى الله قائلا

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى ففى يده كشف الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى (١)
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة عجبنا ، وقلنا جاء هذا من الدنيا

وسجن العقوبة عند الشاعر « ابن الجهم » ، كسجن الخطايا وأسر الذنوب عند الشاعر الأندلسى « ابن الفرضى » ، فقد وجد هذا نفسه أسير آثامه ، فاتجه إلى باب الله يلتمس فك أساره ، والتخلص من أوزاره ، قائلا

أسير الخطايا عند بابك واقف على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك عيبها ويرجوك فيها فهو راج وخائف
فيا سيدى ! لا تخزنى فى صحيفتى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
فكن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما يصد ذوو القربى ، ويجفو المؤالف
لئن ضاق عنى عفوك الواسع الذى أرجى لإسرافى فأنى لتالف !

ويمثل لنا ابن الفرضى هذا المتوفى سنة ٤٠٣ هـ شعر الاتجاه إلى الله فى أوائل القرن الخامس الهجرى على أن شاعرا كبيرا من شعراء أهل البيت يشاركه فى هذا المجال فى القرن نفسه وهذا الشاعر هو « الشريف المرتضى » شقيق الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، فقد كان مثالا

---

(١) همزة القطع فى كلمة « أهلها » يجب وصلها لوزن الشعر

للتوكل على الله فى كل شأن ، ولم يكن متواكلا ولا متكاسلا ، ومن أمثلة شعره فى « التوكل على الله » وخشيته دون سواه ممن لا يستطيعون أمرا ، ولا يملكون نفعا ولا ضرا ، قوله

ما ضر من رهب الملوك لو انه ... رهب الذى جعل الملوك ملوكا ؟
وإذا رجوت لنعمة أو نقمة ... فارج المليك وحاذر المملوكا
وإذا دعوت سوى الإله فإنما ... صيرت للرحمن فيك شريكا

ولم ينقطع فيض اتجاه الشعر والشعراء إلى « الله » على مر القرون . ففى القرن السادس نجد « ابن السيد البطليوسى » الأديب المتمكن المتوفى سنة ٥٢١ ﻫ يلتجىء إلى باب الله قائلا

إلهى إنى شاكر لك حامد ... وإنى لساع فى رضاك وجاهد
وإنك مهما زلت النعل بالفتى ... على العائد التواب بالعفو عائد
تباعدت مجدا ، وادنيت تعطفا ... وحلما فأنت المدنى المتباعد
ومالى على شيء سواك معول ... إذا دهمتنى المعضلات الشدائد

ونجد فى القرن السابع الهجرى عالمنا وفقيهنا وشاعرنا الصعيدى « ابن دقيق العيد » المتوفى سنة ٧٠٢ ﻫ ينسلخ من الناس إلى الله ، فيوصى بالهرب منهم والالتجاء إلى باب الله قائلا

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آس
فلا ترجً الخلق فى حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا ترد شكوى إليهم ، فلا ... معنى لشكواك إلى قاس
ولا تقس بالعقل أفعالهم ... ما مذهب القوم بمنقاس !
فاهرب من الناس إلى ربهم ... لا خير فى الخلطة بالناس

ويمثل لنا الشاعر الصوفى « عبدالرحيم البرعى » المتوفى سنة ٨٠٣ ﻫ الاتجاه إلى الله قولا وسلوكا بمجموعة أشعاره الإلهية الرفيعة وتلتقى مدائحه النبوية مع النفحات الإلهية التى كانت تعطر روضة ديوانه وابتهالات

« البرعى » إلى الله كثيرة يكاد المرء يتحير عند أيها يقف ، وبأيها يلم ففى واحدة منها يقول

كل شيء منكم عليكم دليل ... وضح الحق واستبان السبيل
أحدث الخلق بين كاف ونون ... من يكون المراد حين يقول
من أقام السماء سقفا رفيعا ... يرجع الطرف عنه وهو كليل
ودحا الأرض ، فهى بحر وبر ... ووعور مجهولة وسهول
وجبال منيفة شامخات ... وعيون معينة وسيول
سيدى ! أنت مقصدى ومرادى ... أنت حسبى ، وأنت نعم الوكيل
أحى قلبي بموت نفسي ، وصلنى ... وأنلنى ، إن الكريم ينيل

وفى أخرى يقول

قف بالخضوع ، وناد ربك يا هو ! ... إن الكريم يجيب من ناداه
واطلب بطاعته رضاه ، فلم يزل ... بالجود يرضى طالبين رضاه
واسأله مسألة وفضلا ، إنه ... مبسوطتان لسائليه يداه
واقصده منقطعا إليه ، فكل من ... يرجوه منقطعا إليه كفاه

وتتعدد قصائد (البرعى) الإلهية ، ويطول نفسه فيها ، ومع ذلك فلا تحس هبوطا فى شعره ، ولا ضعفا فى عبارته ، بل يظل ساميا جليلا بجلال موضوعه »

و « البرعى » فى تصوفه ورقة شاعريته يذكرنا ويسوقنا إلى الحديث عن الشاعر المتصوف الزاهد الشيخ « عبد الغنى النابلسى » المتوفى سنة ١١٤٣ هـ وسنجعله خاتمة الشعراء الإلهيين فى القدم وإذا كان مستواه فى الشاعرية دون مستوى البرعى ، فأن أشراقاته وتجلياته تكشف عن فيض غزير وما ألطفه فى قصيدته (كن مع الله) التى يقول فيها

كن مع الله ، تر الله معك ... واترك الكل وحاذر طمعك

نورك الله ، به كن مشرقا　　واحذر الأضداد تطفىء شمعك
واعبد الله بكشف واصطبر　　وعلى الكشف توق جزعك
لا تقل : لم يفتح الله ، ولا　　تطلب الفتح ، وحرر ورعك
كيفما شاء فكن فى يده　　لك إن فرق ، أو إن جمعك
فى الورى إن شاء خفضا ذقته　　وإذا شاء عليهم رفعك
وإذا ضرك لا نافع من　　دونه ، والضر لا إن نفعك
وإذا أعطاك من يمنعه ؟　　ثم من يعطى إذا ما منعك ؟

وبعد ! فأرجو مخلصا أن نكون قد خرجنا من هذه الرحلة فى رحاب الله على مدار تاريخ الأدب الإلهى بما يطمئن القلوب

الشعر فى رمضان

فى حديث نبوى شريف متفق عليه ، رواه أبو هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار ، وصفدت – أى قيدت بالأصفاد والأغلال – الشياطين .) وقد روى هذا الحديث بسند آخر اتفق عليه الشيخان : البخارى ومسلم ، ونصه،

(كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يبشر أصحابه بقدوم رمضان ، يقول : جاءكم شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين)

ومن فضل الله ، وفضائل رمضان أن الشياطين تقيد فيه بالأغلال ، فتقل – أو تنعدم – فيه فرص الإغواء والإغراء .. ويصبح الشيطان – لعنه الله – فى عطلة ، حيث لا يسمح له الجو الروحى ، والمناخ المشرق بالتجليات الإلهية فى صيام النهار وقيام الليل أن يمارس عمله فى إغواء خلق الله وفتنتهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم :

ولكن « شياطين » الشعر فى رمضان لاتزال تمارس إيحاءها وإمدادها للشعراء فى خلال ذلك الشهر المكرم كما تمارسه فى سائر الشهور على مدار العام كله .. ويظهر أن شياطين الشعراء مستثنون من القيود والأغلال التى تصفد بها بقية الشياطين ، فهم يطيفون فى شهر رمضان وفى لياليه الطيبة المباركة بأروقة الشعراء وهياكلهم ،وهم يوحون إليهم بالقول كما يفعلون معهم فى بقية الشهور والأيام !!

ويظهر أن شياطين الشعر العربى فى شهر رمضان يستحيلون إلى آلهة

كما كان الشأن عند اليونان حتى لا يدنسوا حرمة هذا الشهر الكريم بأبحاءات الشياطين !

ولماذا نجد عند قدماء الأغريق إلها للشعر هو « أبولو » ، كما نجد ربات أخريات للفنون يبلغ عددهن تسعا ، من أمثال ، « كاليوبي » ربة شعر الملاحم والبطولات ، و « ملبومين » ربة شعر المأساة ، و « أراتو » ربة شعر الحب ، وغيرها من بقية الربات التسع ؟ ثم لا نجد فى الفنون العربية الإسلامية إلهة واحدة ؟ على حين نجد للشاعر الأعشى أكثر من شيطان ، بعضهم عربي ، وبعضهم أجنبي ، مثل : مسحل ، وجهنام ، ونجد للشاعر حسان بن ثابت المخضرم بين الجاهلية والإسلام شيطانا من بني الشيصبان ، ونجد للفرزدق الشاعر الأموى شيطانا اسمه « عمرو » ، وللكميت الشاعر الإسلامى شيطانا اسمه « مدرك » ،ونجد شعراء إسلاميين آخرين لهم شياطين بلا أسماء ؟ !

وسواء أكان الموحون والملهمون بالشعر العربى فى رمضان المعظم آلهة أم شياطين فأننا على كل حال نجد منهم كثرة كاثرة منذ كان للأمة الإسلامية صيام ورمضان .. فهم لايزالون يوحون إلى شعرائنا بالقول فى رمضان وفى غير رمضان . وهم لايزالون يتنزلون فى رمضان ، ويلهمون شعراء الروح والصفاء النفسى بأطيب المعانى ، وأكرم الأفكار :

وكم نجد فى الأدب العربى على مدار العصور قيما روحية عالية ، وأفكارا روحانية ، وفيوضات ربانية تجلت فى شهر رمضان . ولو أن شعراءنا القدامى والمحدثين يؤرخون لقصائدهم باليوم والليلة والشهر - كما ينبغى أن يكون - لعلمنا حينئذ كم من الشعر العربى قد حيكت ديباجته ، ونسجت بردته ، وتجلى به الإلهام فى شهر رمضان

ولاشك - ونحن نتحدث عن تجربة - أن نظم الشعر ، وعمل التقصد

فى خلال شهر رمضان هو عمل - على ما فيه من المشقة وإجهاد الفكر - فيه كثير من الصفاء والإشراق وإذا كان نظم الشعر ، أو بناء القصيدة فى نهار رمضان الصائم هو عمل محفوف بالإرهاق والإعنات ، وخاصة لأصحاب العادات كالتدخين وشرب القهوة ، فأنه فى ليالى رمضان - بطولها وأنسها وبهجتها وروحانيتها - عمل تحبه النفس ، حيث تصفو الروح ، ويتطهر الوجدان ، وينطلق الخيال إلى سموات قدسية لا ترام فى غير رمضان

على أن معنى ذلك أنه لا يكون شعر الروح والصفاء والتجليات إلا ليل رمضان القائم .. فكم من شعر عربى : قديم ومحدث ، يتجلل بالإشراق والفيض ، ويذوب مما كاد قائله يذوب ويفنى فى جلال الله .. أليست تعترينا هزة ، وتلف كياننا خشية ورهبة ، وتغدق علينا سحائب عفو ورحمة ونحن نقرأ أبيات « إسماعيل صبرى » التى تحمل عنوان : (إلى الله) ، والتى يقول فيها فى معرض الرجاء والطمع فى عفو الله

يارب ! أين ترى تقام جهنم	للظالمين غدا ، وللأشرار ؟!
لم يبق عفوك فى السموات العلا	والأرض شبرا خاليا للنار !
يارب ! أهلنى لفضلك ، واكفنى	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى	غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار ! حسبي محنة	علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى	ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ثم ألسنا نحس بسريان روح الله فى كل صغيرة فى الكون ، حتى الزنبقة البيضاء ، وفى رعشة العشب ، ونحس بعدم وحدتنا أو وحشتنا فى الكون ، وروح الله معنا وعين الله ترعانا ، حين نقرأ قصيدة الشاعر الدكتور « عمر النص » التى عنوانها (الطريق إلى الله) ، وفيها يقول :

لم أكن وحدى فهذا الحلم قد قبل هدنى

أنا فى الموج وراء الموج ، فى النجم المحب
أنا فى قافلة تهفو إلى رشة سحب
فى الصدى يشهق فى الليل ويطوى ألف سهب
فى ندى زنبقة بيضاء فى رعشة عشب
فى انتظار اللمحة البكر التى تهتك حجبى
فى الهوى يجرح عينى ، ويندى منه تربى
أيها الليل على الدرب هنا يبدأ دربى
أنا ماض أفتح الكون فمن ألمح قربى ؟
أأنا وحدى ؟ وعين الله لا تبرح قلبى ؟

ثم ألسنا نرى الله يتجلى بعظمته ونحن نقرأ قصيدة الشاعر « عدنان مردم بك» التى عنوانها (المؤذن) ، والتى يقول فيها

أى سحر نفث الداعى الذى هب فى جنح الدجى يدعو الإلها
التسابيح التى رددهـــا فى الدجى فاح من الصبح شذاها
كشف الوجد الذى ساورنى لهبه عن ظلمة طال دجاها
وجلت نار الهوى عن ناظرى حجب الشك ، وعن عينى قذاها
فرأيت الحق بالعين التى أنزف الشوق إلى الحق بكاها
وتجلى الله للقلب الذى تابع الدنيا على نهج خطاها

وكذلك تسكرنا بخمرة الحب الإلهى قصيدة (الفجر) التى يقول فيها الشاعر « حسن كامل الصيرفى »

الله أكبر :: الله أكبر
تسبيحة العـالم المطهر
للخالق المبدع المصور

ومنها قصائد ومقطعات روحية صافية للشاعر « حافظ جميل » ،

والشاعر «محمد البزم» شاعر سورية الفحل ، والشاعر «أحمد الصافى النجفى» الذى يقول

الله نور الأرض نور السما ما أنا؟ ما العالم لولاه ؟
أعمى الورى من لا يرى نوره ألم يشاهد؟ أين عيناه ؟

هؤلاء الشعراء وعشرات وعشرات غيرهم فى القديم والحديث ، وفى الوطن العربى والمهاجر ، قد تركوا لنا رصيدا طيبا من الشعر الروحى الإشراقى ، سواء أكانوا نظموه فى ليالى رمضان أم فى غيرها . وما لنا نقيد شعر القيم الروحية العالية فى رمضان ، مع أن كثيرا من شعراء هذا اللون الصافى هم من إخواننا الكرام الذين لا يدعوهم دينهم إلى صيام رمضان؟ كالشاعر «صلاح لبكى» الذى يناجى ربه قائلا

تحدثنى فأحس وميضا تفجر بى نبعه الصيب
وترمقنى ، فيهم البياض ويغمرنى ضوؤه الأشهب

وكالشاعر المهجرى «رشيد أيوب» الذى يقول عن الله محبة وجمالا

خلق الرحمن هذى الكائنات وحباها كل حب أزلى
ما ترى الأنجم ترنو غامرات وهى لولا الحب لما تفعل
كلما شاهدت تلك النيرات وجمال الله فيها ينجلى
دق قلبى دقة النائى الغريب ذكر الأوطان والعهد القديم
إن عين الحب ليست ترقد فهى عين الله بارينا القدير

وكشعراء المهجر «جبران خليل جبران» ، و«ميخائيل نعيمة» ، و«إيليا أبو ماضى» ، ودواوينهم تفيض بشعر الحب الإلهى والروح والتجليات

ويتنهز كثير من شعراء المسلمين — قديما وحديثا — شهر رمضان فيجعلون من حلوله فرصة للون من الشعر الدينى الوعظى ، ويتخذون من مقدمه مجالا لاستلهام الفيوض من التجليات الإلهية ، التى يواتيها شهر

رمضان ولياليه مما قد لا تواتى به بقية الشهور من العام ، مع التسليم بأن شعور القيم الروحية قد يكون فى غير رمضان كما قد يكون فى رمضان .. ولكن هذا الشهر المكرم قد يمهد للشعراء بيئة ، ويهيىء لهم جوا من شعر الصفاء والنقاء فهذا الشاعر الأمير « تميم » بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يستقبل رمضان بأبيات يقول فيها

يا شهر مفترض الصوم الذى خلصت — فيه الضمائر ، والإخلاص للعمل
أرمضت يا رمضان السيئات لنا — بشربنا للتقى علا على نهل
صوم وبرّ ونسك فيك متصل — بصالح وخشوع غير منفصل
ياليت شهرك حول غير منقطع — وليت ظلك عنا غير منتقل

وقد جرى كثير من شعرائنا على هذه السنة باستقبال رمضان ، وتهيئة النفوس له ، والحفاوة به ، وحسن تلقيه زائرا كريما ، وضيفا عظيما ، فالشاعر الكاتب « مصطفى صادق الرافعى » يوجه التحية إلى رمضان مشتاقا إلى لقائه ، فرحا بمقدمه قائلا

فديتك زائرا فى كل عام — تحيا بالسلامة والسلام
وتقبل كالغمام يفيض حينا — ويبقى بعده أثر الغمام
وكم فى الناس من كلف مشوق — إليك ، وكم شجى مستهام ؟

والشاعر « محمد مصطفى حمام » يستقبل استهلال رمضان بقصيدة يعدد فيها فضائل هذا الشهر ومآثره ، فهو يجمع الشمل ، ويطفىء الغل ، ويذكى قبس الحب ، ويوقظ الإيمان ، وهو يقهر الناس دون قهر ، ويتسلط عليهم بلا سلطان

انفثوا السحر يا رجال البيان — وأطيلوا الحديث عن رمضان
العزيز ، الحبيب .. أسمح من هلّ — علينا ، وأكرم الضيفان
النصيح ، المعلم ، الواعظ ، الهـادى — رسول الحنان والإحسان

جامع الشمل ، مطفئ الغل ، مذكي   قبس الحب ، موقظ الإيمان
حدثونا عن راحة القيد فيه   حدثونا عن نعمة الحرمان
هو للناس قاهر دون قهر   وهو سلطانهم بلا سلطان !

والشاعر « محمود جبر » يحسن استقبال رمضان بأبيات يعبر فيها عن مكابداته فى ليل رمضان ونهاره ، فهو يعف فى نهاره عن لغو الحديث وإثمه ، ويذيب ليله بالتبتل والتهجد ، قائلا :

رمضان يا طهر النفوس   هرعت استجديك رفدك
وأعف يومك عن حديث   لا يطابق منك قصدك
وأذيب ليلك فى التبتـ   ـل أبتغى الأنوار عندك
أنت المفضل فى السما   ء وبالكتاب خصصت وحدك
يا معبد المتهجدين   فزعت أستهديك رشدك
يا قلب ! ذلك من تحب   فسق له يا قلب وجدك
واشرح له شوق الجوا   رح ، وابتغ الإحسان جهدك
ضل الذى لا يستطيب   شذا رباك ، وعاف وردك
رمضان يا روض الخلو   د ، أنا اللهيف رجوت معلك

وهذا اللقاء وحسن الاستقبال وفرحة التهلل لمقدم رمضان المكرم ، قد أجاد كثير من شعراء العرب فى القديم والحديث وصفه ، وأحسنوا التعبير عنه وكأن الدنيا كلها دار تستقبل — على رحبها وسعتها — هذا الضيف الكريم ، خاصة أهل التقى والتدين الذين يحرصون على إقامة حق الله فى هذا الشهر خير قيام . وليس من الضرورى أن يكون الشعر الذى نظم فى استقبال مواكب رمضان هو لشعراء يحرصون على أداء فريضة الصوم أو يمارسونها بالتزام .. وإذا كان لنا ما ظهر ولله ما بطن ، فأننا نقبل كل ما أحسن به الشعراء استقبال شهر رمضان قبولا حسنا ، ونحسن الظن بأصحابه ، ونشكرهم على حسن تعبيرهم لاستقبال هذا الضيف الكريم .

ولا شك أن تهلل كثير من شعرائنا المعاصرين والمحدثين للقاء شهر رمضان هو رد فعل لموجة قديمة ثقيلة كان يواجه بها بعض المتحللين من شعراء العربية الأقدمين هذا الشهر ، الذى انعقد إجماع المسلمين على حرمته وفضله ونقاوته فقد كان باردا وثقيلا وممجوجا فى الذوق الإسلامى العام أن نجد فى ديوان الشعر العربى مثل هذا الشعر الجرىء لابن الرومى حيث يقول عن شهر رمضان

شهر الصيام -وإن عظمت حرمته-	شهر طويل ثقيل الظل والحركة
يا صدق من قال أيام مباركة	إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة
شهر كأن وقوعى فيه من قلقى	وسوء حالى وقوع الحوت فى الشبكة
او كان مولى وكنا كالعبيد له	لكان مولى بخيلا سيىء الملكة
قد كاد - لولا دفاع الله - يسلمنا	إلى الردى ، ويؤدينا إلى الهلكة ..

ويظهر أن الشاعر ابن الرومى كان واقفا لرمضان بالمرصاد كل عام ، فهو يستقبله أسوأ استقبال ، ويتحدث عن بركاته ، ولكنه مبارك فى طوله وتطاول أيامه ! ويتحدث عن حرمان الصائم فى نهاره من لذائذ المأكول والمشروب ولاشك أن بطنة ابن الرومى وحيوانيته ونهمه وفرط ولوعه بالمشارب والمطاعم مسئولة عن توجس ابن الرومى دائما من شهر رمضان ، وخشيته من حلوله . فكأن الرجل كان يقع دائما مطلع كل رمضان فى حرج كبير. ولولا بقية من دين ، ومسكة من حياء وتأثم ، لضرب ابن الرومى بصوم رمضان عرض الحائط ، وأضرب عن صيامه ، ولكنه استحى أن يتهم بالإفطار فى هذا الشهر ، وهو تعطيل لركن من أركان الدين ، فاكتفى بأن يصب سخطه على رمضان ، مع القيام بحق الصوم فيه ! وهو حق لا يسقطه إلا أعذار مبيحة للفطر نص عليها الفقهاء .. على كل حال كانت نغمة ابن الرومى فى هجاء شهر رمضان وفى الحملة العنيفة عليه غير لائقة ولا متوقعة من شاعر مسلم متدين ، فأن الرجل لم يتخذ لنفسه مذهب

الفلاسفة فى عصره ، ولم يتزندق ، ولا عرف عنه أنه كان ضعيف العقيدة مهزوز الإيمان مثل « بشار بن برد » ومن لف لفه من الشعراء

والحمد لله أن ابن الرومى لم يقرن هجاءه لشهر رمضان بالإفطار فيه ، وحسبه ثوابا أنه صبر على عنت الصوم وإرهاقه وضيقه ، بما نفس عنه فى شعره الهجائى لشهر الصوم ! ولم ينفرد ابن الرومى وحده من بين شعرائنا القدامى بهجو شهر رمضان المعظم ، فلقد سبقه إلى هذه الظاهرة العجيبة شاعر من الكبار هو أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، ونحن نعلم أن ابن الرومى مات سنة ٢٨٣ هـ ، فأن بين وفاتيهما بضعة وثمانين عاما وجرأة أبى نواس على شهر رمضان بالهجاء أشد من جرأة ابن الرومى ، فقد كان « النواسى » أقرب إلى القرن الأول من الإسلام ، وأدنى إلى أيام انتشاره .. ولكن هذه القرابة الزمنية لم تمنعه من أن يتعاطى الخمر ، ويرتكب كل موبقة مما يصدنا الحياء هنا عن ذكره ! ومحمود منه — على أية حال — أنه كان يصوم رمضان مع سوء استقباله له بشعره . وقد يكون من باب الفائدة الأدبية لاغير أن نسجل هنا بعض شعره فى الخمر وصوم رمضان

لو كان لى سكن بالراح يسعدنى لما انتظرت بشهر الصوم إفطارا
الراح شىء عجيب أنت شاربه فاشرب ! وإن حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية صرفى الجنان ! ودعنى أسكن النارا

ويدخل مع أبى نواس وابن الرومى فى حلبة الساخطين على شهر رمضان شاعر ثالث من الكبار ومن العمالقة فى التصوير الشعرى الجيد ، وهو « بشار بن برد » المتوفى سنة ١٦٧ هـ .. فهو سابق على صاحبيه فى الزمن ، وسابق عليهما فى الجرأة والتهجم على شهر رمضان ! وكثيرا ما كان يترقب طلوع هلال شوال ، ليخلص من رمضان ومضايقاته ، وما أظرفه وهو يقول

قل لشهر الصيام أنحلت جسمى فمتى يا ترى طلوع الهلال ؟ !

اجهد الآن كل جهدك فينـا ستری ما یکون فی « شوال» !!

ولو أخذنا نعد الشعراء الذين برموا بشهر رمضان وأساءوا استقباله ، ولو عنينا النفس بتسجيل شعرهم ، لطال بنا القول من ناحية ، وسمج الحديث من ناحية أخرى ، ولكنا نكتفي بأن نذكر حفنة منهم ، على رأسها « الأقيشر الأسدى » الشاعر الأموى الماجن الخليع ، و « أبو عيسى بن الرشيد » الذى استجاب الله دعوته بأن لا يصوم رمضانا آخر بعد الذى كان فيه ، فأدركه شؤم دعائه ، ولم يعش إلى رمضان قابل وبيتاه فى هذه المناسبة المشئومة هما

دهانى شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر
ولو كان يعدينى الإمـام بقدرة على الشهر لاستعديت دهرى على الشهر

وتسوقنا غرابة هذا الدعاء المشئوم على المرء نفسه ، إلى دعاء آخر نذكره هنا استطرادا لقرب الشبه بين الحادثين ، فقد ذكر ابن رشيق فى كتابه (العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده) أن الشاعر المحب : « المؤمل ابن أميل » لما قال بيته المشهور

شف « المؤمل » يوم الحيرة النظر ليت « المؤمل » لم يخلق له بصر

نام ذات ليلة صحيحا ، فلما أصبح وجد نفسه مكفوف البصر ، وكأن الله عجل له بما تمناه ومن شعراء هذا المضمار أيضاً « السرى الرفاء » الشاعر الموصلى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وله فى سيف الدولة أمير بنى حمدان مدائح كثيرة ويا ليته كانت له فى شهر رمضان مدحة واحدة ، بدلا من مدائحه للأمراء والعظماء ، التى كان « يقبض » عليها الصلات والعطاء !

ويمتاز الشعر العربى فى رمضان بأن هناك كثرة من الشعراء انتهزوا فرصة حلول هذا الشهر من كل عام ليرفعوا إلى من يحبون أو يجلون أو يتعلقون بأذيالهم من الممدوحين والمرجوين ، تهانى شعرية تحمل معنى التبرك والتهنئة بمقدم هذا الشهر الكريم والتهنئة بشهر رمضان عادة قديمة

عند المسلمين وقد لجأ بعضهم إلى التهنئة النثرية برمضان مادام الشعر لا يطاوعهم ، والقريحة لا تواتيهم ولاتزال بطاقات التهنئة بحلول شهر الصوم باقية إلى يومنا هذا ، ولاتزال (الإمساكية) التي تحمل المواقيت في شهر رمضان ، تحمل في الوقت نفسه تحيات أصحابها وتهنئاتهم إلى من يرسلونها إليهم ، إلا أن الشعر العربي على خلال العصور رأى أن يتخذه أصحابه الشعراء مطية إلى تهنئة أصحابهم وممدوحيهم بحلول شهر الصيام ، وقل أن تفتح واحدا من دواوين الشعر القديمة إلا وجدت فيه قصيدة أو أكثر نظمها صاحب الديوان في التهنئة بشهر رمضان . وأصبحت التهنئة بشهر الصيام غرضا من أغراض الكلام في باب التهاني الشعرية . فأذا كان الناس يهنئون بالمولد ، وختان الصبيان ، والأعراس ، وبناء الدور ، والسفر إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، والعودة من الحجاز ، وعيد النيروز ، وعيدى الفطر والنحر ، وغيرها من المناسبات التي تجب فيها التهنئة ، فلماذا لا يهنئون بشهر رمضان : شهر الخيرات والبركات ؟

إن الشاعر « الشريف الرضى » من شعراء القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس يهنىء الخليفة الطائع العباسى بشهر رمضان ، فيقول

تهن قدوم صومك يا إماما ... يصوم مدى الزمان عن الأثام
إذا ما المرء صام عن الدنايا ... فكل شهوره شهر الصيام

والأمير الشاعر « تميم بن المعز » الفاطمى يهنىء العزيز الفاطمى الخليفة بقوله

ليهنك أن الصوم فرض مؤكد ... من الله مفروض على كل مسلم
وأنك مفروض المحبة مثله ... علينا بحق قلت لا بالتوهم
فتهنئة يا من به الله قابل ... من الخلق فيه كل نسك مقدم

و « ابن حمديس الصقلى » المتوفى سنة ٥٢٧ هـ والذى عاش فى صقلية زمنا ، يقول فى تهنئة الأمير أبى الحسن على بن يحيى حفيد « المعز بن باديس » بشهر الصيام

صمت لله صوم خرق همام ... مفطر الكف بالعطايا الجسام
أطلع الله للصيـام هلالا ... ولنا من علاك بدر تمام
واقتضى الشهر من صنيعك صنعا ... معليـا منه همـة باهتمام
قطع ضوء النهار صوما وبرا ... ودجى الليل بالسرى والقيام
وسجود من نور وجهك طوعا ... ما أطال السجود وجه الظلام

حتى ابن الرومى الذى كان يبرم ويضيق نفسا - لا نفسا - بشهر رمضان ويهجوه ويفتن فى هجائه ابن الرومى هذا يسارع إلى تهنئة أحد ممدوحيه : ابن يحيى ، بهذا الشهر ، فيقول له

أقسمت والحنث له أثـام ... عن لـه المشعر والمقام
إنك ما راض لك الصيـام ... طرفا ولا فرجا له عرام !
لوجهك الإجلال والإكرام ... عن ذاك والتبجيل والإعظام
سيشكر الشهر لك الحرام ... إنك لمـا هره الطغام
ونبحت فى وجهه اللئام ... ولم يعظم حقه أقوام
فيهم عليه بالخنـا إقدام ... كأنهم من جهلهم أنعام
ليس على أفواههم ختـام ... ولا لضيف عندهم ذمـام
بش بـه منك فتى بسام ... طلق المحيا ،ماجد ، مقدام ..

وليت شعرى ! هل نسى ابن الرومى هنا - فى مقام التهنئة بالشهر - أنه كان واحدا من هؤلاء الطغام الذين يهرون - أى يكرهون - رمضان ، وأنه كان واحدا من هؤلاء اللئام الذين ينبحون فى وجه رمضان؟ لقد صدق الشاعر القديم حين قال : (وما سمى الإنسان إلا لنسيه ...)

ولكن هناك شكوى مشتركة بين الشعراء المتحاملين على رمضان ، وهى شكوى اتهام هذا الشهر الجميل اللطيف الخفيف ، بالثقل والطول .. وقد يكون اتهامه (بالثقل) لأن واحدا من إخواننا الشعراء الغزلين المحبين قد حيل بينه وبين الاجتماع بمحبوبه وشفاء حاجة النفس منه ! . وقد أحسن شاعر قديم التعبير عن هذا بقوله

ثقل الصوم علينـا أثقل الله عليـه !
زارنى بالأمس بـدر كنت مشتاقا إليـه
فمضى ... لم أقض منه حاجة كانت لديه !

أما اتهام رمضان بالطول فيكاد يكون الشكوى الشائعة عند كارهيه سامحهم الله ! « فابن الرومى » يقول فى طوله وثقله

شهر الصيام وإن عظمت حرمته شهر طويل ثقيل الظل والحركة
يمشى الهوينى ! فأما حين يطلبنا فلا(السليك)يدانيه ولا(السلكة)(١)
يا صدق من قال أيام مباركة إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة

ثم يقول من مقطعة أخرى

إذا بركت فى صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك فى شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيه كان شهرا ومر نهاره مر السحاب !

ويلاحظ هنا أن الشكوى من طول أيامه الصائمة لا من طول لياليه ويمضى ابن الرومى فى استطالته لشهر رمضان زاعما أن البركة التى فيه هى طول أيامه !

شهر الصيام مبارك لكنما جعلت لنا بركاته فى طوله !
من كان يألفه فليت خروجه عنى بجدع الأنف قبل دخوله
شهر يصد المرء عن مشروبه مما يحل له ، وعن مأكوله ..
لا أستثيب(٢) على قبول صيامه حسبى تصرمه ثواب قبوله !

ولقد أوحى طول شهر رمضان إلى بعض الشعراء الخبثاء معانى طريفة ، « فأبو نواس » يصف فتاة كان قد تقدم لخطبتها بأن عرقوبها طويل مثل شهر رمضان ، فيقول

نبئت أن فتـاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

---

(١) السليك هو شاعر جاهلى صعلوك اشتهر بالعدو الشديد ، والسلكة اسم أمه .
(٢) أى لا أطلب الثواب .

على أن (حالات) الصوم ، والأفطار ، وإفطار الصائم عند البخلاء ، وأجر الصائم ، وليلة القدر التي خصها الله بالعشر الأواخر من شهر رمضان هي من المعاني التي أدار عليها الشعراء كلامهم حين يمدحون ، أو يهجون ، أو يتظرفون ، كقول « ابن عبد ربه » في مائدة إلا فطار عند بخيل :

لا يفطر الصائم من أكله لكنه صوم لمن أفطرا
في وجهه من لؤمه شاهد يكفي به الشاهد أن يخبرا !

والكلام في هذه المعاني المدارة يطول ، والحديث عنها والاستشهاد بها قد لا يوائم جلال العبادة وجمالها في هذا الشهر . ولكن المناسب أن نقف وقفة قصيرة عند « ليلة القدر » فقد شبه شاعر قديم محبوبته بليلة القدر ، كما شبهها قبل هذا بجملة تشبيهات جيدة رائعة فقال

فلو كنت ماء كنت ماء غمامة ولو كنت دراً كنت من درة بكر
ولو كنت مسكا كنت من مسك طيبة ولو كنت طيبا كنت من عنبر البحر !
ولو كنت لهوا كنت تعليل ساعة ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلا كنت قمراء جنبت محاق ليالي الشهر أو (ليلة القدر)

ويظهر أن هذا اللون من التشبيه البديع قد استهوى بعض الشعراء ، حيث روى « ابن الأعرابي » هذين البيتين الرقيقين :
فلو كنت يوماً كنت يوم تواصل ولو كنت ليلا كنت لي (ليلة القدر)
ولو كنت عيشا كنت نعمة جنة ولو كنت نوماً كنت تعريسة الفجر !

وإذا كانت (ليلة القدر) قد اتخذها بعض الشعراء في القديم مجالا للتشبيه في معرض الحب ومقام الغزل ، وجعلوا ليلة وصال المحبوب شبيهة بها ، وقريبة لها ، فأن فريقا آخر من شعرائنا المعاصرين قد أشادوا بهذه الليلة من الناحية الدينية ، ورفعوا من ذكرها كما رفع الله ذكرها في كتابه الكريم ،

وجعلوا منها سبباً لإحياء عزائم المسلمين ، واستنهاض هممهم لأعادة أمجادهم ، واسترداد مكانتهم ، فنجد — مثلا — الشاعر العراقي المعاصر المرحوم « عبد القادر رشيد الناصري » يحيي هذه الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر ، قائلا في قصيدة قوية النسج محكمة البناء عنوانها « ليلة القدر »

يا ليلة القدر المنيرة أشرقي	فخراً بآفاق الهدى وفراقدا
قصي على الأسماع من أنبائها	ما يرجع التاريخ منها حاسدا
واسترجعي العهد القصي كما هفا	طيف يراود في الظلام الراقدا
جبريل بالآيات يهفو خاشعا	نحو الأمين مراوحا ومعاودا
حمل الرسالة وهي عبء فادح	إلا لمن نشر الحياة بما هدى
يبني على الجهل المشتت دولة	ويشيد في سوح الضلال معابداً
ويهد بالفكر المحرر طاغيا	ويرد بالآي المشع معانداً

كما نجد الشاعر « أحمد مخيمر » يصف هذه الليلة وأنوارها وتجليات الغيب فيها قائلا

ليلة القدر عندهم فرحة العمر	تدانت على سناها السماء
وتجلى لنا بها الغيب حتى	ما عليه دون العيون غطاء
في انتظار لنورها كل ليل	يتمنى الهدى ، ويدعو الرجاء
وتعيش الأرواح في قلق الأشواق	حتى يباح فيها اللقاء
فإذا الكون فرحة تغمر الخلق	إليها تبتل الأتقياء
وإذا الأرض في سلام وأمن	وإذا الفجر نشوة وصفاء
وكأني أرى الملائكة الأبرار	فيها وحولها الأنبياء
نزلوا فوقها من الملأ الأعلى	فأين الشقاء والأشقياء ؟

ويجرنا الكلام عن ليلة القدر وتناول الشعر المعاصر لها ، واهتمامه بها من جهة التعبئة الروحية ، إلى الإشارة إلى قصيدة لنا نظمناها في خلال الحرب

العالمية الثانية ، وهى تشيد بقدر هذه الليلة وتدعو العرب والمسلمين أن يعيدوا فيها ما كان للأسلام من مجد وقوة ، وقد غناها مطرب من إحدى محطات الإذاعة العربية سنة ١٣٦٨ هـ ، وفيها تقول :

يا ليلة خصها بالفضل خالقهـــا	لها على الدهر تكريم وتفضيل
كأنها من جبين الدهــــر غرته	أو أنها فوق هام الدهر إكليل
وللعروبة فى إشراق طلعتهـــا	أحلى الأمانى ، وللأسلام تأميل
يارب حقق رجاء المسلمين بها	واجعل دعائى فيها وهو مقبول

وكما اشتهر بعض الشعراء بصفات خاصة أضيفت إليهم ، فيقال فلان شاعر الربيع ، وفلان شاعر الطبيعة ، وفلان شاعر الزهر والورد لأكثاره فى شعره من وصفهما فأن هناك شعراء اشتهروا بأنهم شعراء الكنافة والقطايف ، ومن هؤلاء الشعراء «ابن الرومى» ، و « أبو هلال العسكرى » صاحب كتاب « ديوان المعانى » الطريف المفيد فى موضوعه . و « ابن نباتة المصرى » المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وصاحب كتاب « سرح العيون » فى شرح رسالة ابن زيدون ، و « أبو الحسين الجزار » الشاعر المصرى الظريف فى العصر المملوكى ، و « الأمام البوصيرى » صاحب البردة المشهورة والهمزية فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، و « برهان الدين القيراطى » من شعراء مصر فى القرن الثامن وهو صاحب ديوان « مطلع النيرين » الذى يشتمل على القصائد والمراسلات التى دارت بينه وبين صديقه الشاعر ابن نباتة المصرى ، و « صلاح الدين بن أيبك » الصفدى الأديب الشاعر المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وصاحب كتاب « الوافى بالوفيات » الذى يعد أكبر موسوعة عربية للتراجم . و « أبو الفتح كشاجم » المتوفى نحو سنة ٣٦٠ هـ وهو من شعراء عصر المتنبى . و « السراج الوراق » من شعراء مصر فى القرن السابع الهجرى ، وله ديوان اختار منه صلاح الدين الصفدى منتخبات رتبها على حروف الهجاء وأسماه « لمع السراج » .

وتطول قائمة هؤلاء الشعراء التواقين للكنافة والقطايف إلى حد قد يخرج بالكلام عن موضوعه . . ولكن حسبنا أن نعرف أن للأمام السيوطى العالم المؤرخ المصرى المشهور والمتوفى سنة ٩١١ هـ رسالة لطيفة ظريفة فى هذا الموضوع عنوانها (منهل اللطايف . . فى الكنافة والقطايف)

فانظر إلى أى حد شغلت « قطايف » شهر رمضان « وكنافته » شعراء العربية جميعاً منذ أن عرف العرب أكل الكنافة على مائدة معاوية بن أبى سفيان أيام أن كان واليا على الشام . ومنذ أن دخلت القطايف بلاد العرب وقدمت على الموائد العربية فى زمن قديم غير معروف على وجه التحقيق ؟ ، ولم تكتف الكنافة والقطايف بشغل الشعراء بوصفها وتشبيهها وصفات حشوها ، بل جرت بعض علمائنا المحققين ، هو الأمام السيوطى ، فألف فيهما كتابا برمتـه

وأكثر الشعر العربى الذى قيل فى الكنافة والقطايف مقطوع بصحة نسبه إلى قائليه وأصحابه ، ألا أبياتا قليلة نادرة مما أوحى إلى أن أسميه الأبيات « الحائرة النسب » لأن بعض المصادر القديمة تنسبها إلى شاعر وبعضها ينسبها إلى شاعر آخر . ومن ذلك الضرب الحائر هذه الأرجوزة التى يعزوها بعضهم إلى « ابن يحيى بن أبى منصور المنجم » المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وكان ندما للخليفة المتوكل العباسى . والأرجوزة منها .

قطايف قد حشيت باللـوز والسكر الماذى (١) حشو الموز
تسبح فى آذى (٢) دهن الجوز سررت لما وقعت فى حوزى
سرور عباس بقرب فوز (٣)

---

(١) السكر الماذى هو العسل الابيض .
(٢) الآذى بالمدة وتشديد الياء : هو اعظم الموج فى البحر
(٣) عباس هو الشاعر العباس بن الاحنف ، وفوز هى محبوبته التى يقول فيها

يا فوز يا منية عبـاس قلبى يفدى قلبك القاسى
أسأت إذ أحسنت ظنى بكم والحزم سوء الظن بالناس

وقد جرى على هذه النسبة المرحوم « حسن عبد الوهاب » الأثرى المصرى وتابعه عليها بعض المؤلفين المعاصرين دون تحقيق ، والذى نعلمه على وجه اليقين أن هذه الأرجوزة هي للشاعر « ابن الرومى » وهي موجودة فى ديوانه صفحة ٤٧٧ . ولعل ذلك من خلط الرواة

ومن هذا الخلط أيضاً ما جاء حول الأبيات الكافية فى طول رمضان وثقل ظله وبطء حركته — فى نظر الساخطين — وقد ذكرنا هذه الأبيات قبل هذا وأشرنا إلى أنها من شعر « ابن الرومى » كما جاء فى ديوانه وكما هو معروف ومشهور ولكن « أبا هلال العسكرى » ينسبها على لسان « المبرد » إلى « الحارثى » وهي نسبة لم تتحقق لنا ، ولم ندر كيف جاء بها « أبو هلال » مع شدة تحريه ؟ ولعلها من الأبيات الحائرة النسب ، وهي كثيرة فى الشعر العربى .

وما لنا نمر هنا بحديث الكنافة والقطايف فى شهر رمضان ثم لا نقف وقفة على المائدة نتخير من أطايب ما قيل فيها من شعر ؟ وقد تطول بنا الوقفة . ويزيغ منا البصر وتتحير منا العين فلا ندرى أيها نؤثر بالاستشهاد وأيها ندع ، وما أحوجنا وأحوج القارىء الكريم هنا إلى شعر (بفتح النفس) ويفتح شهوة الضحك بالمعابثة اللطيفة ، والمداعبة البريئة ، والفاكهة الحلوة . فمن ذلك قول « أبى الحسين الجزار » الشاعر المصرى الظريف :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر (٤) وجاد عليها سكر دائم الــدر ،
وتبا لأوقات « المخلل » إنهـــا تمر بلا نفع وتحسب من عمــرى ،

أما « أبو هلال العسكرى » المؤلف ، وكان شاعراً أيضاً ، فيقول فى القطايف

---

(٤) القطر هو محلول السكر وذائبه الذى يرش على الكنافة والقطايف

كثيفة الحشـو ولكنهـا رقيقة الجلد ، هوائيـة
رشت بماء الورد أعطافهـا منشورة الطـى ومطويـة
كأنها ـ من طيب ـ أنفاسها قد سرقت من نشر (ماريه) !
جاءت من السكر فضيـة وهي من الأدهان تبريـة (١)
قد وهـب الليل بهـا بـرده ووهب الخصب لها زيـه

ولقد لجأ شعراء الكنافة والقطايف الرمضانية إلى استعمال المحسنات البديعية واللعب بالألفاظ ، كالتورية والجناس والمطابقة وما إليها ومن هذا اللون ما استعمله الشاعر « صلاح الدين الصفدى » من « التضمين » فى وصف القطايف

رعى الله نعماك التى مـن أقلهـا « قطائف » من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى . فأهتز فرحـة كما انتفض العصفور بلله القطر (٢)

وقد جمع « أبو الحسين الجزار » بين الكنافة والقطايف فى قوله

تالله ما لثم المراشـف كلا ولا ضم المعاطـف
بألذ وقعـاً فى حشـا ى من الكنافة والقطايـف

وفى « الجزار المصرى » هنا رقة ، وملح ، وبديهة تذكرنا بخفة من شعراء الرقة المصرية فى القديم والحديث من أمثال « ابن مطروح » ، و « البها زهير » ، و « ابن نباتة » ، و « محمد الأسمر » ، و « صالح جودت » رحمهم الله .

---

(١) تبرية أى مثل التبر والذهب •
(٢) هذا الشطر تضمين من قول الشاعر ابى صخر الهذلى من شعراء العصر الاموى
وانى لتعرونى لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بلله القطر
وقصيدة ابى صخر هذه من ارق شعر الغزل العربى ، وفى « الامالى » كثير من ابياتها ـ جزء اول •

وكما كان الشعراء يحسنون استقبال شهر رمضان كل عام ، فأنهم كانوا يحسنون وداعه ، وتعادل فرحة اللقاء والاستقبال هنا ألم الفراق والوداع ونقف عند شعراء « الأحساء » — أو هجر كما كانت تسمى في القديم — بالشاعر « عبد الله بن على آل عبد القادر » من شعراء القرن الماضى والحالى معاً ، فقد توفى سنة ١٩٢٥ م وله فى توديع شهر رمضان قصيدة طويلة يقول فيها

لخيلى ، شهر الصوم زمت مطاياه   وسارت وفود العاشقين بمسراه
فقوما بنا نبكى على حسن عهده   وما فاتنا منه ، ونذكر حسناه

***

عليك سلام الله يا شهر أنسنا   رأيناك معنى للزمان افتقدناه
ويا شهر لا تبعد ! فأنت وسيلة   وذو قدم عند الحبيب ادخرناه
ويا شهر لا تبعد ! لك الخير كله   فيارب محروم ببرك أولا
عليك سلام الله شهر صيامنا   وشهر تلاقينا بدهر أضعناه

وما ودع شاعر من أهل زماننا هذا شهر رمضان بمثل ما ودعه به الشاعر محمد مصطفى حمام ، فهو وفى له — على الرغم من أن الله لم يقدره على صوم بعض مواسمه — وهو يحب أيامه ولياليه الثلاثين التى تمضى كالحلم اللذيذ ، وهو يفرح لمقدمه قدر حزنه لفراقه ، فيقول

أنا يا شهرنا الكريم وفى   أنا باق على هوى رمضان
إن أيامك الثلاثين تمضى   كلذيذ الأحلام للوسنان
كلما سرنا قدومك أشجا   نا نذير الفراق والهجران

وشاعرنا « أحمد شوقى » رحمه الله كان أكثر مجاملة وهو يودع رمضان ويتمهف إلى الكأس التى حرمها طوال ذلك الشهر ، ويعلن اشتياقه إليها قدر اشتياقها

إليه ، كما كان أكثر تهذبا وتأدبا مع الله الكريم غافر الذنب وقابل التوب ، حيث يقول

رمضان ولى هاتها يا ساقـــي مشتاقة تسعى إلى مشتـــاق !
ما كان أكثره على ألافهـــا وأقله فى طاعة الخـــلاق
الله غفار الذنوب جميعهـا إن كان ثم من الذنوب بواقى

مسكين شهر رمضان ! يلاقى كل عام كثيراً من فرح الفرحين المتهللين ويلاقى كذلك شيئاً من جهامة المتجهمين وسخط الكارهين ولكنه — على كل حال — يحمل من أنبل معانى السماحة والكرم ما يحقق فيه القول الدائر ، لمثل السائر رمضان كريم !

قيم انسانية فى الشعر العربى

لا يجرؤ على أن يجحد القيم الإنسانية فى الشعر العربى إلا جحود أو مكابر ففى الشعر العربى منذ عصر امرىء القيس والنابغة وزهير بن أبى سلمى حتى عصر الشعراء عبد الرحمن شكرى ، وإيليا أبو ماضى ، والشاعر القروى ، وصالح الشرنوبى ، وخليل شيبوب ، وخليل مطران — لمسات إنسانية رفيعة ، ونبضات قوية تفيض بالحب والعدل والتعاطف ، وغفران المساءة ، وسماحة البذل والعطاء وما إليها من الفضائل التى يحلم الشعراء بسيادتها حتى يصل الناس إلى مرتبة السوبرمان أو « الإنسان الأعلى » .

وإذا كانت القيم الإنسانية لم تظهر فى الشعر العربى القديم متكاملة واضحة المعالم فأن عوامل من صنع الطبيعة ، أو من صنع الإنسان العربى نفسه قد أثرت فى ذلك ، وتعد مسئولة عنه إلى حد كبير .

إن الشاعر العربى — حين أنبتته شبه الجزيرة العربية ووزعته على بقاع الأرض كلها فى الشام والعراق ومصر والشمال الأفريقى والأندلس — كان يكتفى فى التعبير عن أحاسيسه باللمحة العابرة ، لأن طبيعته جوابة متنقلة حيث كان يؤثر النقلة والرحلة على البقاء فى مكان واحد . وهذا التنقل المستمر المتكرر فى جوانب الأرض قد جعل لخواطره وأفكاره صفة التنقل والطفر السريع ومن هنا كانت أحاسيسه كلها مبعثرة مجزأة ، وكانت خطراته فى « الإنسانية » متفرقة ، فهى تأتى فى القصيدة كلها مثل ومضات البرق ، فى بيت هنا وبيت هناك .

ولا شك أن بناء القصيدة العربية على « وحدة البيت » المستقل ، لا وحدة الموضوع فى المنظومة كلها ، قد جعل معالجات شعرائنا للنواحى الإنسانية مبعثرة فى البيت الواحد ، لا متكاملة فى مقطوعة كاملة ، أو قصيدة تامة . .

وإذا كان (العربى) قد انطلق فى مجال أرض الله الواسعة بعد حركات الفتح الإسلامى ، فأنه كان فى انطلاق جسمه ما زال مقيداً بقيود المواضعات القديمة التى درج عليها فى عصور ما قبل الإسلام فظلت القصيدة العربية على حالتها من بعثرة الأفكار والخواطر على أبيات متفرقة . وقد حاول شعراء ذوو طموح وقلق نفسى أن ينفضوا عنهم غبار القديم — مثل أبى نواس وبشار وغيرهما من المجددين — ولكنهم لم يتطوروا ولم يجددوا إلا بقدر محدود .

ونلمح اللمسات الإنسانية فى الشعر العربى القديم خاطفة فى بيت واحد ، لا فى قصيدة كاملة ، وخاصة حين كان يفتخر الشاعر العربى بفضائل نفسه أو بمفاخر قومه فهذا الشاعر قيس بن عاصم المنقرى يشيد بأخلاق قومه فى حفظ حقوق جارهم ، وفى الإغضاء عن عيوبه ، فيقول

لا يفطنون لعيب جارهمو   وهمو لحفظ جواره فطن

وهذه الفضائل الإنسانية فى النفس العربية كان يهتف بها الشاعر الشريف والشاعر الصعلوك على حد سواء فلم تمنع « الصعلكة » شاعرا صعلوكا معروفا بالإغارة والفتك من أن يجعل من غاراته وغنائمها سبيلا إلى البر بالفقراء لأنه يرى أن عليه واجبا وفى عنقه حقا للفقير ، يدفعه إليه ولو من مال الغارات التى يشنها على الأغنياء .. فيقول

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى   أفيد غنى فيه لذى الحق محمل

أليس عظيما أن تلم ملمة   وليس علينا فى الحقوق المعول؟

وإنزال الغير منزلة النفس فى الإحساس بالألم هى عاطفة إنسانية مارسها الشاعر العربى القديم ، وعبر عنها — على عادته دائما — بطريقة سريعة خاطفة فى مثل قول أمية بن أبى الصلت

إذا ليلة نابتك بالشكو ، لم أبت   لشكواك إلا ساهرا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى   طرقت به دونى ، فعينى تهمل

ولاشك أن (النزعة الفردية) التى كانت فاشية فى العصور العربية الأولى مسئولة عن تشتت النزعة الإنسانية فى الشعر العربى القديم والعلاقات الإنسانية والوجدانية بين الفرد والفرد قديمة قدم الأرض فى الحياة ، ولكنها كانت فردية ، ولم تتجمع وتتطور إلا فى العصر الحديث وفى ظروف المجتمع المعاصر

ونستطيع أن نقرر باطمئنان أن غلبة النزعة الفردية القديمة ، وسيطرة العواطف الذاتية وتضخمها ، وبروز الميول الشخصية بروزا واضحا قد كان عاملا فعالا فى حجب النزعة الإنسانية الجماعية عند شعرائنا القدامى ، على أن النزعات الإنسانية الفردية قد ظهرت هنا وهناك بشكل متناثر غير مضموم ولا ملموم

ولاشك أن مواصفات المجتمع ومعتقداته السائدة المتغيرة من جيل إلى جيل تؤثر فى نمو النزعات الإنسانية العامة ، وتحد من ظهورها فالألم للآخرين والتعاطف معهم هو منزع إنسانى كان يجب أن يسود ملامح الشعر العربى القديم ، ولكن الشعراء كانوا — كما يبدو لنا — مشغولين بهموم ذواتهم ومواجع أنفسهم عن هموم غيرهم ومواجعهم

ولاشك أن مغفرة إساءة المسيء ، وعدم مقابلة مساءته بمثلها هو ضرب من السمو الإنسانى دعا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)

وقد ألم الشاعر العربى القديم «معن بن أوس» بموقف المقابلة بين قريب له يسومه القطيعة والحقد والهدم ، وهو لا يقابله إلا بالوصل ، والحب ، والبناء . واستطاع شاعرنا «معن» أن يرسم لوحة إنسانية رفيعة فى الموازنة والمقابلة بين سلوك وسلوك ولاتزال أبياته الآتية تحمل قيمة إنسانية كبرى حيث يقول

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمى عنه ، وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى ... قطيعتها ، تلك السفاهة والظلم
وأسعى لكى أبنى ، ويهدم صالحى ... وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
فمازلت فى لينى له ، وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحزم

ولم يكن شاعرنا العربي «معن بن اوس» نسيج وحده من الشعراء القدامى في هذه القيمة الإنسانية العالية ، فإننا نرى شاعرا آخر يشترك معه في هذه المفارقة العجيبة بين سلوكه الإنساني وسلوك بني قومه الأدنين ، وهذا الشاعر هو «المقنع الكندي» الذي يحفظ لنا ديوان الشعر العربي لوحته الإنسانية الرفيعة حيث يقول:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا

ألا يذكرنا هذا السلوك الإنساني المتسامح الكريم في الشعر القديم ، بسلوك آخر مثله في الشعر العربي الحديث حيث يقول الشاعر المرحوم إسماعيل باشا صبري

إذا خانني خل قديم وعقني وفوقت يوما في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه فكسرت سهمي ، وانثنيت فلم أرم

وما أرق إنسانية شاعرنا إسماعيل صبري هنا وهو يستمع إلى طيف الود الذي بينه وبين خليله ، فيمنعه من أن يقابل عقوقه بمثله !

ونجد مثل هذه النزعة الإنسانية عند شاعر آخر معاصر هو «عدنان مردم بك»

إني إذا ما أمكنتني فرصة من ظالم وقرعته بسنان
غلب الحنان على العداء ، ولم يعد في الصدر يحضرني سوى الإحسان
سر السعادة أن تمد لخاطىء يد راحم ، وتمن بالغفران
يسع الحنان لخاطئ أوزاره ولكم أقال الدمع عثرة جاني !

والحق إن صدر الإنسان الجديد بصفة « الإنسانية » لا يذكر ولا يحضره إلا الإحسان فى ساعة المعاداة كما قال صديقنا عدنان مردم بك وتلك سماحة فى النفس وسماحة فى الطبع تعود بنا القهقرى إلى شعراء التسامح والغفران ونسيان المساءات، من أمثال الشاعر المدنى القديم الذى روى له أبو هلال العسكرى هذه الأبيات

إنى وإن كان ابن عمى واغرا	لمزاحم من خلفه وورائه
ومُمِده نصرى ، وإن كان أمرا	متزحزحا فى أرضه وسمائه
وأكون والى سره فأصونه	حتى يحين على وقت أدائه
وإذا الحوادث أجمعت بسوامه	قرنت صحيحتنا إلى جربائه
وإذا دعا باسمى ليركب مركبا	صعبا ، قعدت له على سيسائه
وإذا رأيت له رداء لم أقل :	يا ليت أن على حسن ردائه !

وفى مجال الإنسانية فى الشعر العربى نستطيع أن نفتخر بأبى العلاء المعرى الذى حاول أن يسمو بالمجتمع العربى والإنسانى عن طريق انتقاده لمساوئ عصره . والتنديد بالحكام الظالمين عند أبى العلاء هو نوع من النزوع للحرية التى كان يفتقدها الناس فى عصور الاستبداد أما تحريمه ذبح الحيوان وأكل لحمه ، وأكل عسل النحل — الذى صنعته لنفسها لا لغيرها — كما يقول ، ففيه نوع من الرقة والتعاطف ، وإن كان تحريما لما أحله الله وأباحه ، والله تعالى يقول (قل مَن حرّم زينةَ الله التى أخرجَ لعباده والطيبات من الرزق ؟)

وفى الشعر العربى الحديث قيم إنسانية بارزة أعان على ظهورها ظروف تغير المجتمع ، وظروف تغير النظرة إلى الأشياء ، وظروف الحكم الديمقراطى الحديث بعد سيادة الحكم الفردى المطلق ، كما أعان عليها الاحتكاك والاتصال بين الشرق والغرب ، وتغير وجهة النظر إلى وحدة الموضوع فى القصيدة العربية بعد أن كانت وحدة البيت هى السائدة .

ومن ملامح الروح الإنسانية فى الشعر العربى الحديث الإشادة بالحب ، والأخاء ، والدعوة إلى العدل ، والحرية ، والحث على البذل والسخاء والإحسان ، والثورة على التكبر ، والحس بآلام الآخرين ومواجعهم ، والإغضاء عن عيوبهم ، والكف عن الأذى ، والتماس السعادة للنفس باضفاء السعادة على الآخرين ، وعدم احتقار شىء فى الحياة حتى الدودة الصغيرة ، وتقدير أصحاب الحرف الصغيرة لأنهم يكسبون رزقهم بشرف وعزة ، والتعاطف الأسرى ، وتقدير الوطنية التى لا تتنافى مع النزعة الإنسانية ، بل تسايرها ، حتى تظهر كرامة الإنسان فى وطنه ، فتتحقق له كرامة الإنسانية فيه

والحق أن (الوطنية) كنزعة إنسانية محلية لم تكن سائدة فى الشعر العربى القديم كما سادت فى زماننا هذا وإن كنا نجد لمحات منها فى مثل قول الشاعر ابن الرومى :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ولكن الشعر الحديث مملوء وزاخر بالوطنيات العالية كشعر شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم ، وأحمد محرم ، وأحمد الكاشف ، والشاعر القروى ، وإلياس فرحات ، وزكى قنصل الشاعر المهجرى اللامع ، وجورج صيدح ، وصالح جودت ... وغيرهم

وإذا كان الشاعر أحمد شوقى لم يغب عنه وطنه لحظة وهو منفى بالأندلس فى الحرب العالمية الأولى ، وجعل جنات الخلد لاتشغله عن وطنه ، فإن شعراء المهجرين الأمريكيين الشمالى والجنوبى قد ملأوا الدنيا بأغاريد شعرهم الوطنى وأنغام حنينهم إلى أول أرض مس جلدهم ترابها وهم

فى ذلك لم يخرجوا عن روح الشاعر العربى القديم الذى طالما حن إلى أول أرض فكت عنه فيها التمائم..وما أرق الشاعر «القروى» وهو يقول عن غربته فى البرازيل

آماه عن الأوطان يفصلنى	عمن أحب البر والبحر
فى وحشة لا شىء يؤنسها	إلا أنا والوجد والشعر !
حولى أعاجم يرطنون فما	للضاد عند لسانهم قدر !
لو عاش بينهم (ابن ساعدة)	لقضى ، ولم يسمع له ذكر
ناس ، ولكن لا أنيس بهم	ومدينة ، لكنها قفر

وما أرق — كذلك — الشاعر المهجرى جورج صيدح وهو يقول فى غربته

أيعود للوطن الغريب النائى	يارب هونها على الغرباء
حتى متى يبرى الحنين صدورهم	والعام يتلو العام دون لقاء ؟
وكأنهم أخذوا على طول النوى	عهدا لأنفسهم بطول بقاء

أما (الحب) فهو عاطفة إنسانية تجلت فى الشاعر العربى منذ القدم وقد ازدحم ديوان الشعر العربى قديما بقصائد الحب والغزل والنسيب ، حتى صار أوسع الأبواب طروقا ، وأكثرها امتلاء فى ديوان العرب. ويضيق المقام لو تحدثنا عن شعر المجنون ، وعنترة العبسى ، وكثير ، وعمر بن أبى ربيعة ، وجميل بن معمر ، والعرجى ، وابن ميادة وغيرهم فى القديم ، وأحمد رامى ، ونزار قبانى ، وصالح جودت فى الحديث

ولكن هناك من شعراء التصوف من رفعوا (الحب) عن مرتبة الأنثى إلى «مرتبة الحب للجميع ، كالشاعر الصوفى الكبير محى الدين بن عربى الذى يقول

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف ... وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

ولاشك أن شعراء العرب فى العصر الحديث قد توسعوا فى النظرة إلى (الحب) توسعا لم نجده عند شعرائنا القدامى ، فحللوه ، وجعلوه عاما ، وجعلوه أس الحياة وعمادها ، وصوروا البيت الذى تغيب المحبة عنه بيتا بلا أبواب استمع إلى شاعر المهجر الشمالى (ندرة حداد) وهو يقول

ما أجمل الدنيا لو ان بيوتها ... تبنى بلا عمد ولا أطناب
تبنى من الحب الذى لا يشتكى ... أصحابه من مالك أو جابى
الحب دين الله فليك ديننا ... فى كل كارثة وكل مصاب
فالبيت إن تأت المحبة ساعة ... عنه غدا بيتا بلا أبواب

واستمع إلى الشاعر المهجرى الكبير (إيليا أبى ماضى) ، وهو يقول

قال قوم أن المحبة إثم ... ويح بعض النفوس ما أغباها !
إن نفسا لم يشرق الحب فيها ... هى نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى ... وبالحب قد عرفت الله

وبلغ من تحليل شعراء العرب المعاصرين للحب أن شاعرا مثل (خليل شيبوب) يقول من قصيدة حوارية عنوانها ما الحب ؟

وما الحب إلا رابط الكون كله ... فلم يخل منه الفدم ، والجهبذ الندب
كأن بنى الدنيا بروج دوائر ... منظمة الترتيب ، وهو لها قطب
فيحفظ بين العالمين توازنا ... ليبقى لها معنى كما خلق الرب
وأسراره فى القوتين اللتين لا ... تزيدانا علما : هما الدفع والجذب

وكلما اتسعت نظرة الشعراء الإنسانيين إلى الحب ، اتسعت قلوبهم

دللت ، دما انسع من هدم قلب شاعرنا الصوفى الكبير محيي الدين بن عربى . فهذا (الشاعر القروى) يتسع قلبه للكون ويحب فيه كل شيء .. لأن كل شيء الكون حسن ، فيقول

لى قلب يسع الكون ، فـــا تسأل ما الذى تهوى ، ومن ؟
كل شيء فيـه شيء حسن وأنا أهوى من الشيء الحسن !

وافتن شعراؤنا المحدثون فى النظرة إلى الحب ، فجعلوا مظاهر الطبيعة مصدرا من مصادر أخذ الحب وتلقنه .. فهنا شاعرنا إيليا أبو ماضي ينظر إلى الزهرة وإلى البلبل المترم كمصدر من مصادر تلقيننا المحبة ، فيقول

من ذا يكافئ زهرة فواحة أو من يثيب البلبل المترنما ؟
عد الكرام المحسنين وقسهم بهما ، تجد هذين منهم أكرما
لو لم تبح هذى ، وهذا ما شدا عاشت مذممة ، وعاش مذمما
أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا لولا شعور الناس كانوا كالدمى
أحبب فيغدو الكون كوخا نيرا وابغض : فيمسى الكون سجنا مظلما

وهذه الفلسفة للحب والكراهية هى قيمة انسانية عالية شعرنا الحديث ؛ وإذا تجاوزنا أشعار الحب وما تحمله من قيم إنسانية كبرى فى شعرنا العربى المعاصر ، وانتقلنا إلى تحمل الآلام فى درب الحياة الوعر الشائك الطويل ، وجدنا فى الشعر العربى الحديث فيضا من المشاعر الأنسانية العالية فى هذا المجال . ووجدنا أيضاً أن شاعرا مثل (ندرة حداد) يجعل « الحب » — مرة أخرى — وسيلتنا إلى التغلب على أعباء الحياة ، ومشتقات الطريق .

يا رفيقى كلنا السائح فى الدنيا وجدنا
كلنا نصبو إلى إدراك ما قد غاب عنـــا !
ربمـــا لم يكن الدرب الذى نجتـــاز عدنا
غير أن « الحب » يدعونا ألبسوا الحب فنا ؟

نحن عشاق ، ومن الناس لا يعشق حسنا
ولقد نزداد عشقا إن عشقنا ، وحرمنا
فلنسر .. فالعيش فى الدنيا لذى الهمة أهنى
لا تقل كنا فخير القول أن نفخر : أنا

وهذا التصميم على السير وعدم الوقوف درب الحياة يؤكده والشاعر سليمان العبسى » فى قوله من ديوان (رمال عطشى)

فى طريقى حالك وعر ، وشوك ، وصخور
ربما حطمنى الدرب وأضحانى المسير
صبوة حرى على اليأس بأعماقى تمور
ونداء لا تقف ، يرسله النبع الثمير
لا تقف لو فتت الصخر جناحيك كفاحا
وترديت على الدرب من الشوك وشاحا
يستحيل النبع شهدا فى الذرا الشم وراحا
إن زرعت المرتقى الوعر دماء ، وجراحا

وهكذا نجد الشاعر والإنسان القوى المصابر يسمو (بإنسانيته) ويربأ بها عن أن تستكين لمتاعب الطريق ومن هنا نجد شاعرا مثل المرحوم صالح الشرنوبى يقول

فيا رفاق الطريق غنوا	فربما يقرب البعيد
غنوا ، فأحمالنا ثقال	والدرب من دوننا مديد
سوف أغنى وأستعيد	ما ضج فى خاطرى نشيد
وسوف أهفو إلى الأمانى	مادام لى فى الثرى وجود

ولكن مع الأسف ، لم تترك الأيام صالح الشرنوبى الشاعر المكافح العنيد يستمر فى رسالته فى الحياة إلى أبعد مدى ، وأطول هدف فقد اختطفه

الموت ناضرا ، ولكن إنسانيته القوية لم تزل هديا ونورا لمن بقي بعده من الأحياء

والحق ان الحياة بدربها الطويل ، ومشقات طريقها، تحتاج إلى شاعر إنسان يهون على نفسه وعلى غيره من القراء ومن إخوانه في الإنسانية مصاعب الدرب ولقد نجد الشعر العربي المعاصر مثل هذه النزعة في مقطوعة الشاعر (طانيوس عبده) الذي يقول فيها تحت عنوان عمر وتمضي

مضى زمني ، وكنت إذا رماني	بصائب نبله يوما زماني
جزعت ، فشددت عزمي الأماني	وقالت أنه يوم وتمضي
فلما صار هذا اليوم شهرا	وأصبح فيه حلو العيش مرا
يئست من الحياة ، فقيل صبرا	عليه ، إنه شهر وتمضي
وطال الشهر حتى صار عاما	فقلت إلى متى الصبر إلاما؟
ولكني تهيبت الظلاما	لعلمي أنه عام وتمضي
وعود الزمان على التأسي	ولولا حيلتي لقتلت نفسي
فصرت إذا يئست سألت كأسي	فقالت إنه عمر وتمضي

على ان متاعب الحياة وأهوال دربها لم تنس شعراء الإنسانية العرب أن يدعوا إلى البسمة الحلوة العذبة التي تبدد مخاوف الطريق ولعل الشاعر المهجري (إيليا أبو ماضي) هو أكثر شعرائنا المعاصرين دعوة إلى الضحك والابتسام في الحياة فنراه مرة يقول من قصيدته الإنسانية التي عنوانها « ابتسم »

قال الليالي جرعتني علقما	قلت : ابتسم ! ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنما	طرح الكآبة جانبا وترنما !
أتراك تغنم بالتبرم درهما	أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما ؟
فاضحك ! فأن الشهب تضحك والدجى	متلاطم ، ولذا نحب الأنجما

قال : البشاشة ليس تسعد كائنا يأتى إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت : ابتسم مادام بينك والردى شبر ، فأنك بعد لن تتبسما

ونراه مرة أخرى يقول فى قصيدته التى عنوانها كم تشتكى

هشت لك الدنيا ، فمالك واجما وتبسمت ، فعلام لا تتبسم ؟
إن كنت مكتئبا لعز قد مضى هيهات يرجعه إليك تندم
أو كنت تشفق من حلول مصيبة هيهات يمنع أن تحل تجهم !
أو كنت جاوزت الشباب فلا تقل شاخ الزمان ، فإنه لا يهرم
انظر ؟ فمازالت تطل من الثرى صور تكاد لحسنها تتكلم

وبعد ! فهذه ملامح خاطفة - أيضاً - لنواح من القيم الإنسانية فى الشعر العربى ، نرجو بها أن نكون قد أسهمنا فى التعبير عن ناحية كريمة من نواحي النفس العربية فى القديم والحديث.

العواصم العربية فى الشعر العربى

إن العواصم العربية كما تكون مراكز الاهتمام على مدار التاريخ من النواحى السياسية والاجتماعية والقيادية ، فإنها تكون كذلك مراكز الاهتمام من الناحية الأدبية ، وخاصة عند الشعراء الذين يتجهون إليها بعواطفهم وأفكارهم فى المناسبات المختلفة ، ويستلهمونها فى الأحداث التى تمر بالدول ، ويتخذون منها مواقف تقود الأمة إلى طريق الحق والخير ، أو يصورون الأمن فى كنفها ، والجمال فى ربوعها ، والنعيم فى ظلالها ، أو يبثونها ما يدور فى أنفسهم من خوالج ، أو يعرضون ما لهم فيها من ذكريات ، أو يجعلون إليها مهوى أفئدتهم ومناط رحلاتهم ، وأحيانا يصبون عليها سياط غضبهم ، وشواظ نقدهم

وقد يأتى اسم العاصمة العربية عرضا فى خلال قصيدة لمناسبة يقتضيها المقام ، ويتطلبها الموقف ، كما جاء فى قصيدة للمضاض بن عمرو الجرهمى عن « مكة » حينما اضطر إلى الجلاء عنها فى طريقه إلى اليمن قائلا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى ! نحن كنا أهلها ، فأبادنا صروف الليالى ، والجدود العواثر

أو كما جاء فى قول الشاعر عن عمرو بن عبد مناف — الذى سمى فيما بعد هاشما — وهو جد النبى عليه الصلاة والسلام

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ونجد اسم « مكة » يرد متفرقا على هذا الشكل فى أشعار كثيرة ما بين جاهلية وإسلامية كما نجد اسم « المدينة » كذلك فى مثل قول الأعشى

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

الا ايهذا السائلى اين يممت فإن لها فى اهل «يثرب» موعدا

ويثرب اسم من أسماء مدينة الرسول اشتهرت به قبل مبعثه عليه السلام ، كما اشتهرت باسم « طيبة » ، وقد أحصى لها ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان تسعة وعشرين اسما ، كما أحصيت لمكة أسماء كثيرة منها بكة — بالباء — وأم القرى ، والبلد ، والبلد الأمين ، والبلد الحرام

وإذا كان كثرة من الشعراء قد أكثروا من الإشارة إلى مكة ، والمدينة فى أشعارهم ، فإننا نجد تلك الإشارة سارية على مدار العصور ، لا فرق بين أول وأخير ، ولا بين متقدم ولا متأخر .

ففى عصرنا الحديث نجد شاعرا مثل أحمد شوقى يقول فى مولد الرسول :

تجلى مولد الهادى ، وعمت بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب يدا بيضاء طوقت الرقابا
فقام على سماء البيت نورا يضىء جبال « مكة » والشعابا

كما نجد شاعرا آخر مثل الشيخ عبد المحسن الكاظمى يقول

يا أهل « مكة » والورى ما تنقضى حجاتها
فى كل يوم عندكم تقضى الفروض قضاتها
وبكل يوم عندنا حجيج تضل هداتها

ولاشك أن وقوف الشعراء بهذه العواصم المقدسة ، والحواضر المكرمة المشرقة هو سبب من أسباب إثارة المواجد فيهم ، وتهييج الأشواق عندهم . على أن أقل مناسبة ، وأدنى ملابسة قد تنطق الشعراء بالحديث عن هذه البقاع الطاهرة

فالشاعر الكميت بن زيد الأسدى يقول فى إحدى هاشمياته

أسرة الصادق الحديث أبى القا سم فرع القدامس القدام

غير حي وميت من بني آدم طرا مأمومهم ، والإمام
أبطحي بمكة استثقب الله ضياء العمى به والظلام .:.
وإلى يثرب التحول عنها لمقام من غير دار مقام
هجرة حولت إلى الأوس والخز رج أهل الفسيل والآطام

ولقد حظى الشاعر الشريف الرضي في المحرم من سنة ٣٩٤ هـ بزيارة « المدينة » المنورة فألهمته شعرا يقول فيه

وما كنت أدرى الحب حين تعرضت عيون ظباء (بالمدينة) عين
فوالله ما أدرى الغداة رميننا عن النبع ، أم عن أعين وجفون ؟!
بكل حشا منا رمية نابل قوى على الأحشاء غير أمين
فررت بطرفي من سهام لحاظها : هل تتقى أسهم بعيون ؟
فيا بانتى بطن العقيق سقيتما بماء الغوادي بعد ماء شئون
أحبكما والمنجن (بطيبة) محبة ذخر بات عند ضنين

وله وقفة (بقباء) يقول فيها

ثم كانت بقباء وقفة صمنت تشرق منها ضمنا
وحديث كان من لذته (أحد) يصغى إلينا أذنا

على أن الشريف المرتضى لم يقل عن أخيه الرضى عراقا بمكة والمدينة ، وما أرقه وهو يقول عن « البقيع » من أرض « المدينة »

هل ليالي بالمنقى رجوع ؟ مثلما كن لي وكن جميع ؟
إذ قناتي محتدة وشفيعي من شبابي إلى الحسان شفيع
ساحبا (بالبقيع) من نشواتي فضل ثوبي إذ البقيع بقيع

وطن طاب جوه ، وثراه فكأن المصيف فيه ربيع !

ومادمنا الآن فى معرض الحديث عن المواصم المقدسة فى الشعر العربى القديم والحديث ، فإن « القدس » والإشارة إليها فى أشعارهم وإطالة الوقوف عندها أحيانا تلفت النظر ، ولعل لأوضاع فلسطين المعاصرة دخلا فى هذا ، كما كانت أحداث الحروب الصليبية سببا فى ورود اسم بيت المقدس فى قصائد كثير من شعراء ذلك العصر . ويستوى فى الاهتمام بالقدس شعراء المسلمين والنصارى .

ولم يمر حادث سقوط القدس فى يد الأنجليز فى الحرب العالمية الأولى دون التفات إليه واهتمام به عند الشعراء ، وخاصة الذين كانوا نزعوا ولاءهم لتركيا ، وأملوا فى انجلترا خيرا بعد وعودها البراقة للعرب . ولقد كان الشاعر المهجرى رشيد سليم الخورى — المشهور بالشاعر القروى — من الأصوات العربية الأولى فى وصف ذلك الفتح ، فقال فيه

سقطت « أريحا » عند نفخ الصور وصدى هتاف العسكر المنصور
زأرت مدافعهم عليها زأرة أغنت مدافعهم عن التدمير
ومشوا لفتح القدس فانفتحت لها أبصارهم عن عالم مسحور
من كل رابية هناك وهضبة طور يخر له جبين الطور
للوحى والتنزيل فيه وللهدى صور مقدسة عن التصوير

ولم يدع الشاعر شوقى هذه الحادثة تمر دون أن يستغلها فى قصيدته التى قالها بمناسبة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فقال مخاطبا « اللورد اللنبى » :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديدا كان بل خشبا
إذا نظرت إلى أين انتهت يده وكيف جاوز فى سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة وأن للحق لا للقوة الغلبا !

وقد أتيحت للشاعر خليل مطران فرصة زيارة القدس قبل رحيل الأنجليز عن فلسطين سنة ١٩٤٨ ، ولم يكن فى الجو السياسى يومئذ ما يدعو إلى إثارة شىء حول قضية فلسطين التى لم يكن العرب موحدين فى حرب ضد اليهود حتى ذلك الحين ؛ وبالطبع كانت قصيدة خليل مطران التى أنشدها فى مدينة الأديان السماوية الثلاثة تدور فى فلك عادى هادئ من التصوير الطبيعى والدينى والتاريخى لتلك العاصمة المقدسة ، حيث قال :

سلام على « القدس الشريف » ومن به ... على جامع الأضداد فى إرث حبه

على البلد الطهر الذى تحو تربه ... قلوب غدت حبانها بعض تربه

حججت إليه والهوى يشغل الذى ... يحج إليه عن مشقات دربه

على ناهب للأرض يهدى روائعا ... إلى كل عين من غنائم نهبه(١)

فسبحان من آتاه حسنا كأنه ... به أونى التنزيه عن كل مشبه

تلوح لمن يرنو أعالى جباله ... أشد اتصالا بالخلود وربه

وأى جمال بين سمرة طوده ... وخضرة واديه وحمرة شعبه (٢)

وأين يرى مرج كمرج ابن عامر ... بطيب مجانيه وزينات خصبه ؟

هو « البيت » يؤتى سؤله من يؤمه ... فأعظم به بيتا وأكرم بشعبه

وبعد أن قام الصراع المسلح بين العرب واليهود رأينا القدس تدخل فى الشعر العربى رمزا للكفاح ، وملاذا للأديان فالشاعر عبد القادر رشيد الناصرى يجعل من لفظة (القدس) نشيدا للجنود الماضين إلى المعركة ، قائلا

وهل سوى « القدس » نشيد الجنود ... إذا مشت للحرب أسد الغلب ؟

والشاعر الجزائرى محمد العيد آل خليفة يدعو فى حماسة إلى جعل القدس عربية كما كانت فى كل عهود التاريخ ويجعل غير ذلك مجافيا للعدالة ، قائلا

---

(١) يقصد الشاعر بناهب الأرض القطار الحديدى الذى اتخذه لرحلته إلى القدس
(٢) الشعب بكسر الشين الطريق فى الجبال .

إن الذى زعم العدالة شرعة آذى الأئمة فى رضا الأحبار
ودهى العروبة فى وشائج نسلها وسطا على الأحرار بالأجرار
القدس لابن القدس .. لا لمشرد متصهين ، ومهاجر غدار

أما «القاهرة» فلا يكاد يخلو من اسمها شعر فى القديم — منذ إنشائها — وفى الحديث. وما من شاعر عربى تمصر إلا وغنى لحنا للقاهرة فى جمالها ولياليها وروعة ماضيها، وجلال حاضرها وقد اختار الشاعر إبراهيم ناجى ديوانا من شعره سماه « ليالى القاهرة » ويبدو أن هذا العنوان أعجب الشاعر الإسكندرى عبد العلم القبانى، فصنع قصيدة عنوانها «من ليالى القاهرة» ، وهى من الشعر الوجدانى الرقيق ، عرج فيها قليلا على أمجاد الماضى ، ولكنه لم يبلغ مبلغ الشاعر صالح جودت فى تصوير القاهرة فى لوحتين تاريخيتين رائعتين إحداهما بعنوان (القاهرة الجميلة) : هكذا تكلم رمسيس، والثانية بعنوان (المسلة والمئذنة والبرج) واللوحة الثانية يراها الرائى الواقف على ضفة النيل الشرقية أمام فندق هيلتون وفيها يقول شاعرنا

إن الحضارات الثلاث هنا موحدة الوتيرة
فى هذه العمد الثلاثة سر وحدتها الأثيرة
سر امتداد وجودها عبر القرون بلا نظيره
وقيامها فى كل مرحلة بمعجزة عجيبة
لبيك يا أمل العروبة أفديك لا أرجو مثوبة
أهواك قاهرتى الحبيبة

أما اللوحة الأولى للقاهرة الجميلة كما يراها صالح جودت ، فيقول فيها :

لبيك من أغوار عاطفتى ومن أعماق قلبى
أهواك يا نبت الأكابر من فراعنة وعرب
يا ملتقى الوجهين ! يا وعد الحبيبة والمحب !

أما الشاعر إبراهيم ناجى فقد صور فى « ليالى القاهرة » تلك العاصمة العظيمة وقد لفها الظلام الدامس فى ليالى الحرب العالمية الثانية مع ظلام النفوس المجهدة المعناة وقد مرت بالشاعر انطباعات قاتمة سجلها فى تلك الملحمة الحزينة وقد مزج ناجى فى ملحمته هذه بين التاريخ والعاطفة والحب فكان يلقى حبيبته ليلا فى ظلام القاهرة الحالك ، تحت الفزع والظلام والخوف ، وهى تدعوه فلا يملك إلا أن يلبى قائلا :

قالت تعال ، فقلت أبيك هيهات أعصى أمر عينيك !
أنا يا حبيبة طائر الأيك لم لا أغنى فى ذراعيك ؟

وإذا تركنا القاهرة إلى دمشق عاصمة الأمويين بالأمس ، وعاصمة سورية اليوم ، وثغر الإسلام كما سماها الشاعر شوقى فأننا نجد اسمها القديم : (جلق) يرد فى شعر حسان بن ثابت حيث يقول

لله در عصابة نادمتهم يوما (بجلق) فى الزمان الأول

ومن الغريب أننا نجد شاعرنا شوقى يستعمل اسم (جلق) فى مطلع قصيدته « دمشق » التى يقول فيها

قم ناج «جلق» وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وأزمان

وقد أبدع شوقى تصوير دمشق فى هذه النونية الخالدة ، وما أجمل اللوحة الطبيعية التى يقول فيها عن الفيحاء

امنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحور فى (دمر) أو حول هامتها   حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد فى جلباب راقصة   الساق كاسية والنحر عريان

ويمضى شوقى فى رسم اللوحة الطبيعية الفاتنة لدمشق حتى ينتهى إلى أصحابها الماضين من عبد شمس وغسان ، وحفدة هؤلاء الآباء العظام .

وقد اشتهرت دمشقية شوقى هذه كما اشتهرت قافيته الأخرى التى قالها فى نكبة دمشق على يد الفرنسيين ومطلعها

سلام من صبا بردى أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق

والحق أن دمشق تحتل — كالقاهرة — مكانا عظيما فى ديوان الشعر العربى القديم والحديث وما برحت أمجادها تطن فى مسامع الشعراء ، ونكبتها ترن فى آذانهم

فالشاعر محمد على الحومانى يصور نكبتها الأولى والثانية فى قصيدتين فى ديوانه ؛ وكذلك فعل الشاعر وديع البستانى — مترجم رباعيات الخيام — فى قصيدته (دمشق الحمراء) التى يقول فيها

يا دمشق الفيحاء ماذا نسميك بُعَيْدَ الهدم والإحراق ؟
بردالك الفرات فار دماء   وتجارت حواليك حمر السواقى

ويذكرها الشاعر السورى محمد البزم بقصيدتين كل منهما بعنوان دمشق يقول فى ثانيتهما

أجل ! جلق المجد مهد العلا   ومهوى النفوس وسلوانها
كساها الربيع سنا حلة   يروع النواظر عنوانها

والشاعر المهجرى جورج صيدح ينظم مطولة بعنوان « الحنين إلى دمشق » وأخرى سنة ١٩٥١ بعنوان « دمشق الشام » حينما دعى لمرافق

مندوب الرئيس بيرون فى مهمة لدى رئيس الجمهورية السورية ، وثالثة بعنوان « دمشق الجريحة » على أثر قصف العاصمة السورية بقنابل فرنسا سنة ١٩٤٥

والشاعر العراقى محمد رضا الشبيبى ينظم قصيدة دالية بعنوان دمشق وبغداد، حينما أذاع الإنجليز فى العراق أنهم - لا العرب - أخذوا دمشق سنة ١٩١٨

والشاعر السورى عدنان مردم بك يظم قصيدة بعنوان « دمشق » يستهل بها ديوانه (نجوى) والشاعر المهجرى نصر سمعان يعود إلى نكبة دمشق المشهورة فيصورها فى قصيدة بهذا العنوان يقول فيها

هبت وعين الزمان ترقبها وخاض بحر الرجاء مركبها
الله فى أمة مجاهدة سعير حمى الآباء يلهبها
يا جنة الشرق أى عاطفة فى عاصف الهول عنك تحجبها؟

ونرى الشاعر العراقى معروف الرصافى يتذكر العراق وبغداد وهو بعيد فى دمشق فينظم قصيدة بعنوان : « ليلة فى دمشق » يتذكر فيها أمه، وهى تدعو له قائلا

أعلمت أنى فى دمشق أجر أذيال السرور ؟
بين الغطارفة الذين تخافهم غير الدهور ؟

وحنين الرصافى إلى بغداد من دمشق يذكرنا بحنين الشاعر ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ إلى دمشق حين اضطر إلى الخروج منها شبه منفى . وله فى ذلك قصائد يقول فى إحداها

دمشق ، فبي شوق إليها مبرح وإن لج واش أو ألح عذول
ديار بها الحصباء در ، وتربها عبير ، وأنفاس الشمال شمول

ويقول فى أخرى

دمشق ائتلاق الربيع الجديد — وإشراقة الفجر إما ابتسم
وريحانة نديت بالهدى — وزنبقة رويت بالحكم
على مهدها رائعات النبوغ — وفى ساحها قبسات الهمم

ولا ننسى فى مهرجان الشعر الذى أقيم بدمشق سنة ١٩٥٩ — واشترك فيه صفوة من شعراء الأمة العربية — قصائد العقاد وسليم الزركلى ، وأحمد رامى ، ومحمود عماد ، ومحمد طاهر الجبلاوى ، ومحمد محمد على ، وعلى الجندى ، كما لا ننسى مهرجان سنة ١٩٦١ قصيدة الشاعر صالح جودت التى عنوانها «على بردى» ، التى يقول فيها

دمشق ! وماذا تكون الجنان — سواك إذا أذن المحشر ؟
وما الفتن الحور إلا بناتك — والسحر فيهن لا يفتر

على أنه هو نفسه فى مهرجان سنة ١٩٥٩ عرج فى قصيدته «نشيد الثورة» على دمشق وبردى والغوطة ودمّر حيث يقول

حبيبى على الشاطىء الأموى — على (بردى) السحر والفتنة
على مرقص النور فى (دمّر) — على ملعب الحور فى (الغوطة)
على مولد الوعى واليقظة — على مشرق الشمس فى أمتى

ولن ينسينا هذا المعرض الحديث الإشارة إلى قصيدة العقاد فى دمشق التى يقول فيها

دمشق فى الأرض على صورة — لأنعم الله على عبده
فيها من الرضوان ما يرتضى — لمتعة العيش ومن بعده

كما لن ينسينا قصيدة الشاعر سليم الزركلى التى يقول فيها

دمشق ترعرع فيك الزمان بعب الخلود مع الخالدين
ويلثم أقداسك الطاهرات يطيل السجود مع الساجدين
ويشتق فيك الشذى العبقرى صفاء الرؤى ، ونقاء الجبين

وننتقل من دمشق إلى « بغداد » حيث تذكرها الشاعر ابن الرومى ، وتذكر صباه وشبابه فيها فقال

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست فيه العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

وإذا كان ابن الرومى قد تذكر صباه فى بغداد فإن أبا العلاء المعرى —بعد— قد تذكر بغداد فى قصيدتين من شعره ، يقول فى الأولى

فيا برق ! ليس «الكرخ» دارى وإنما رمانى إليه الدهر منه ليالى
فهل فيك من ماء « المعرة » قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالى ؟

ويقول فى الثانية

متى سألت (بغداد) عنى ، وأهلها فإنى عن أهل العواصم سالى

ولن نستطيع أن نتتبع فى دقة وحصر شامل كل ما قاله الشعراء القدامى والمحدثون فى بغداد ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى ما قاله الشعراء جميل صدقى الزهاوى ، وعبد القادر رشيد الناصرى ، وأنور العطار ، وعلى الجارم ، ومحمود أبو الوفا ، ومحمود غنيم ، وأنس داود ، وحافظ جميل ، ومحمد الأسمر وقد شرقت وغربت قصيدة الجارم التى يقول فيها

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة المجد التليد

يا بسمة لما تزل زهراء فى ثغر الخلود
يا موطن الحب المقيم ومضرب المثل الشرود
يا سطر مجد للعرو بة خط فى لوح الوجود

وقد ألقاها فى حفل المؤتمر الطبى الذى أقيم ببغداد سنة ١٩٣٨

ولقد عرج بعض الشعراء العرب بالخرطوم، وطرابلس الغرب، وتونس وهى من العواصم العربية ذوات التاريخ المجيد والماضى المزدهر والحاضر المتطلع المتوثب .. وللشاعر السودانى التيجانى يوسف بشير قصيدة عنوانها: (الخرطوم مدينة الشعر والجمال) يقول فيها

مدينة كالزهرة المونقة	تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل فى صدرها
تحسبها أغنية مطرقة	نغمها الحسن على نهرها !
مبهمة ألحانها مطلقة	رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخمرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء فى بدرها

أما زميلنا المجمعى الشاعر السودانى عبدالله الطيب صاحب «أصداء النيل» فله قصيدة بعنوان (إلى الخرطوم) نظمها بمناسبة عودته لها من بعد اغتراب، يقول فيها :

إلى الخرطوم من بعد اغتراب	وبعد بلى الشهى من الشباب
وما الخرطوم دارى ، غير أنى	غريب حيثما حلت ركابى
غريب فى بلادى، سوف يغنى	غريبا فى سباسبها سرابى

أما الشاعر المصرى محمد الأسمر ، فكانت له بحدائق «المقرن» بالخرطوم عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق وقفة استمع فيها هناك إلى صوت فتاة سودانية تغنى ، فاستهواه صوتها ، فخف نحوها وظل مستمعا إليها برهة غير قليلة من الزمان

ولم تعدم طرابلس الغرب من يحبها ويقف عندها ، ويذكر أمجادها من شعرائنا المعاصرين فالشاعر محمود أبو الوفا يقول فيها

طرابلس دارى :.. بارك الله فى دارى	وإن تلك دارى ما بها أحد دارى

كأنى بها أضحت ، وليست بأمة فليس لها حس ، ولا لبأ سارى !

والشاعر محمود غنيم يزور طرابلس فى مهمة ثقافية ، فحين تحتفى به أنديتها وأوساطها الأدبية يقول فى حفل تكريمى أقيم له سنة ١٩٥٤

قالوا : الجمال هنا والمجد فاقتبس فقلت : كل المعالى فى طرابلس
لما نزلت بها باتت تذكرنى أمجاد مصر ، وبغداد ، وأندلس
فحركت شجنى رغم السرور بها فاعجب لمبتهج فى ثوب مبتئس !

أما تونس فقد حياها الشاعر العراقى خالد الشواف بقصيدة عنوانها « تونس » ، يقول فيها

هذى ربالك يضوع من جنباتها أرج الفدا وعبير الاستشهاد
فى كل ناحية حشاشة باذل سالت تضمخها ، ومهجة فاد

ولقد حفل مؤتمر الأدباء ومهرجان الشعر الذى انعقد فى تونس سنة ١٩٧٣ قصائد فى وصف تونس وتحيتها ، منها قرطاجية الشاعر صالح جودت التى يقول فيها

يا تونس الأحلام يا كنفا للفن والأنغام والسحر
يا بلدة (الشابى) وهو لنا خدن الشباب ، وزهرة العمر
ورنى « أبولو » النضر تجمعنا حول الشباب وعهده النضر

ولم ينس الشاعر أبو القاسم الشابى أن يذكر تونس فى قصيدة له عنوانها (تونس الجميلة) ، يقول فيها

أنا يا تونس الجميلة فى لج الهوى قد سبحت اى سباحه
شرعتى حبك العميق وإنى قد تذوقت مره ، وقراحه
لست أنصاع للّواحى ولو مت وقامت على شبابى المناحه

وهكذا نجد وفاء الشعراء وحبهم لعواصمهم العربية التى التقى فيها أمجادهم ، ويتلاقى فيها حاضرهم كماضيهم . تطلعا ليوم جديد ، وغد مشرق سعيد .

الفكاهة فى الشعر المعاصر

ما أحوج كل عصر إلى الفكاهة ، تسرى عن هموم أهله ، وتخرجهم من مشاغل الحياة وأثقالها ومن نكد الدنيا إلى عالم آخر تشيع فيه الضحكة ، وتفتر الابتسامة . وإذا كانت الفكاهة تتخذ لها طابعا معينا فى القول أو الفعل أو الإشارة وفى النغمة أو الصورة والرسم فأنها قد تكون فى الشعر كما تكون فى النثر

وليس من الضرورى أن تكون الفكاهة الشعرية نابعة من شخص فكاهى مرح الأعطاف ، خفيف الملامح الجسدية موصول الحظوظ من الدنيا ومن أفراحها ، فقد يكون الشاعر صاحب الفكاهة الشعرية شخصا حاد المظهر ، وقور الملامح ، بادى الصمت ، رصين السمات وقد يكون ظاهر الحزن ، واضح البؤس ، مكدودا محدودا غير مجدود ، لم تسعفه الأيام ، ولم يسالمه الزمان

فقد كان الشاعر « محمد حافظ إبراهيم » يمثل البؤس فى الحياة — وخاصة فى فترة معروفة من عمره — ومع ذلك كان الشاعر البائس « عبد الحميد الديب » ، والشاعر الدكتور « إبراهيم ناجى » ؛ وقبلهما كان الشاعر الأسود اللون « محمد إمام العبد » ، فلم يمنعهم ما أحاط حياتهم من ملابسات الحزن من أن يصبوا الفكاهة فى أشعارهم ولعل الطبيعة قد وهبتهم هذه الروح الفكهة تخفيفا لآلامهم وأحزانهم من ناحية ، وترويحا عن أنفس البائسين المحزونين من ناحية أخرى والشاعر الإسلامى الكاتب « مصطفى صادق الرافعى » كان يبدو الجد والوقار على ملامحه ، ولكن النزعة الفكاهية لم تفته فى شعره أو نثره . وكذلك كان الشاعر القاضى « إسماعيل باشا صبرى » ، فقد كان فيه وقار القضاة ورصانة مظهرهم ومع هذا شاعت فكاهاته الشعرية فى عصره ، ودارت على ألسنة الرواة فى زمانه ، واشتمل قسم

غير صغير من ديوانه الذى نشره الشاعر أحمد الزين ، على باب الفكاهات الشعرية :

وقد تثير بعض الغرائب فى مواضعات المجتمع خيال شعراء الفكاهة ، وتدعوهم إلى التعريض بهذه الصور الاجتماعية الغريبة المناقضة لسلامة المنطق والسلوك

كما أن صورة المنافق متعدد الوجوه قد لفتت نظر الشاعر « مصطفى صادق الرافعى » ، فقال يصفه

وجوهك شتى ! واحد ذو بلاهة   وآخر من هذى البلاهة بارد
ووجه أرى فيه النفاق ملونـا   وآخر يبدو وهو للفضل حاسد
ووجه من الكيد المخبأ بارق   ووجه من اللوم المشهر راعد
فيا عجبا تمشى بستة أوجـه   مع الدهر بين الناس ، واسمك واحد(١)

و « الرافعى » تنبه دائما إلى هذه الصور الاجتماعية الشاذة ، فحين رأى المرأة العجوز تستر وجهها بالألوان والأصباغ ، وتروح إلى العطار تبغى صلاحها ، لتستر عمرها ، وتموه على الناس بهذا ، وصفها بهذا الشعر الفكاهى

ألا إنما أم الحماقة من غدت   بما أدهنت تلقى على عمرها سترا
فحسبها من راءها طفلة الصبا   ويا ربما كانت كجدته عمرا !

وتنبه الشاعر « صالح جودت » إلى اختلاف المذاهب والطوائف والنحل ، والمتمين والتشيع والأحزاب فى الشرق العربى فلم يترك هذه الصورة الاجتماعية المشوشة تفلت من ريشته الدقيقة ، فقال فى فكاهة ساخرة :

---

(١) ديوان الرافعى - جـ ٢ ص ١١٧

اختلفنا مذاهبا فافترقنا فطوانا المستعمر الضليل
وادعانا طوائفا ذاك عبد بربري ، وذاك حر أصيل
ثم هذا درز وذلك فرعو ن ، وهذا كرد ، وذاك دخيل
ثم هذا بعث ، وذلك حزب قرمزى الميول حين يميل !
ثم هذا « مؤتمرك » لبازع القلب ، وهذا حبيبه « جونبول »
ثم هذا « مفيتق » أرضه الأم فرنسا ، وربه « ديجول »
فتنة ما لها قرار وإفك وضلال مصيره مجهول (١)

وقد تكون مفارقات الأوضاع السياسية فى الشرق العربى سببا فى إثارة الأشعار الفكاهية عند الشعراء وأصحاب الفكاهة . ونرى شعراء الفكاهة هنا يعالجون هذه المناقضات السياسية بروح فكهة ، ولا يعالجونها معالجة الكتاب السياسيين الجادين فلقد زعم كاتب فرنسى قبل الحرب العالمية أن جلاء الأنجليز عن مصر سيكون فى « أكتوبر القادم » . ولم تنطل الكذبة على واحد فى مصر ولكن « محمد حافظ إبراهيم » تناولها بفكاهته الشعرية الساخرة ، قائلا

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح فى الإبهام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم كذبة إبريل ، لأكتوبر (٢)

وقد كان الشاعر « حافظ إبراهيم » راصدا لهذه الأوضاع السياسية الشاذة يسلط عليها قلمه اللاذع . ففى ظلام الامتيازات الأجنبية قال مخاطبا المخدوعين من قومه :

قل للفاخرين : أما لهذا التفاخر من منتهى ؟
أرونا بينكم رجلا ركينا واضح الحسب !

---

(١) أغنيات على النيل — ص ٩٥
(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٠٩ .

اروني لصف مخترع　　أروني ربح محتسب(١)

والشاعر الفلسطيني « إبراهيم طوقان » ، يرى أن بعض الزعماء يتجرون باسم الإخلاص لقضية فلسطين ، فيطالب منهم في فكاهة ساخرة أن ينتحوا ويستريحوا من العمل السياسي حتى لا تضيع بقية البلاد على أيديهم ، قائلا :

أنتم المخلصون للوطنية	أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غير قول	بارك الله في الزنود القوية
ما جحدنا أفضالكم غير أنا	لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد	فاستريحوا كيلا تطير البقية(٢)

والشاعر « صالح جودت » يصور في فكاهة مريرة — في قصيدته تمهيد الثورة — حالة الأحزاب والوزارات المتتالية في مصر قبل الثورة قائلا :

ويستلهمون مقام « السفير »	خطوط السياسة في الدولة
يولون يوما « زعيم الرعاع »	ويوما زعيم الأقلية
ونخلص من « صاحب الدولة »	لنسقط في « صاحب الرفعة »(٣)

وما ألذع فكاهة الشاعر « صالح جودت » ، وهو يصور حالة مصر في العهد التركي قائلا

ومضى بسوم الذل أبناء الحمى	ويخيفهم سرراله و « القليق »
يجبي الضرائب من عرايا جوع	جفت مزارعهم فليست تورق
ويسوقهم بالسوط — وهو ربيبه —	ويطوف بالخازوق (٤) وهو مخوزق

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٠ .
(٢) ديوان ابراهيم ص ٨٠ .
(٣) اغنيات على النيل ص ١٥
(٤) اغنيات على النيل ص ٧٨ .

والفكاهة عند شعرائنا المعاصرين والمحدثين قد تثيرها حادثة معينة ، مما يثير الضحك ، أو يثير المبكى على حد سواء فقد تكون الحادثة مضحكة ولكن الشعراء يعلمون عليها بما يزيدها إضحاكا وتفكها وقد تكون الحادثة مؤسفة فيدخل شعراء الفكاهة فيها بما يخفف من مأساتها وينبه إلى خطرها

أما الحادث المؤسف فيمثله ما وقع من مولاى عبد العزيز سلطان مراكش سنة ١٩٠٤ حين استقدم من مصر « تختا » من المطربين والمطربات — وعلى رأسهم «سلطانة» — ليتسلى بأغانيهم ، وقد كان فيه ميل إلى اللهو والمجون ، فأنكر المسلمون والعرب عليه ذلك . وهنا عملت الفكاهة الشعرية عملها فوجدنا الشاعر إسماعيل صبرى يقول

يا آل مراكش ، وفد الغناء أتى من مصر يسعى لمولاكم على الراس
لا تنكروا نكتة فى طى بعثته «فالعود» أحسن مايهدى إلى «فاسى» !

والعود هنا هو عود البخور أو عود الغناء ، والفاسى إما نسبة إلى مدينة فاس ، أو اسم فاعل مفهوم . والتورية هنا مضحكة لاذعة .

وقد تأتى الحادثة أو المناسبة المثيرة للفكاهة الشعرية عرضا كما فى الحادثين السابقين ، فهما من صنع الظروف التى لا حكم لها ، ولا ضابط ولكن قد تخلق الحادثة أو المناسبة خلقا لإشاعة الفكاهة ، ونشر الدعابة الشعرية حولها فقد أراد بعض الشعراء المحبين للدعابة والضحك أن يروحوا عن أنفسهم بتنصيب « حسين محمد » المعروف بالبرنس أميرا للشعر ، وكان فى البرنس ميل للدعابة وخفة الظل ، وتصديق لما يقال وأقيم الحفل فى ليلة من ليالى رمضان وكانت قصائد الشعراء فى ذلك الحفل الضاحك مملوءة بروح الفكاهة فالشاعر « محمد الأسمر » يقول مخاطبا البرنس

سيدى ! رجع لنا شعر ك ، واهتف ما تشاء

حيث لا تسمعك الأرض ولا تصغى السماء !
سيدى ، مولاى يا مو لى جميع الشعراء
ثبت الله لك العر ش ، وإن كان هواء !

والشاعر « أحمد الكاشف » يقول

من لى بسدتك العليا أقبلها ودون سدتك الأستار والحجب
هذا نصيبى من الفوضى ظفرت به من بعد ما خانى فى غيرها الأرب
لم يغننى الجد فى قول وفى عمل وقد لعبت ، عسى أن ينفع اللعب !

والشاعر « محمد المراوى » ، يقول

إلى العرش : فاصعد وامض بالأمر واقطع وصر ، وانه ، وامنح ما بدا لك ، وامنع !
وصرف أمور الشعر فى الأمة التى تعبت رجال الشعر فيها ولا تعى
فأنت أمير الشعر غير منازع وكل أمير غير شخصك مدعى !

والشاعر الفكه « حسين شفيق المصرى » يقول

يا حماة القريض حول البرنس أصبح الشعر دولة ذات كرسى
وهل الحكم والأمارة إلا لبرنس يضحى برأى ، ويمسى
يقرض الشعر مثلما يقرض الفا ر حبالا قد فتلت من دمقس
كا من قبله القريض يجلبسا ب ، فاضحى « بنطلون » ، و« جرس »
أيها الشاعر الكبير رضينـا لك أميرا ، فكنه تفديك نفسى !

وتنقل بقية الشعراء فى ذلك الحفل من مفكهات ومداعبات ومعابثات ، ومنهم حسن التلبانى ، وكامل كيلانى ، والخطاط الشاعر سيد إبراهيم ، وعبد الجواد رمضان ، وعزت نشاى .

ولعل خلق المناسبة الصالحة للفكاهة الشعرية هو قصد من الشعراء

للترويح عن النفوس المكروبة فى ساعة كربة ، أو زمان ضيق فقد وحظ فى اثناء الحرب العالمية الثانية أن موجة الغلاء الفاحش ، واختفاء كثير من السلع الضرورية ، قد اضافت إلى كرب الناس بالغارات والقتال ، فقد شكا الشاعر « محمد الأسمر » يوما لصديقه « محمد عبد الغنى حسن » اختفاء « كاوتش » الأحذية من الأسواق . وما هى إلا أن بعث الشاعر عبد الغنى للشاعر الأسمر بالكاوتش المراد ، ومعه أبيات فكاهية فيها تعريض بالحرب ، وغلاء السلع ، ورخص الإنسان ، وفيها يقول

إننى مرسل إليك « الكاوتشا »	وبدى من نداك ترعش رعشا
ليتنى أستطيع إهداء نفس	لم تجد فى صفاء نفسك خلشا
ما لحرب البسوس عادت ضروسا	تبطش اليوم بالممالك بطشا
عجبا ! أصبح «الكاوتش» عزيزا	بينما المرء لا يساوى قرشا !

فرد عليه الشاعر الأسمر بأبيات فكاهية يقول فيها

هش قلبى لمـــا بعثت وبشا	بقوافى القريض بلـه « الكوتشا »
ما طلبنـاه للحذاء ، وحـــاشى	بل طلبنـــاه فى الأضاحى كبشا !
فهو خير من بعض لحم أراه	يتعشى عن بـــه يتعشى !
ورب لحم إذا « الكوتش » رآه	قال : ماذا أرى؟ وخاف وكشا !

واستمر الأسمر فى سخريته وفكاهته ونقده للحرب والغلاء حتى آخر الشوط .

ومن هذه المناسبات التى خلقها الشعراء المرحون بمناسبة ضيق النفوس وغلاء الأسعار فى الحرب العالمية الثانية مناسبة « خروف العيد » ، ففى يوم من أيام عيد الأضحى أرسل الشاعر محمد الأسمر إلى الشاعر الضابط عبد الحميد فهمى مرسى يستهديه — أو يستعيره — خروفا ، وكان الرسول — أو الرسالة — قصيدة فكاهية يقول الأسمر من بعض أبياتها

إن كان « ذو القرنين » عندك حاضرا ... فابعث به لنرى ضياء جبينه !
ولكى نشاهد حسنه وجمالــه ... ونرى اقتدار الله فى تكوينه !
ولكى يجاوب — لو يمأمىء مثله ... فى بيت جارى — مأمأت قرينه
وليعلم الجيران أجمع أننى ... إن جاء عيد لم أضق بشئونه

وجاءت الخراف (١) من الشاعر الكريم عبد الحميد فهمى مرسى على سبيل الهدية إلى الشعراء الأسمر ، وعلى الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ويظهر أن رحلتها من المنيا إلى القاهرة قد أنهكتها وأضوت أجسامها ، فاتخذ الشعراء المهدى إليهم من هذا الموقف موضعا للشعر الفكاهى الذى اشتغلت جريدة الأهرام بنشره على أيام . وكان مما قاله الأسمر

أربع أقبلت ، فقلت خراف ... ما تراه العيون أم أطياف ؟
كان منها لنا خروف عجيب ... هو من فرط ضعفه شفاف
لاح كالرهم .. بل هو الوهم يمشى ... لا خروف جاءت به الأرياف

وكان مما قاله محمد عبد الغنى حسن

وصل الخروف وقد حسبتك مازحا ... فلذاك قد بالغت فى تسمينه
الله زينـه بكل جميلــة ... وجميل صنعك زاد فى تزيينه

أما الشاعر على الجندى فقد استقبل الخروف المهدى إليه بقوله

أخراف ، هاتيك أم أنقاف ... نبثونا عسى يزول الخلاف
مسها الضر والهزال فراحت ... تتهادى كأنها أطيــاف
قد رآها الجزار فانتابه الغشـ ... ـى وخفت لحمله الإسعاف
هل سمعتم أو هل رأيتم خرافا ... لا لحوم بها ، ولا أصواف ؟

ولم تنته مناسبة « خروف العيد » إلى هذا الحد : بل كان لها ذيول

---

(١) ومنها خروف رابع إلى الشاعر عبد الحميد فهمى نفسه ، وهى فى الواقع هدية من قريبه الشاعر عبد الحميد .

وذيول .. فمن ذيولها مجتمع لخراف الشعراء فى ميدان باب الخلق : وقد قام فيه حوار طريف بين خراف الهراوى ، وأحمد رامى ، والسيد حسن القاياتى ، والدكتور محجوب ثابت وكان كل خروف ينطق بأسلوب صاحبه من الشعراء وعلى طريقة صياغته فخروف الشاعر الهراوى يقول على طريقته فى شعر الأطفال

يا إخوانى فى الخرفان
أهلا بكم وأهلا لكم
فيم رحلتم ثم حللتم ؟
بباب الخرق بين الخلق
أنا لا أدرى سر الأمر
أكذا نقف ؟ أين العلف ؟
أين الماء ماء ، ماء

وقد تكون الفكاهة الشعرية بدون أدنى ملابسة ، بل قد تكون جوابا من الشاعر عن سؤال حول فعل معين ، فأن الشاعر القروى المهجرى — رشيد سليم الخورى — قد قام بنفسه يوما أن يحلق شاربيه بعد أن كان أعفاهما زمانا طويلا ، فلما سئل من بعض أصحاب الفضول عن السبب فى حلق شاربيه ، أجاب فى مقطوعه فكاهية

قالوا حلقت الشاربين ويا ضياع الشاربين !
فأجبتهم بل بئس ذا ن ، ولا رأت عيناى ذين
الشاغلين المزعجين الطالعين ، النازلين
ويلى إذا ما أرهفا ذنبيهما كالعقربين
أن ينزلا لجما فمى أو يصعدا التطا بعينى !
وإذا هما بسط الخوان تراهما سبقا اليدين
فأذا أردت الأكل يقتسما ن بينهما ، وبينى

وإذا أردت الشرب ممتصا ن كالاسفنجتين .. !
فكأنني بهما وقد وقفا بباب المنخرين
عبدان من أشقى العبيد تقاضيا ملكا بدين .. !

ويدخل فى هذا الباب شعر الفكاهة بالعيوب الخلقية ، والمظاهر الجسمية ، ولو لم يكن ذلك جوابا عن سؤال ، وإنما ابتداء بالمقال فالشاعر « محمد حافظ إبراهيم » تقع عينه على رجل عظيم البطن ضخم البدانة فيصفه فى صورة شعرية فكاهية قائلا

عطلت فن الكهرباء فلم نجد شيئاً يعوق مسيره إلا كا
تسرى على وجه البسيطة لحظة فتجوبها ، وتحار فى أحشاكا !

والشاعر الخفيف الروح « حفنى ناصف » يصف مداعبا تلميذه المحامى عبد السلام فهمى وكان شديد السمرة ، فيقول

سلام على عبد السلام ولعنة من الله تترى كل يوم لخمة
أرى وجهك الكبسى (١) ينضح سيرجا ومبسمك الألى مجارى الطحينة !

والشاعر الخفيف الظل « محمود غنيم » يصور صاحبا له ضخم الأنف قائلا

لى صاحب ظله خفيف لأنفه دانت الأنوف
أنف لـه قمة وسفح فيه المغارات والكهوف
إن قامت الحرب غاب فيه من خوف غاراتها ألوف
سألته أهو صنع ربى ؟ فقال : لا ؛ بل بناه خوفو

والشاعر « العوضى الوكيل » يعابث شخصا قبيح الصورة بقوله

يا صاحب العثنون مالك والعلا إنى رأيت بك الملاحى أجلوا

---

(١) نسبة إلى الكسب بضم الكاف — أو الكسبة — وهو ما يخرج من ثفل من عصر السمسم .

وقد يأتى الشعر الفكاهى على سبيل « الأصالة » فى النظم ، أو على سبيل المعارضة المناقضة لشعر قديم مشهور وقد برع فى هذا البـــاب الشاعر « محمد المهياوى » والشاعر « حسين شفيق المصرى » وهل تفوتنا هنا معارضة حسين شفيق المصرى لقصيدة النابغة الذبيانى التى مطلعها

يــا دار مية بالعليـــاء فالسند   أقوت ، وطال عليها سالف الأمد

وقد جعل شاعرنا الفكاهى موضوع معارضته مغالاة الآباء فى جهاز العروس حبا فى الظهور ، فقال

راحوا لبيع نحاس البيت تكملة   لأجرة التخت غنى ليلـة الأحد
أبوك يا بنت مسكين يموت غدا   من غيظه ، أو يبيع البيت بعد غد
هذا الجهاز رهنــا كى نجئ بــه   أطيانـنــا ، وصبحنا أفقر البلد
لكنهما أمها قالت أتفضحنا ؟   لابد من دعوة الأعيان والعمد !

ومن هذه المعارضات الفكاهية معارضة لقصيدة على الجارم التى مطلعها

مالى فتنت بلحظك الفتـــاك   وسلوت كل مليحة إلاك

وفيها يقول الشاعر المعارض

أنت القطار على شريط صبابتى   وأنا « البـنسة » فى المسير وراك

وواضح أن هذه المعارضات التى كانت تنشرها المجلات الفكاهية — وعلى رأسها مجلة الكشكول — كانت تصاغ بلغة بين الفصحى والعامية ، مما يجعلها قريبة إلى أذواق جمهرة من القراء ، كما كانت تعتمد على ألفاظ دارجة مضحكة

وقد تكون المعارضة الشعرية الفكاهية باللغة الفصحى وحدها ، كما فعل الشاعر « إبراهيم طوقان » فى معارضته لقصيدة شوقى فى المعلم التى مطلعها

قم للمعلم وفــه التبجيــلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

فيقول طوقان حيث ابتلى بمحنة التعلم

شوقى يقول وما درى بمصيبتى «قم للمعلم وفه التبجيلا»
اقعد! فديتك، هل يكون مبجلا من كان للنشء الصغار خليلا؟
ويكاد يفلقنى الأمير بقوله «كاد المعلم أن يكون رسولا»
لو جرب التعليم شوقى ساعة لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعلم غمة ، وكآبة مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا!
مائة على مائة إذا هى صلحت وجد العمى نحو العيون سبيلا

وبمناسبة الشكوى من وظيفة المعلم وقلة جدواها وقلة فرص الترقى فيها لا نجد شاعرا من أصحاب الفكاهة بلغ به السخط عليها والسخرية منها ما بلغ من الشاعر «محمود غنيم» وما أمرّ شكواه الفكهة وهو يقول حين رقى مفتشا دون أن يزيد راتبه أو ترفع درجته

وما سرنى التفتيش حين وليته ولا أنا — إن ولى — عليه بآسف
لقد خلته يغنى عيالى من الطوى فكان كمضروب من النقد زائف!
وزارة مهضومين ليس بقابض فتى يرتقى فيها ، وليس بصارف
إذا قيل منسيون فتشت عنهمو فلم ألقهم إلا «رجال المعارف»

وديوان محمود غنيم «صرخة فى واد» و «فى ظلال الثورة» مملوءان بنماذج من هذا الشعر الدعابى الحار فى وظيفة المعلم وهضم حقوقه

وفى صور الهجاء فى الشعر العربى المعاصر ألوان من الفكاهة التى تجعل فن الأهاجى مقبولا سائغا فى عصرنا هذا بعد أن ظن أنه اندثر أو كاد ، مع علمنا بأن الهجاء طبيعة فى نفوس البشر فكيف يتعرض أو يندثر فن شعرى هو من طبائع النفس البشرية والحق أن الأهاجى المفحشة المقذعة كادت تندثر فى زماننا هذا لوجود القوانين التى تمنع منها ، وتقف فى طريق انتشارها لأنها نوع من الجريمة يدخل تحت طائلة القانون. ولم يبق

من هذه الأهاجي المكشوفة إلا ما يدار بين شعراء هذا اللون في مجالسهم وندواتهم الخاصة ، وقد اشتهر بهذه الفكاهات الشعرية المكشوفة جماعة من أقدر شعرائنا المعاصرين ، منهم المرحوم محمود غنيم والشعراء عامر بحيرى وحسن كامل الصيرفى ، والعوضي الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وعبد الحميد الديب رحمهما الله . ولن نستطيع أن نسجل هنا نماذج من هذا اللون الذى يذكرنا بابن الرومى ، وابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمى ، والواسانى وغيرهم ولا ندرى هل يسجل هذا الشعر الفكاهي المكشوف كما يسجل كل شعر . وكما سجل شعر الماضين من أصحاب المجون ، أم سيظل معتمدا على الرواية الشفوية حتى تذهب به الريح ؟ ولكنه على كل حال صورة طريفة للشعر الفكاهى الماجن المعاصر لا ينبغى أن يطمسها مرور الزمان

وزعيم هذه المدرسة كان الشاعر الفنان محمود غنيم الذى كان له دعابات مع الشاعر « إبراهيم ناجى » فى حكاية « الردنجوت » ، وحكاية « العدس الأباظى » والعدس الأباظى هو لون من الطعام اللذيذ اشتهر بيت الأديب الشاعر الإنسان إبراهيم دسوقى أباظه بطهوه وكثيرا ما التقينا على مائدة دسوقى « باشا » حول هذا الطبق الشهى ! وما أكثر ما كان يقوم الدعاب بين الشاعر غنيم وناجى حول هذا الصنف الذى يتخذه غنيم معبرا للتعريض بالدكتور إبراهيم ناجى والمعابثة معه وما أطرف الشاعر محمود غنيم وهو يقول فى هذا المعرض

قالوا لنـا عدس فأفزعنى اسمه	لم لا ؟ ومنه قد تكون هيكلى ؟
حتى ظفرت لدى الوزير بأكله	فلعقت من بعد الملاعق أنملى (١)
عدس الأباظيين صنف آخر	غير الذى عودته فى منزلى
ساءلت « ناجى » وهو يحشو فكه	عن صنعه ، فأجابنى : لاعلم لى !

---

(١) الوزير هو ابراهيم دسوقى اباظه

هو من كبار العالمين بأكله ... وبغير ذلك من كبار الجهل
لا تدع « ناجى » إن أصبت بعلة ... وبطبه ودوائه لا تحفل !
زاد « الدسوقى » المفدى وحده ... طب يداوى كل داء معضل

والفكاهة هنا قاسية من حيث تعريضها بعلم الدكتور ناجى فى مهنته وليست هذه أول مرة يدخل غنيم على ناجى من هذا المدخل ، ويصيبه من هذا المقتل ففى « فكاهية » أخرى يقول غنيم عن ناجى

لنا طبيب يداوى الناس إن مرضوا ... بالفصل ما بين أرواح وأبدان
ومن تجرع كأس الموت من يده ... فلن يمر على جنات رضوان
رد « الردنجوت » موبوءا لصاحبه ... فلم يطهره محلول السليمانى

والآن ننتقل إلى حكاية « الردنجوت » ! فقد كان الشعراء جميعا دعوا إلى حفلة رسمية خارج القاهرة — قبل عهد الثورة — على أن يلبسوا الردنجوت طبقا لقواعد البروتوكول .. فاعتذر غنيم من ذلك معرضا بناجى زاعما أنه استعار « ردنجوت » لم يوائم جرمه ولا قامته وأن غنيما كان يستطيع أن يستعير ردنجوت مثل ناجى ، ولكنه لم يفعل مخافة أن يتعرض لمن المعير .. وندع أبيات غنيم تتحدث عن نفسها وهو يقول

الردنجوت يا معالى الوزير ... ليس يقوى عليه جيب الفقير
رمت أن أستعيره مثل ناجى ... ثم أحجمت خوف منّ المعير
كم رأيت القصير فوق طويل ... ورأيت الطويل فوق قصير
لست أرضى بثوب غيرى وإن هم ... نسجوه من سندس وحرير

وكان هذا التعريض بناجى سببا فى إثارته بقصيدة فكاهية رائعة يعابث فيها الشاعر غنيم قائلا

نصرت به والصحن بالصحن يلتقى ... فلم أر أبهى من غنيم وأظرفا

ترامى له لحم فلم يدر عنده ... لديك من بعد الطوى أم تخرفا(١)؟
وقدمته للديك وهو كأنما ... يطير إليه واثبا متلهفا
وأومأ لى باللحظ يسألنى به ... أتعرفه ؟ أومأت باللحظ مسرعا
وقدمته للديك وهو كأنما ... يطير إليه واثبا متلهفا
غنيم ! أخونا الديك ! قدمت ذا لذا ... فهذا لذا من بعد لأى تعرفا
تعبر ناجى بالردنجوت جساه ... معارا، فغامر واستعر أنت معطفا !
وأقسم لو أن الردنجوت نلته ... وجاد به من جاد كرها، وسلفا
لقلبته ظهرا لبطن محسرا ... به تحسين الوجه من عبط قفا ! !

والحق أن هذه الصورة الفكهة التى قدم بها ناجى الشاعر غنيم، ووصفه جهل غنيم بشكل الديك أو الخروف، وتعريفه بين غنيم والديك على مائدة دسوقى دباطة، ووصفه لجهل غنيم بشكل الردنجوت فلا فرق عنده بين وجهه وظهره هى من أمتع ما سمعنا من الشعر الفكاهى فى زماننا هذا

وفى الحق أن شعر ناجى الفكاهى لا يجوز إغفاله ونحن نؤرخ للفكاهة الشعرية فى العصر الحديث. وعلى الرغم من نغمات الحزن كان له فى باب الشعر الفكاهى مقام ملحوظ، ويكفى قصائده فى «هجو طفيلى» وفى «هجو أعمى بغيض زوج حسناء» وفى مداعبته للدكتور «تملى» طبيب الأسنان، وفى دعابته مع الأديب المفكر وديع فلسطين حين أنعمت عليه حكومة أسبانيا بوسام رفيع، للدلالة على تغلغل روح الفكاهة فى شعره.

وفى شعر الفكاهة المعاصرة قد يحدث أن تنسب قصيدة فكاهية إلى غير قائلها، وتدعى إلى غير صاحبها. وهذا يحدث — على غير قلة — فى كل فنون الشعر من المديح إلى الرثاء إلى الوصف فالغزل وغيرها فالقصيدة اليتيمة — أو الدعدية — المشهورة التى مطلعها

---

(١) تعيك، وتخوف اشارتان الى الديوك والخروف.

هل بالطلول لسائل رد أم هل لها بتكلم عهد ؟

قد نسبت إلى شعراء كثيرين فى القرن الثالث الهجرى ، بلغ عددهم أربعين شاعرا . وقد غلب عليها اثنان أبو الشيص ، وعلى بن جبلة المعروف باسم « العكوك » وقصيدة

صاح فى العاشقين يالكنانة رشأ فى الجفون منه كنانه

أدعاها سبعون شاعرا ، وقد غلب عليها الشاعر السورى المصرى الشهاب العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ : وهى القصيدة التى منها البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه !

ولن يفوتنا هنا الإشارة إلى مشاركة الشاعر « أحمد شوقى » فى الشعر الفكاهى المعاصر : وعلى ما كان فيه من إطالة التفكير وإدامة النظر ، ومن قلة الكلام ونزورته ، كان له فى الفكاهة الشعرية مكان معلوم .: ومن شعره الفكاهى قصيدة للدكتور محجوب ثابت حينما استبدل بحصانه الهزيل « مكسوينى » سيارة أوفرلاند ، وفيها يقول

لكم فى الخط سيارة حديث الجار والجارة
أدنيا الخيل يا ماكسوى كدنيا الناس غدارة
لقد بدلك الدهر من الأقبال إدباره
فصبرا يا فتى الخيل فنفس الحر صبارة

ومن فكاهاته الشعرية أيضاً قصيدته الأخرى فى الحصان مكسوينى .: وأبياته الفكهة التى يتحدث فيها عن براغيث الدكتور محجوب ثابت : والحق أن محجوب ثابت كان هدفا للمداعبات الشعرية وغير الشعرية : وهل ننسى للشاعر « حافظ إبراهيم » صورة شعرية فكاهية رسم بها محجوب ثابت .. وفيها يقول

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها قصف المدافع فى أفق البساتين(١)
من كل قاف كأن الله صورها من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها واختص سبحانه بالكاف والنون

وقد يكون عيب خلقى عند شاعر سببا فى أن يجعل هو من نفسه موضعا للدعابة والسخرية من نفسه ، وكأنه بذلك يسد الباب على من عداه من الشعراء ليعابثوه ومن هذا الصنف من شعراء عصرنا المرحوم « محمد إمام العبد » الذى تلونت بشرته بالسواد الحالك . فاتخذ هو من سواد لونه محورا للفكاهة فى شعره . فيجعل سواد لونه ثوب حداده على سوء حظه فى الحياة ، ويقول

لبست لأجله ثوب الحداد ودرت مع الزمان بغير زاد
فما دار أقمت بها ديارى ولا بلد أقمت بسه بلادى

ويقول

نسبونى إلى العبيـد مجازا بعد فضلى ، واستشهدوا بسوادى
ضاع قدرى فقمت أندب حظى فسوادى على ثوب حداد

ويقول حين سأله سائل : لماذا لا تتزوج يا إمام :—

يا خليلا ، وأنت خير خليل لا تلم راهبا بغير دليل
أنا ليل ، وكل حسناء شمس فاجتماعى بها من المستحيل

ويقودنا حديث انصراف الشاعر محمد العبد عن الزواج إلى الحديث عن إقبال الشاعر الفكاهى المرح « محمد مصطفى حمام » على الزواج بلا حساب فقد تزوج أربع زوجات أنجبن له أكثر من خمسة عشر ولدا ما بين ذكران وإناث .. فلما صار جدا لأحفاد ، نظم أبياتا فكاهية يقول فيها :

---

(١) كان الدكتور محجوب ينطق دائما بالقاف الغليظة والبساتين هى بساتين بركات ، وكان سعد زغلول يستجم فيها ومعه من بطانته حافظ.

بكرت للأعباء أحملها ، وقد　　أعيت عزائم أقوياء شداد

وجعلت أزرع فى صباى ولم أزل　　ما بين زرع صالح وحصاد

ويقول أصحابى كبرت ولم تزل　　مرحا بناديك الصبا وتنادى

يا حاسبى سنى ! رويد حسابكم　　أنا لو عرفتم أصغر الأجداد !

ولن ننسى ونحن نمضى بالبحث إلى غايته ان نذكر الشعر الفكاهى عند « حفنى ناصف » ، وخاصة قصيدته إلى سليم سركيس ، وقصيدته المشهورة بمناسبة نقله إلى قنا ، وأن نذكر الأشعار الفكاهية التى كان يرسلها « العقاد » فى ساعات صفوه ، وخاصة مراثيه لديوجين كلب الشاعر محمد طاهر الجبلاوى ، ودعواته المرحة إلى زيارته ومنها

فى العيد منتظروكا　　فاحضر لنا يا ويكا

سوهاج اضيق من ان　　تغنيك أو تخنويكا

فالعيش فيها ضنين　　بكل ما يرضيكا

كما لا ننسى الشعر الفكاهى عند الشاعر « عبد السلام شهاب » ومنه قصيدته المرحة فى الشاعر محمد مصطفى الماحى بمناسبة ظهور الطبعة الأخيرة من ديوانه وإشارته إلى شهرة بيت الماحى فى تقديم « البط الزغاطى الدمياطى » اللذيذ ! وهى إشارة ساقت الشاعر محمود غنيم إلى المساجلة الفكهة بقوله للماحى

قد سمعنا عن بطكم ما سمعنا　　فأكلنا بالأذن حتى شبعنا

غير أن الأفواه تنطق همسا　　ما عرفنا المثلك البط معنى

يا أبا مصطفى عليك سلام　　أفيرضيك أن شبعت ، وجعنا ؟

وسع الناس كلهم بطك النسا　　ضح دهنا ، لكنه لم يسعنا . !

وبعد ! فهذه أطراف من الفكاهة فى الشعر العربى المعاصر ، نسوقها مثالا لا حصرا ، ونسأل الله أن يديم على الشعراء ، نعمة الود والصفاء ، ليسعد القارىء والسامع من خفة أرواحهم كما يشاء

مواقف للادباء والشعراء

عند عرفات ومنى

الشعراء والأدباء كبقية الناس ، لم ينقطع وفودهم ـ منذ هدى الله البشرية للإسلام ـ على مكة لأداء فريضة الحج ، وهى الركن الخامس من أركان الإسلام

وكم من شعراء طافوا بالأماكن المقدسة ، فاكتفوا من المواقف بأداء الشعائر ، وقضاء المناسك ، وشغلتهم عظمة الموقف ، وجلال العبادة عن أن يفتحوا أفواههم بالشعر ، ورأوا فى الشعائر نفسها ، والقيام بها على أكمل وجوهها ما يغنى عن استنطاق الشعر ، واستلهام الخيال كما رأوا فى التكبير والتهليل ، والتلبية والتسبيح ما لا يتسع معه المجال ، ولا يليق معه المعرض والمقام لنظم شعر ، او كد قريحة ، او عمل قصيد .

ولكن هنالك شعراء منذ العصور الاولى للإسلام لم تشغلهم فريضة الحج ومناسكه عن أن يتغنوا بالشعر فيها ، تعبيرا عن عاطفة لهم خاصة ، وتسجيلا لبعض أحاسيسهم وهم فى هذه البقاع المطهرة ، وقد انقطع الأمل من الدنيا ، وخمدت شهوات النفوس ، وسكنت المطامع ، ولم يبق من صوت إلا مناجاة الناس لربهم ، يتضرعون إليه بالدعاء ، ويتقربون إليه بالتهليل

والحق أن موقف الناس بين يدى الله فى أيام الحج يدنى النفوس من الروحيات والصفاء ، ويبعدها عن كل غرض مادى من أغراض الدنيا ، وكل عرض زائل من أعراضها ، ويصرف أذهان الحجيج عن كل ما تتعلق به النفوس من أدواء الحياة :

فترى الحاج ــ وهو على مواقف منى وعرفات ــ وقد نفض عن نفسه

كل هوى من أهواء الدنيا ؛ وشغلته حلاوة الموقف فى تلك البقاع المشرفة عن أن يعلق قلبه بسبب مما يتعلق به الناس فى الحياة . وكأنه فنى أو أفنى نفسه ومطامعه فى رحاب الله حتّى أكثر الناس إمعانا فى المعصية ، وإسرافا على أنفسهم فى الذنوب ، تراهم إذا ما أطلوا على تلك البقاع الطاهرة المطهرة ، اعترتهم هزة عنيفة من جلال ما هم مقدمون عليه من مناجاة الله ، والتلبية له ، واعتقدوا صغار الدنيا وهوانها ، وتفاهة شأنها ، وتضاءلوا أمام عظمة الخالق ، وقد جمعهم فى هذه المواقف على الإيمان به والعبودية له

ومازال تاريخ الأدب العربى يذكر الشاعر أبا نواس ؛ وقد تاب إلى الله يوما ، فاعتزم الحج أداء للفريضة ، واستجابة للأمر ، واستغفارا من الذنب ، وتجريدا من المعاصى ، فأذا به تذوب عيناه من الدمع ، ويذوب قلبه من الرقة ، فينظم فى هذا الموقف الرائع الجليل أبياتا فى النجوى والدعاء تعد من أرق ما احتواه ديوان الشعر العربى فى المناجاة والتلبية . والحق أن أبا نواس قد وفق فى أبياته تلك إلى أبعد حدود التوفيق ، فقد جمع فيها بين خشوع التائب ، ورقة الشاعر ، واستطاع فى فنية شعرية خاصة أن يوفق بين المعنى الخاشع ، واللفظ الذائب. وهل هناك أرق وأخشع من شاعر يقول وهو فى موقف التلبية والدعاء بعرفات

إلهنا ! ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك ، قد لبيت لك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
كل نبي وملك وكل من أهل لك

وكل عبـــد سألك سبح ، أو لبى ، فلك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك
على مجـارى المنسلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
اعمـل وبـادر أجلك واختم بخير عملك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

وهذا الموقف : موقف الاستسلام لله ، والتجرد من كل رغبة جامحة فى الدنيا ، وعقد العزم على ترك الذنوب ، يناقضه موقف آخر من شاعر عربى سابق فى العهد على أبى نواس ، هو الشاعر المحب المدله المخبل فى الحب : قيس بن الملوح ، المعروف بمجنون ليلى .. ففوق ثرى هذه البقاع المقدسة ، وفى موسم الحج ، كان مسيس الهوى قد بلغ من المجنون حدا حير أهله ، وأيأسهم من شفائه مما يجد من حب « ليلى العامرية » فأخذه أبوه إلى موسم الحج ، لعل هذه المواقف والشعائر تجدى فى إخراجه مما هو فيه من خبل الحب العنيف ، وترد إليه عقله الذاهل ، وصوابه المفقود . وفى لهف الأب على شفاء ابنه الشاعر مما يكابده ويعانيه ، أخذ أبوه بيده إلى محفل من الناس ، وسألهم أن يدعوا الله تعالى لولده الفرج ، فلما أخذ الناس فى الدعاء ، أخذ صاحبنا مجنون ليلى يقول

ذكرتك والحجيج لهم ضجيج بمكة ، والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن فى بلد حرام بـه لله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما عملت ؛ فقد تظاهرت الذنوب
فأمـا عن هوى ليلى وتركى زيــارتها فأنى لا أتوب !
وكيف — وعندهـا قلبي رهين أتوب إليك منها أو أنيب ؟

فهنا فى هذا الموقف ، وللحجيج عكة ضجيج ، وللقلوب وجيب ، يصر شاعرنا على أن يظل على موقفه من هوى ليلى ، وعلى أن لا ينفض يديه من حبها فهو مصر على هواها ولو فعل به التبريح ما فعل ، وهو تائب من كل ذنب — مع اعترافه بتكاثر الذنوب وتظاهرها — إلا هوى ليلى ، فأنه لا يتوب عنه ، ولا ينسلخ منه ، وقد بسط العذر لإصراره على موقفه هذا بأن قلبه رهين عندها ، فكيف يستطيع التوبة من حبها ، أو الإنابة عن هواها ؟

وقد يكون قيس بن الملوح فى حالة نفسية وعصبية مرهقة ، إلى حد جعلته يتخذ هذا القرار المصمم فى موقف الحج ، وهى بالطبع شطحة من الشاعر الهائم المدله ، يشفع له فيها ما صارت إليه حالته العقلية ، مما تفيض به كتب الأدب والأخبار

ولا شك أن مزج الشعر الدينى فى هذه البقاع المقدسة بشعر الغزل — وخاصة المتطرف — هو نوع من قلة المراعاة ، وإغفال المبالاة فأن صون هذه الأماكن عن أهواء النفوس ورغباتها الجوامح ، هو أحجى وأليق بالإنسان الذى خرج من داره ليكون ضيفا على الله فى بيته ورحابه فمن شاء الغزل أو النسيب فليجعلهما بعد انتهاء المناسك ، وقضاء الشعائر ، حتى ولو كان غزلا تقليديا على سبيل المحاكاة لا على سبيل الأصالة والمعاناة ، ومن الشعراء الذين وقفوا فى هذا الموقف الشاعر الأديب الوزير الأندلسى أبو عبد الله بن زمرك ، وزير بنى الأحمر ملوك غرناطة ، وصديق مؤرخنا العربى ابن خلدون فقد كاتب هذا الشاعر الرقيق مؤرخنا وهو ناهض لأداء فريضة الحج بقصيدة يقول فيها

فهل عند « ليلى » نعم الله ليلها ... بأن جفونى ما تمل من السهد ؟
وليلة إذ ولى الحجيج على منى ... وفت لى المنى منها بما شئت من قصد
فقضيت منها — فوق ما أحسب — المنى ... وبرد عفافى صانه الله من برد

وإذا كان بعض الشعراء العرب قد هفا بهم الشوق وهم فى مواقف الحج

إلى بعض مآرب من الدنيا ، فأن شاعرا حجازيا من شعراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين — وهو السيد على بن معصوم ، صاحب كتاب « سلافة العصر » — قد استطاع أن يصور لنا الحاج المتجرد من كل غرض دنيوى ، المتوجه إلى الله فى صدق وإخلاص ، وقد كان الموسم حارا لاهبا ، والجمار كأنها قطع من النار ، فيقول

لا يطعم الماء إلا بل غلته ... ولا يذوق سوى سد الطوى بيتا
يغرى جيوب الفلا فى كل هاجرة ... تماثل الضب فى رمضائها الحوتا
ترى الحصا جمرات من تلهبها ... كأنما أوقدت فى القفر كبريتا
أجاب دعوة داع لا مرد له ... قضى على الناس حج البيت توقيتا
يرجو النجاة بيوم قد أهاب به ... فى موقف يدع المنطبق سكيتا

إلى أن يقول :

حتى أناخ على أم القرى سحرا ... وقد نضا الصبح للظلماء إصليتا
فقام يقرع باب العفو مبتهلا ... لم يخش غير عتاب الله تبكيتا
وطاف بالبيت سبعا ، وانثنى عجلا ... إلى الصفا حاذرا للوقت تفويتا
وراح ملتمسا نيل المنى بمنى ... لم يخش غير عتاب الله تبكيتا
وقام فى « عرفات » عارفا ، ودعا ... ربا عوارفه عمته تربيتا

ولقد أطال على بن معصوم النفس فى هذه القصيدة التى عارض بها قصيدة أبى العلا المعرى التى خاطب بها القاضى أبا القاسم على بن المحسن التنوخى ، والتى يقول فى مطلعها

هات الحديث عن الزوراء او هيتا ... وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وإذا كان الشاعر على بن معصوم قد ذكر بالتفصيل كثيرا من مناسك الحج وشعائره فى قصيدته التائية ، فأن شاعرا دمشقيا سابقا له بقليل ، قد

استطاع أن يلم بالمناسك والمواقف إلمامة قصيرة جميلة فى قصيدة له دينية .
هذا الشاعر هو يوسف بن أبى الفتح . وقد استطاع محمد أمين بن فضل الله المحبى — صاحب خلاصة الأثر — أن يسجل لنا أبياتا من هذه القصيدة يقول فيها الشاعر

سقى الله من وادى منى كل ليلة هى العمر كانت والشباب المودعا
ويا جاد أياما بها قد تصرمت ثلاثا ، ومن لى أن أراهن أربعا ؟
وحيا مقامى بالمقام ، وأربعا لدى عرفات يا سقاهن أربعا !
فلله ما أبهى بمكة مشعرا ولله ما أحلى لزمزم مشرعا !

لقد كانت عرفات ، ومنى وبقية الأماكن المطهرة فى الأرض المقدسة تسبيحة فى أفواه كثير من الشعراء الذين كتب الله لهم أن يزوروها ، فلم يضنوا على هذه البقاع بأبيات من الشعر أودعوها سعادتهم بهذا الظافر ، وضمنوها من مشاعر الإيمان والعبودية ، والطاعة والخضوع ، ما فاضت به نفوسهم ، وعبروا عن تحقيق أشواقهم بما أسعفتهم به قرائحهم ولكن هناك بعض شعراء على مختلف العصور لم يرزقوا النعمة الكبرى بالتوفيق إلى أداء فريضة الحج ، فظلوا يتحرقون شوقا إلى تلك البقاع . وظلوا — كلما ودعوا مسافرا إلى الحج ، أو استقبلوا عائدا من ضيافة الله فى بيته الحرام — يعبرون عن أشواقهم ومواجدهم إلى أداء الفريضة ، وتكحيل العين برؤية تلك البقاع ومن هؤلاء الشعراء الرحالة المؤرخ الأندلسى « ابن جبير » صاحب الرحلة المشهورة ، والمتوفى بالأسكندرية سنة ٦١٤ هـ . فقد أزمع قبل رحلته الجغرافية الحج إلى بيت الله الحرام تكفيرا عن بعض خطاياه ، وكان دائم الحنين إلى هذه المواطن المشرفة .. ولقد سجل له تاريخ الأدب أبياتا قالها بمنىء وفدا

يا وفود الله فزتم بالمنى فهنيئا لكمو أهل منى !
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برح الشوق بنا

نحن بالمغرب نجرى ذكركم　　　وغروب الدمع يجرى بيننا

ولقد بلغ من تهيام ابن جبير بالوقوف بعرفات أنه فى رحلته — وهو يصف مكة — لم يتردد ، وهو يصف « باب المعلى » أن يقول فى شوق واضح : (وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود إلى عرفات ، جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها ...)

ولا نعرف فى تاريخ الشعر العربى شاعرا دعى إلى الحج فى ركاب أمير فلم تتهيأ له عزيمته ، ولم تقو له همته غير الشاعر «أحمد شوقى» . فقد دعاه الخديو عباس ليكون فى ركبه حين خرج من مصر لأداء الفريضة على ظهر سفينة أو مطية ، فخشى الشاعر هذا الركب ، وقدم إلى «عباس» أعذارا قبلها ولم يهيء الله أحمد شوقى إلى أداء الفريضة فى ركب كان من رجاله المؤرخ الرحالة محمد لبيب البتانونى الذى وصف هذه الرحلة فى كتابه القيم (الرحلة الحجازية) ، واكتفى شوقى من ذلك النكول والاعتذار بقصيدة رفعها إلى «عباس» يخاطب فيها ربه قائلا

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم　　　لبيت طهور الساح والعرصات
أرى الناس أصنافا ، ومن كل بقعة　　　إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا ، فلا الأنساب فيها تفاوت　　　لديك ، ولا الأقدار مختلفات
عنت لك فى الترب المقدس جبهة　　　يدين لها العاتى من الجبهات

ولا ينفرد الشعراء وحدهم فى الاحتفال بعرفات والمواقف فهناك خطباء روت بعض كتب الأدب والمحاضرات أخبارهم .. فقد ذكر صاحب « العقد الفريد » رواية عن العتبى ، أنه سمع بعرفات عشية عرفة أعرابيا وهو يقول : « اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك ، وأحد أيام زلفتك ، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك ، لا يشرك بك شيئاً بكل لسان فيها تدعى ، ولكل خير فيها ترجى ، أتتك العصاة من البلد السحيق ، ودعتك العفاة

من شعب المضيق، رجاء ما لا خلف له من وعدك ، ولا انقطاع له من جزيل عطائك ، أبدت لك وجوهها المصونة ، صابرة على لفح السمائم ، وبرد الليالى ، ترجو بذلك رضوانك يا غفار ، يا مستزادا من نعمه ، ومستعاذا من كل نقمه ، ارحم صوت حزين ، دعاك بزفير وشهيق)

وإذا كان هذا الدعاء الصادق الجميل قد صدر من أحد الأعراب ، فأن (طاووس) الواعظ المحدث المتوفى سنة ١٠٦ هـ يرى لنا دعاء آخر سمعه من أعرابى تبعه حتى أتى « الملتزم » ، فتعلق بأستار الكعبة ، ثم أخذ فى مناجاة الله قائلا : (اللهم بك أعوذ ، وإليك ألوذ ، فاجعل لى فى اللهف إلى جوارك ، والرضا بضمانك ، مندوحة عن منح الباخلين ، وغنى عما فى أيدى المستأثرين   اللهم عد بفرجك القريب ، وعادتك الحسنة)   فلما فرغ من الدعاء عند الملتزم توجه إلى عرفات ، فتبعه طاووس ، وهناك سمعه قائما على قدميه يقول : (اللهم إن كنت لم تقبل حجى ونصبى وتعبى ، فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبته .. فلا أعظم مصيبة ممن ورد حوضك ، وانصرف محروما من سعة رحمتك)

وهكذا سجلت هذه المواقف رصيدا طيبا من الشعر والنثر ، مازلنا نجد فيه متاعا للأذن حين تسمعه ، وزادا للقلب حين يعيه .

الشعر واستخدامه فى الحكمة والمثل

لقد خاض ميدان التأليف فى الأمثال العربية كثيرون ، وكان لأوائلهم فضل الجمع والتصنيف لأشتات من الأمثال السائرة التى لو لم يضبطها التقييد والتسجيل لضاع أكثرها ، ولما ظفرنا بهذه الحصيلة الزاخرة من أمثال العرب والمولدين . وحسبنا أن نعرف أن الأديب الناقد أبا هلال العسكرى من رجال القرن الرابع الهجرى قد جمع فى كتابه « جمهرة الأمثال » قرابة ألفى مثل شرحها شرحا مستفيضا وذكر مضاربها بعد أن رتبها على حروف الهجاء بحسب أوائلها ، فالمثل المبدوء بحرف الهمزة يأتى قبل المثل المبدوء بحرف الباء ، وهذا يأتى قبل المثل المبدوء بحرف التاء ، وهكذا إلى آخر حروف الهجاء . كما أن الميدانى أبا الفضل المتوفى سنة ٥١٨ هـ قد جمع فى كتابه المشهور « مجمع الأمثال » أكثر من ستة آلاف مثل ، تصفح من أجلها أكثر من خمسين كتابا مما ألف قبله فى موضوع الأمثال ، فزاد على كتاب أبى هلال العسكرى أربعة آلاف مثل وهو قدر يرينا مقدار ما بذل من الجهد فى جمع الأمثال من بطون الكتب اولا ، ومن أفواه المتحدثين ثانيا فقد أضاف الميدانى إلى كتابه طائفة كبيرة جدا من أمثال المولدين الذين جاءوا بعد عصرى الجاهلية والإسلام ، وهى أمثال طبعتها البيئة الإسلامية الجديدة بطابع جديد

ولقد كان النثر هو اللغة التى نطقت بها هذه الأمثال ودونت بها وتعاقبت على استعمالها العصور وبالطبع كانت هذه الأمثال باللغة العربية الفصيحة اتساقا مع فصاحة العرب وتمشيا معها . ولكن اللحن بدأ بعد ذلك يتفشى فى الأقطار المفتوحة ، وبدأ كل إقليم يتخذ له لهجة محلية اخذت تبعد عن اللغة الفصحى شيئاً فشيئاً ، وترتضخ اللكنة العامة ، حتى وجدنا طائفة كبيرة من الأمثال العامية تدخل مجال الاستعمال حتى فى بلاد العرب

أنفسهم ؛ وصرنا نجد بجانب المثل العربى الفصيح مثلا آخر بالعامية يؤدى معناه ، ويزاحمه فى ميدان الاستعمال . بل وجدنا أكثر من هذا أن كتبا تؤلف فى جمع الأمثال العامية وحدها وتدوينها دون الأمثال العربية ، كما فعل الأستاذ محمد العبودى فى كتابه « الأمثال العامية فى نجد » ، والمغفور له أحمد تيمور باشا فى كتابه « الأمثال العامية »

على أن النثر وحده لم يكن أداة التعبير فى الأمثال والحكم ، فقد وجدنا الشعر أيضاً ينافس النثر فى التعبير عن حكم وأمثال لم يضق النثر بالتعبير عنها ولكن خفة الشعر وسهولة حفظه ، وسيرورته فى القبائل والبلاد أكثر من سيرورة النثر قد جعلت منه أداة جيدة طيعة للتعبير عن مضامين الحكم والأمثال التى تتجدد كل يوم بتجدد التجارب البشرية والخبرات الإنسانية التى يتعرض الناس لها كل حين، والتى لاتتوقف عن الحدوث مادام فى الناس عروق تنبض ، وقلوب تحس ، وعقول تدرك . وإذا تتبعنا الحكم والأمثال فى الجاهلية وجدنا أن الأمثال والحكم الشعرية كانت تنهض برسالتها فى المجتمع العربى القديم بجانب الأمثال والحكم النثرية . ولم يحجم شعراء من أمثال زهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، وعبيد ابن الأبرص ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وعدى بن زيد العبادى عن أن يصوغوا لنا التجارب الإنسانية التى خاضوها بأنفسهم ، أو سمعوا عنها من أهل زمانهم فى قوالب شعرية لطيفة كتب لها أن تسير على أفواه الناس فى كل عصر وفى كل أرض . ولاتزال إلى اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرنا نتمتع بهذه الأمثال الشعرية الحكمية ، ونؤمن بصدق التجربة فيها ، وندرك قيمة ما فيها من صواب الرأى ، ورجاحة العقل ، وأصالة الخبرة .

وكثير منا قرأوا معلقة زهير بن أبى سلمى الميمية وأدركوا صدق ما فيها من التجربة فى مثل قوله

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنيـاب ويوطأ بمنسم

وقوله

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

وهل ننسى حكم لبيد بن ربيعة وأمثاله فى مثل قوله

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

وقوله

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقوله

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهل ننسى دستور الحكمة والنصيحة الذى يضعه الشاعر طرفة أوصالح حين يقول

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

ولم ينقطع شعراء الحكمة والمثل عن أن يرسلوا أقوالهم الحكيمة فى أى عصر لأن التجربة الإنسانية لا تنقطع وإذا كنا نجد فى عصر صدر الإسلام طائفة من الأمثال النثرية والحكم للإمام على بن أبى طالب ، كما وجدنا بعد ذلك طائفة من الحكم عند عبد الله بن المقفع ، فأن الشعراء بعد ذلك قد أسهموا فى باب الحكمة والمثل مما يحسب رصيدا حافلا فى الأدب العربى . وما كان أيسر على الشاعر فى ذلك العصر أن يرصع شعره بكثير من الأمثال التى وعاها من رصيد الأمثال النثرية فى عصره ، أو من الحكم التى هدته إليها فطنته وتجربته

ويصادفنا من هؤلاء الشعراء كثير من أمثال بشار بن برد ، وأبى تمام ، وأبى العتاهية ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، والشريف الرضى ، والطغرائى صاحب لامية العجم المشهورة التى حشدها بكثير من الحكم والأمثال

ولقد بلغ من اهتمام واحد من هؤلاء الشعراء — وهو أبو العتاهية — بتطويع الشعر للأمثال والحكم أنه صنع أرجوزة مزدوجة سماها « ذات الأمثال » ، وهي تسمية تدل على الموضوع أصدق دلالة وقد أعجب الرواة والنقاد والأدباء القدامى بأرجوزة ذات الأمثال هذه ؛ حتى لقد طرب الجاحظ — وهو من هو — لبعض أبيات هذه القصيدة ، وهو قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقد سمعه الجاحظ يوما فقال للمنشد : (قف ! ثم قال انظروا إلى قوله : روائح الجنة في الشباب فأن له معنى كمعنى الطرب ، لا يقدر أحد على معرفته إلا بالقلوب ! وتعجز عن ترجمته الألسن إلا بعد التطويل وأدامة الفكر) .

والحق أن قصيدة واحدة أو أرجوزة واحدة في الأدب العربي كله لم تجمع من الحكم والأمثال مثل ما جمعته « ذات الأمثال » لأبي العتاهية . وقد قصد صاحبها أن يجعل منها معرضا أو مجمعا لأمثال شعرية كثيرة فحالفه التوفيق . وقد شهد لها أبو الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » بأنها من بدائع الشعر العربي ، وذكر ما يقال من أن فيها أربعة آلاف مثل . ومن أمثالها وحكمها السائرة قوله :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
هي المقادير فلمني أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
أن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده
ما تطلع الشمس ولا تغيب إلا لأمر شأنه عجيب
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
لكل ما يؤذى وأن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم

وإذا كانت أرجوزة « ذات الأمثال » للشاعر أبي العتاهية قد حوت قدرا

ضخما من الحكم والأمثال التى رأى الشاعر أن يقدمها إلى قرائه ثمرة من ثمار قراءاته وتجاربه — وهو الرجل الذى تهتك أولا وتنسك أخيراً — فأن هناك قصيدة أخرى اشتهرت بما حوته من الأمثال والحكم ، وإن كانت لا تعد شيئاً فى الطول بالنسبة إلى أرجوزة أبى العتاهية . وهذه القصيدة هى المقصورة المشهورة التى نظمها الشاعر ابن دريد من رجال القرن الرابع ، وتقع فى مائتين وثلاثين بيتا ؛ ولكن ما فيها من أبيات الأمثال والحكم قد جعلها متميزة بنواحى الحكمة والمثل ومنها قوله

من ظلم الناس تحاموا ظلمه   وعز فيهم جانباه واحتمى
وللفتى من ماله ما قدمت   يداه قبل موته لا ما اقتنى
وأنما المرء حديث بعده   فكن حديثا حسنا لمن وعى

وعلى الرغم مما تجمع من الأمثال والحكم فى أرجوزة أبى العتاهة وفى مقصورة ابن دريد ؛ فأن الأمثال الشعرية المبثوثة فى شعر أبى تمام ، والشريف الرضى ، والمعرى ، والطغرائى ، وأبى الفتح البستى وغيرهم كثيرة واضحة ، وهى أمثال لم ينقطع الحفظ لها ، والاستشهاد بها على مر العصور . إلا أن شاعراً واحداً من رجال ذلك العصر العباسى الأول قد تفرد بكثرة أمثاله وحكمه الشعرية ، وقوة بنائها ، وشهرتها وسرعة سيرورتها على كل لسان عربى معاصر له أو بعد عصره بقرون إلى يومنا هذا هذا الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بشعره وأمثاله وحكمه : وتلخص لنا أمثال المتنبى الشعرية فلسفته وخلاصة تجاربه فى الحياة . كما تؤكد لنا مبلغ اطلاعه على فلسفات وحكم أخرى غير عربية .

وتسوقنا مسالة اطلاع المتنبى على حكمة الفلاسفة قبله وصبها فى قوالب شعره الرصين إلى قضية هامة أثارها الأمام ابن المظفر البغدادى من العلماء المعاصرين لأبى الطيب ، وهى قضية استفادة المتنبى فى أمثاله وحكمه الشعرية

من الفيلسوف اليونانى أرسطو . فقد تعقب هذا الأمام أمثال أبى الطيب وحكمه المنظومة شعراً ورد كل قول منها إلى أقوال أرسطو فى الحكم ، ومهما يكن من الباعث الذى حمل الأمام ابن المظفر على تعقب أمثال المتنبى فأنه أتى بقول أرسطو أولا ، وأعقبه بما قاله المتنبى من الشعر موافقا قول ذلك الحكيم الإغريقى . ولا تدل رسالة ابن المظفر الحاتمى على تنقص لقدر المتنبى وإهدار لقيمته قدر ما تدل على مكانة المتنبى وعظم قدره . ويقول الحاتمى فى ذلك (فإن كان ذلك منه — أى أخذه لمعانى أرسطو فى الحكم — عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق فى درس العلوم ، وأن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالأيجاز والبلاغة والألفاظ الغريبة ، وهو فى الحالتين على غاية من الفضل ؛ وسبيل نهاية من النبل) .

ولقد تعقب الحاتمى أبا الطيب المتنبى فى مائة بيت من أبيات حكمه وأمثاله المشهورة ، وردها إلى مآخذها من حكم الفيلسوف أرسطو ؛ وجمعها فى كتاب عنوانه « الرسالة الحاتمية » ظهر فى مجلة الشرق ببيروت سنة ١٩٣١ مع مقدمة وتعليقات بقلم الأستاذ فؤاد أفرام البستانى .

وإذا كانت عدة أبيات الأمثال التى تعقبها الحاتمى فى شعر المتنبى قد بلغت مائة مثل مأخوذ من أقوال أرسطو ، فأن شعر المتنبى كله ينطوى على قرابة ثلاثمائة من الأمثال المنظومة ، وقد جمع الأديب أحمد سعيد البغدادى من أمثال المتنبى الشعرية ستة وتسعين ومائتى مثل أوردها مرتبة بحسب حروف الهجاء فى أوائلها ونشرها سنة ١٩٣٤.وقد ظلت الأمثال والحكم الشعرية على ألسنة الشعراء منذ العصور الإسلامية حتى العصر الحديث ، وكان كل شاعر يحرص على أن يؤثر له من شعره أكبر قدر من الحكم والأمثال . ولا يكاد يخلو ديوان شاعر عربى فى المشرق والمغرب من طائفة من شعر الحكم التى يطمع أن تروى عنه ، وتنسب إليه ، وأن كان كثير من أبيات الأمثال والحكم تضل فى متاهات النسب فلا يُدرَى قائلها وأن كان يحفظ نصها . وكثيراً ما نجد

أبيات شعر الحكم والمثل تنسب إلى غير قائلها ، إلا قلة من الشعراء لا تضيع أنساب شعرهم ، كالذى نجده فى حكم زهير بن أبى سلمى الجاهلى ، والمتنبى فى القرن الرابع الهجرى ، وأحمد شوقى فى العصر الحديث .

وبمناسبة الحديث عن العصر الحديث نلاحظ أن أكثر الشعراء من بعد عصر النهضة التى بدأ بها البارودى حركة الأحياء للشعر العربى لم يتخففوا من شعر الحكم والأمثال ، بل ساروا على النهج الذى سار عليه الشعراء قبلهم . فمحمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد حافظ إبراهيم ، وعلى الجارم ، ومعروف الرصافى ، وجميل صدقى الزهاوى ، وعبد المحسن الكاظمى قد جنحوا إلى شعر الحكمة والمثل . ولعلهم فى ذلك راعوا محاكاة القدامى من الشعراء .

ولعل أندر شعراء العصر الحديث استعمالا لشعر المثل والحكمة هو الشاعر خليل مطران الذى يعز أن تصادف فى ديوانه الضخم المكون من أربعة أجزاء كبار ما لا يتجاوز أصابع اليدين عدا من ذلك اللون من الشعر . ونحن نعزو السبب فى هذا إلى أن خليل مطران كان يهتم بالموضوعية الخالصة فى شعره ، ولا يبالى فى قليل أو كثير بالتعميات والأحكام العامة التى تتطلب إجراء المثل والحكمة . ولعله تأثر فى ذلك بالشعر الأوربى الذى لم يكن ليعنى بالأمثال والحكم .

وإذا كنا نجد شعر الحكمة والمثل يجد له أرضا خصبة فى مجال الرثاء بصفة خاصة ، فإن مراثى خليل مطران تكاد تخلو خلوا تاما من ذلك الشعر . فهو لا ينصب نفسه فى موقف الرثاء واعظا أو حكيما ، ولكنه يصف المرثى وصفا صادقا دقيقا ، ويصف مشاعره ومشاعر الذين خسروه ، ويصور الخسارة بفقده فى المجال الذى تخصص فيه ولقد أصيب خليل مطران بمصيبة كبيرة فى فقد امرأة قريبه يوسف مطران التى توفيت على أثر تناول دواء سام على

سبيل الخطأ ، وتشاء الأقدار الساخرة أن يكون : وجها هو الذى ناولها ذلك اللواء بيديه . وماتت السيدة ومات زوجها بعد شهور من اثر الصدمة التى أصابته . وكان الحادث يهز القلوب . وبالطبع نظم شاعرنا خليل مطران مرثية مؤثرة فى وفاة هذين العزيزين . وعلى الرغم من فداحة الخطب ، وروعة الحادث لم نجد فى هذه المرثية بيتا واحداً يحمل قبسا من أقباس الحكمة ، أو معنى شائعا من معانى الأمثال على حين نجد الشاعر أحمد شوقى ينتهز فرصة موت الزعيم السورى « فوزى الغزى » مسموما بيد زوجته الخائنة فيرثيه بقصيدة يعرج فيها على الحياة المشوبة دائما بالسم ، والناس بين سم الحياة البطىء وسمها الزعاف لا يعلمون أى كأس سقوا بها ، فيقول :

طبعت من السم الحياة ، طعامهـا وشرابها ، وهواؤها المتنشـق

والناس بين بطيئها وزعافهـا لا يعلمون بأى سمها سقـوا !

وفى مناسبة أخرى للرثاء تصاب مصر بأعظم مصاب بفقد زعيمها الشاب المكافح مصطفى كامل ، فتقوم الأمة وتقعد ، وينفعل الشعراء بهذا الخطب النازل ونجد مرثية الشاعر أحمد شوقى تشتمل على بعض الأبيات السائرة الجارية مجرى الأمثال ، كقوله :

دقات قلب المـرء قائلة لـه إن الحياة دقائق وثوانـى

وقوله

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانـى

ولكن مرثية الشاعر خليل مطران التى أنشدها على ضريح مصطفى كامل يوم الأربعين – لا تشتمل على طولها – على بيت واحد فى الحكمة والمثل ! ولكنها تضم لوحة رائعة دقيقة للزعيم ،وتصور جهاده ووطنيته أصدق تصوير.

ولكى نكون صادقين ، لا نعثر فى مرثية خليل مطران لمصطفى كامل إلا على بيت واحد يكاد أن يكون من شعر الحكمة ، وهو قوله :

إن يعتر الشمس الكسوف هنيهة   أيكون منقصة لها أن تكسفا ؟

ولكى نكون صادقين — مرة أخرى — نقع فى مرثية خليل مطران للشاعر محمود سامى البارودى على بيت آخر يعد من الأبيات الرائعة للحكم والأمثال ، وهو قوله :

على الشمس أن تهدى المبصرين   وليس على الشمس أن تبصرا

على أن وقوع هذه الفلتات النوادر فى شعر مطران لا يغير شيئاً من حكمنا عليه بأنه لم يجعل الحكم والأمثال دأبه فيما ينظم ، وبأنه لم يحاول أن يجرى مع الشاعر أحمد شوقى فى هذا المضمار ، مما يدل على اختلاف النظرة عند الشاعرين إلى الشعر .

ويلفت النظر أن أحمد شوقى قد أكثر فى قصائده من شعر الحكم والأمثال ، ولعله هنا كان يقفو خطا « المتنبى » ، ويحذو حذوه وإن كان بالطبع قد قصر كثيراً عن بلوغ شأوه . فأن أمثال أبى الطيب المتنبى قد بلغت من الكثرة إلى حد أنها يضمها كتاب برمته ، وقد حاول بعض الباحثين أن يردوها إلى أصولها العربية وغير العربية التى أخذت عنها .

ويكفينا هنا أن نشير إلى بضعة أبيات من شعر شوقى فى الحكم والأمثال ، وهى مسوقة هنا على سبيل المثال لا غير ، كقوله :

وإذا النساء نشأن فى أمية   رضع الرجال جهالة وخمولا

وقوله

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو   لم يبن ملك على جهل وإقلال

وقوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله من قصيدته السينية التي يعارض بها سينية البحتري

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

والحق أن الشعراء يختلفون في قدرتهم على صوغ أشعار الحكم والأمثال صياغة يكتب معها الدوران والسيرورة لشعرهم ولا شك أن لسهولة الألفاظ، وإصابة المعنى، وموافقته للنفس، وإحكام البناء التعبيري أثراً كبيراً في قبول أشعار الحكم والأمثال وسيرورتها ونلاحظ أن للشاعر أحمد شوقي نصيبا كبيراً من ذلك، فقد رزق من حلاوة التعبير ما كتب معه القبول الحسن كله لحكمه وأمثاله. على حين تجد شاعراً مثل محمود سامي البارودي يقل عن الشاعر شوقي في هذا المجال. وأن كنا نقع عند سامي البارودي على أبيات جيدة تسير مسير الحكم والأمثال كقوله

ومن تكن العليا همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقوله

فلا زلت محسودا على المجد والعلا وليس بمحسود فتى وله نـد

وقوله

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

وقوله

قد يضر الشيء ترجو نفعه رب ظمآن بصفو الماء غص

وقوله

إن الحياة لثوب سوف نخلعه وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

على أن له فوق ذلك أبياتا كثيرة، ولكنها — على اشتمالها بثوب المثل والحكمة — لم ترزق الذيوع والانتشار كقوله

لا يقعد البطل الصنديد عن كرم من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا

وقوله

فما كل ما ترجو من الأمر ناجع ولا كل ما تخشى من الخطب فادح

وقوله :

وأى حسام لم تصبه كلالة وأى جواد لم تخنه الحوافر ؟

وقوله

لا يبلغ المرء ما يهواه من أرب إلا بترك الذى يخشاه من ضرر

وقوله

والمرء مهما كان فى أفعاله لا ينتهى إلا إلى أعراقه

وقد أدار الشاعر على الجارم كثرة من شعره على الحكم والأمثال ، ونراه قد وزعها على مختلف أغراض شعره ، فنجدها مبثوثة فى شعر الرثاء ، كما نجدها كذلك فى شعر المديح ، كقوله

إن من رام للكواكب عدا يتساوى ابتداؤه وانتهاؤه

وكقوله

وإن الفتى ماض ، وماض طبيبه وعائده من بعده والمشيع

وقوله

أى نفع للمسك فى حقة المسك وللمال فى يدى خزانه !

وقوله

والشكر فى السراء يعظم كلما ذكر الفتى ما مر من ضرائه

وقوله

كل مهد يصير من بعد حين — قصر العمر أو تطاول — لحدا

وقوله

إذا ذهب المسك الزكى فأنه يزول ويبقى نشره المتضوع

وقوله

إنما الكف بالبنان ولا تجدى فتيلا كف بغير بنان

ولعله وفق فى تصوير الشعر بقوله السائر

إنما الشعر على كثرته لا ترى فيه سوى إحدى اثنتين
نفحة قدسية ، أو هذر ليس فى الشعر كلام بين بين !

ويلاحظ فى الأمثال الشعرية أنها قد تكون فى حدها الأدنى مصراعا أو شطراً من بيت ، كقول الشاعر أبى الطيب المتنبى : ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً . وقوله أنا الغريق فما خوفى من البلل . وقوله : قد أفسد القول حتى أحمد الصمم .

وقد تكون بيتا كاملا بذاته ، كقول أبى الفتح البستى

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما استعبد الإنسان إحسان

وكقول الشاعر ابن الوردى

لا تقل أصلى وفصلى أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل

وكقول أبى الطيب المتنبى

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقد تكون فى بيتين اثنين متعاقبين ، ولا زيادة بعد ذلك ، كقول أبى الطيب :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح فى ليل من الشك مظلم

لقد بلغ من اهتمام أدبائنا بالحكم والأمثال الشعرية أن الشاعر عبد الله فكرى قد جمع طائفة كبيرة من تلك الأمثال ، وأوردها مرتبة وفق حروف الهجاء بحسب أوائل الأبيات ، لا بحسب القوافى ، فتأتى أولا أبيات الأمثال المبدوءة بحرف الهمزة ، وتليها الأبيات المبدوءة بالباء ، فالأبيات المبدوءة بالتاء ، وهكذا إلى آخر حروف الهجاء . وأصدر عبد الله فكرى هذه الذخيرة فى كتاب عنوانه : (نظم اللآل ، فى الحكم والأمثال) ، وبالطبع لم يذهب عبد الله فكرى كل بيت إلى قائله ، أو يرد كل شعر إلى صاحبه ، ولو أنه فعل لكان عملا جليلا مفيداً ، وكانت المنفعة به أتم ، والمعرفة به أكمل ، ولكنه عمل من الصعوبة البالغة بمكان .

وسبحان من له الكمال .

فتنة الشعراء بشعرهم
ونصيب ((شوقى)) من ذلك

لقد أشار شاعر قديم إلى فتنة الشاعر بشعره كفتنة الأب بابنه .

وقد تكون هذه الفتنة غير معبر عنها ، ولا مصرح بها فى شعر الشاعر المفتون ، ولكنها تظهر فى وحى عينيه ، وفى فلتات لسانه ، وفى إيحاءات وجهه. كما كان يفعل البحترى مثلا حين كان يقول لمستمعيه بعد إنشاد شعره لم لا تقولون لى : أحسنت ؟ لقد أحسنت والله ؟

وقد يصرح الشاعر المفتون عن فتنته بشعره فى شطر أو بيت أو أكثر من قصيدته وافتتان الشاعر بشعره قد يكون نوعا من « النرجسية » التى لا تتجاوز الإعجاب بالشعر إلى غيره من المحاسن التى قد يتوهمها المرء فى نفسه. وقد تكون هذه « النرجسية » تسللت إلى تعبيراتنا الحديثة بما حدث من ممارستنا لقراءة الأساطير الإغريقية ، وقراءة علم النفس الحديث وإلا فأن الناس لم يكونوا يعرفون مصطلح « النرجسية » قبل أن يتحدث عنه « فرويد » فى كتابه « ما فوق مبدأ اللذة » ، وقبل أن يفيض تلاميذه الحديث عنه من بعده .

والنرجسية نسبة إلى « ناركيسوس » أو « نارسيسوس » ، وهو — عند اليونان — ابن إله النهر « كيفيسوس » ، وكان فتى جميل الشكل، بهى الطلعة ؛ تحبه وتشتهيه الكثيرات من الحسان إلا أنه لم يكن يهتم بهن ، ولم يلق بالا إليهن . فغضب عليه الحوريات اللاتى كان يسخر منهن : وطلبن من الآلهة معاقبته على كبريائه واعتداده بجماله ، وبينما هو ينحنى ذات يوم على ماء نهر ليشرب ، وقع بصره على خياله فى الماء ، فهام بجماله ، وشغف بنفسه حبا . . ولكنه لما لم يتمكن من تحقيق هيامه بذاته ظل يضوى حتى هزل

ونبت فى المكان الذى قضى فيه نحبه زهرة « النرجس » التى لا تزال تحمل اسمه :

وقد رد بعض شعراء العرب القدامى هذه الظاهرة إلى نوع من المعرفة بقدر المرء لنفسه ، لا إلى غروره وزهوه . وفى هذا يقول الشاعر : (غالى بنفسى عرفانى بقيمتها) .

ومهما يكن من سبب لهذه الظاهرة ، فأنها بلا شك تعبير عن الأعجاب بالنفس فى ناحية من نواحيها وقد يكون الأعجاب والافتتان « بالجمال » ، كما كان الشأن عند « نارسيسوس » الإغريقى . والحمد لله أن شعراءنا فى القديم والحديث لم يقعوا فى حبائل هذه الفتنة الناعمة الآسرة وإلا لكانت قد نبتت عندنا عشرات وعشرات من أزهار فاتنة تمثل زهرة النرجس التى نبتت تذكاراً حيلا لمأساة نار كيسوس . . ؟

إلا أننا نجد آثار نرجسية مفتونة بالجمال الذاتى عند شاعرنا عمر بن أبى ربيعة ، الذى حولته فتنته بنفسه وجماله إلى أن ينقلب فى شعره الغزلى معشوقا للنساء ، لا عاشقا لهن . وتستطيع أن نجد أثر ذلك الافتتان فى أكثر شعر عمر . فهو طوراً يقول :

قلت من هذا ؟ فقالت هكـــذا	أنا من جشمته طول السهـــــر
عمـرك الله ؟ أما ترحمـــــنى	أم لنا قلبك أقسى من حجر ؟

وتارة أخرى يقول

ثم قالــت للتى معهـــــــا	لا تديمى نحـوه النظـــرا !!

وإذا كان عمر بن أبى ربيعة قد غالى فى الافتتان بجماله وحسنه ، فأن الشاعر الغزل الآخر « جيلا » صاحب « بثينة » قد بالغ فى الزهو والافتتان « بشهرته وعدم خفائه» ؛ اسمعه وهو يقول كما يروى « صاحب الحماسة » :

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى وهموا بقتلى يا بثين لقونى !
إذا ما رأونى طالعا من ثنية يقولون : من هذا ؟ وقد عرفونى

ويلحقه فى هذا الميدان الشاعر « الأحوص » الذى زعم أنه كالشمس التى لا تخفى ، حين قال

إنى إذا خفى الرجال وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

ومجالات افتتان الشعراء بأنفسهم ، وامتداد أسباب فخرهم تتجاوز الشعر والشهرة إلى غيرها من الصفات المادية والمعنوية التى قد يتميز بها الإنسان وللبيئة فى هذا أثر كبير ، حيث توجه الشعراء إلى ما ينبغى أن يتفاخروا به استنادا إلى مواضعاتهم الاجتماعية .

فالشاعر العربى منذ القدم يفتخر بقبيلته وقومه ، لأن نظام القبيلة كان البناء الاجتماعى الذى تقوم عليه حياة القوم . ولأمر ما نجد مثل قول القائل :

وأنى من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه

وقول « بشامة النهشلى » :

وليس يهلك منا سيد أبدا إلا افتلينا غلاما سيداً فينا

وقول « وداك بن ثميل المازنى » :

مقاديم وصالون فى الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانى

على أن افتتان الشاعر العربى بشجاعته هو أو شجاعة قومه وحماستهم تكاد تزحم ديوان الشعر كله . فأينما قلبت قصيدة وجدت فيها مثل قول « قطرى ابن الفجاءة » :

فلقد أرانى للرماح دريئة من عن يمينى مرة وأمامى
حتى خضبت بما تحدر من دمى أكناف سرجى أو عنان لجامى

وقد يصادفنا من الشعراء القدامى من يفتخر بكرمه وخيره ، « كالمنخل اليشكرى » الذى يقول :

لا تسألى عن جل مالــــى   وانظــرى كرمــى وخــبرى

أو من يفتخر بجوده وكرم نسبه ، كالذى يقول ، ولعله « عبد العزيز ابن زرارة »

إلا أكن ممن علمت فأنــنى   إلى نسب ممن جهلت كريم

وإلا أكن كل الجواد ، فأننى   على الزاد فى الظلماء غير شتيم

أو من يفتخر بحماية جاره ، وحسن جواره ، « كأبى ثمامة » القائل :

فجارك عند بيتك لحم ظــبى   وجارى عند بيتى لا يــرام

فالجار عند خصمه ومهجوه مهوب مستباح كلحم الظبى ، والجار عنده عزيز المنال ، بعيد المرام   وقد وجد عند العرب من يفتخر حتى « بالبداوة » ، فى معرض المقابلة بينها وبين الحضارة ، فيقول :

فمن يكن الحضارة أعجبتــه   فأى رجال بادية ترانــا ؟

والشاعر (القطامى) فى هذا البيت يمثل لنا العربى البدوى الأصيل ، الذى لم تفتنه محاسن الحضارة المجلوبة المصطنعة غير الطبيعية كما قال المتنبى بعد ذلك بقرون :

حسن الحضارة مجلوب بتطريــة   وفى البداوة حسن غير مجلـوب

وما دمنا فى معرض الحديث هنا عن افتتان الشعراء بشعرهم وقوافيهم وقصائدهم ، فأنه لا يفوتنا أن نشير إلى ما قاله الشاعر « بشامة بن الغدير » بأنه يسم قصائده حين يوجهها إلى أعدائه ؛ ولا يدعها غفلا من هذه المياسم ، أو السمات ، ويقول فى ذلك :

إنى امرؤ أسم القصائد للعــدا   إن القصائد شرها إغفالهـــا

وهذا كلام واضح صريح غير مقلوب ، بل سائر على وجهه من أنه يعلم قصائده بما يصير كالعلامة لها وكالسمة عليها ، حتى لا تنسب إلى غيره . ولا عبرة بمن قال أن هذا البيت مقلوب ، وأن المراد أن الشاعر يسم العدا بقصائده . . . ولا وجه لهذا التكلف ما دام ظاهر الكلام مستويا . . . ويصادفنا

شاعر آخر هو « عبيد بن ماوية » ، يفتتن بشعره وقافيته فيقول إنها مثل حد السنان ، وأنها باقية بعد ذهاب قائلها ، ومضى منشئها ، وأنه يختار جيدها ، وينتقى أحسنها فى المجلس الواحد ، كما يختار تسعين من أمثالها ! فهو قادر قدرة بلا حدود . يقول « عبيد بن ماوية » :

وقافيــة مثــل حــد السنــــا ... ن تبقى ويذهب من قالهــا
تجــودت فى مجلس واحـــــد ... قراها ، وتسعين أمثالهـــا

وهل يفوتنا هنا — ونحن نعبر موكب الشعراء العرب المفتونين بشعرهم — أن نشير إلى أبيات ابن الرومى التى نظمها فى هجاء « على بن سليمان الأخفش » ، والتى يقول فيها :

شعرى شعر إذا تأمله الإ ... نسان ذو الفهم والحجا عبده
لكنه ليس منطقا بعـث الله ... به آيــة لمــن جحـــده
ولا أنا المفهم البهائم والطيــ ... ـــر سليمان قاهر المـــرده ..

وما ظنك بشاعر يبلغ به تقديره لشعره وظنه به أن يقول عنه أن الإنسان ذا الفهم والعقل إذا تأمله عبده ؟ أليس هذا مرحلة من مراحل الافتتان ، لا تنال إلا على جسور من المغالاة والمبالغة فى العرفان ؟

على أن هذه الدرجة العالية من الافتتان بالشعر عند أصحابه الشعراء قد تدانيها درجة أخرى نلمسها عند شاعر العربية الأكبر أبى الطيب المتنبي حين قال فى ممدوحه سيف الدولة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مـــــردداً
ودع كل صوت غير صوتى : فأننى ... أنا الطائر المحكى ، والآخر الصدى !

وما ظنك أيها القارىء الكريم — مرة أخرى — بشاعر ليس الناس من رواة شعره ، ولكن الدهر هو واحد من رواته ؟ وما ظنك بشاعر يظن فى نفسه أنه الطائر المقلَّد ، وأن غيره من الشعراء ليسوا إلا صدى له ؟

وهكذا نجد عند بعض شعراء العرب القدامى نزعات إلى التعبير عن زهوهم وافتتانهم بشعرهم ، وهى نزعات قد لا تتكرر فى ديوان الشاعر أكثر من مرة. وقد يرسلها يتيمة فى أحد معارض القول ثم لا يعود لها بعد ذلك . أما أن يلح الشاعر فى مدار شعره على الافتخار بشعره ، وقريضه ، وشاعريته ، وكثرة رواة شعره ، وقلمه، وأن بعض شعره لم يأت بمثله شاعر من الذاهبين، وأن قلمه يداوى الجراح — فذلك شيء لم نجده عند القدامى ، ولم نجده عند المحدثين إلا عند شاعر واحد هو المرحوم « أحمد شوقى » .

فلم يكتف شاعرنا بموقف أو موقفين فى ديوانه الضخم يعرج فيهما على نفسه ، ويكيل لها الفخر بشعره وقلمه ، ولكنه عكف على نفسه وأطال الوقوف على خضم شعره ، كما أطال « نارسيسوس » الوقوف مزهوا على ماء الغدير الصافى مفتونا بجمال شكله ! وفرق ما بين الأثنين أن المفتون الأسطورى اليونانى قد نظر إلى غير منظر واحد من نفسه نظر إلى جمال رأسه ، وجمال شعره — بالفتح — وجمال عينيه، وجمال ثغره، وجمال خديه وجمال قوامه وجمال كل ملمح من ملامحه ، وكل عضو من أعضائه . . أما شاعرنا شوقى فلم يفتنه من نفسه إلا « شعره » لا غير ، فهو مفتون ومأخوذ به إلى أبعد الحدود . وهو لا ينى يعلن عن ذلك فى كل مناسبة تعرض له ، حتى ولو كانت « رثاء » .

والحق أن افتخار الشاعر أحمد شوقى بشعره فى قصائد الرثاء التى نظمها فى توديع الراحلين من خلصائه ، أو من ذوى القدر والمكانة فى العالم كله ، هو ظاهرة تلفت الأنظار إليها ، وتستحق الوقوف عندها ، فقد يفتن الشاعر

ويفخر بشعره فى معرض المنافرة أو المفاخرة أو المناظرة التى لا غنى فيها عن التعبير عن « الذات » . وقد يفتن بشعره وهو فى مقام امتداح أمير أو كبير ، إكباراً لنفسه عن أن يظن فيها العجز ، أو يتوهم فيها الضعف . . وقد يفتن بشعره فى مواقف أخرى مما سنعرض له بعد قليل فى شعر شوقى ولكن أى معنى للفخر بالشعر ، والافتتان بالقلم والقريض فى مجال لا مجال فيه للزهو والفتنة حيث تركزت كل حكمة الحياة ، وكل صحيحها وباطلها فى كلمة واحدة هى « الموت » ؟

يقول شوقى فى رثائه لجدته « تمزار » معتوقة إبراهيم باشا والى مصر ، مخاطبا إياها :

ولو لم تظهرى فى العرب إلا　　« بأحمد » كنت خير الوالدات

وأحمد هنا هو الشاعر شوقى نفسه . وقد ظهر الأصل هنا بالفرع ، كما ظهرت أم أبى الطيب المتنبى بولدها حين يقول لها

ولو لم تكونى بنت أكرم والد　　لكان أباك الضخم كونك لى أما

ويستمر شوقى فى الفخر قائلا

تجاوزت الولائد فاخـــرات　　إلى فخر القبائل واللغـــات
وأحكم من تحكم فى يـــراع　　وأبلغ مـــن تبلغ مـــن دواة
وأبرأ من تبرأ من عـــداء　　وأنزه من تنزه من شمات
وأصون صائن لأخيه عرضا　　وأحفظ حافظ عهد اللـــدات
وأقتل قاتل للدهر خـــبرا　　وأصبر صابـــر للغاشيـــات

وهنا تجاوز شوقى الافتخار بشعره إلى الافتخار بمجموعة من الفضائل الخلقية ، بعد افتخاره بيراعه ودواته التى يستمد منها المداد الذى يسطر به قصائده . . .

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يفتتن فيها شوقى بأخلاقه ، ففى مرثيته

للوزير الشهير رياض باشا يفتخر بأنه — أي الشاعر — كالمسيح لا يحمل ضغينة ولا شماتا ، وأنه يغضى عن إساءة المسيء ولا يقابله بمثل إساءته ، فيقول :

خلقت كأنني «عيسى» ، حرام ... على قلبي الضغينة والشمات
يساء إلىّ أحيانا ، فأمضي ... كريما لا أقوت ، كما أقات
وعقدي للرجال وإن تجافوا ... منازل في الحفاوة لا تفات

ولعل شوقى فى هذا المقام كان حريصا على أن يعتذر عن الحملات العنيفة التى وجهها إلى « رياض باشا » بمناسبة الوهن والتخاذل فى موافقه السياسية والوطنيةا لمعروفة . .

وافتخار شوقى فى مرثيته لرياض بأخلاقه وفضائل نفسه ، كمثل افتخاره بهما فى ملحته للخديو عباس بالحج ، حيث يناجى ربه قائلا

وتشهد ما آذيت نفسا ، ولم أضر ... ولم أبغ فى جهرى ولا خطراتى
ولا غلبتنى شقوة ، أو سعادة ... على حكمة آتيتنى ، وأناة
ولا جال إلا الخير بين سرائرى ... لدى سدة خيرية الرغبات
ولا بت إلا « كابن مريم » مشفقا ... على حسّدى ، مستغفراً لعداتى

ولا حظ هنا — مرة أخرى — تشبيه نفسه بالمسيح عيسى بن مريم فى سماحة موقفه من الأعداء .

وفى رثاء شوقى « لعبد الخالق ثروت » أحد زعماء مصر السياسيين ، يفخر شاعرنا بأن المرثى كان محتشد لقوافى شعر شوقى فى مجلس الراح والريحان ، فيقول

ونفحة من قوافى الشعر كنت لها ... فى مجلس الراح والريحان تحتشد
أرسلتها وبعثت الدمع يكنفها ... كما تحدر حول السوسن البرد

وفى مرثيته « لعمر لطفى » رجل التعاون المشهور ، يفتخر بأنه يزن الرجال ، وأن له يراعا كثيراً ما خلع الثناء على كرام الرجال

أزن الرجال ، ولى يراع طالمـــا   خلع الثناء على الكرام محـــبرا

وفى مرثيته للشاعر « إسماعيل صبرى » يفتخر بأنه لا يملك فى يديه إلا قريضا خالدا

هل فى يدى سوى قريض خالــد   أزجيه بين يديك للإتحـاف ؟

وفى مرثيته للطيارين العثمانيين « فتحى ونورى » اللذين قدما إلى مصر سنة ١٩١٣ على متن طائرتهما — وكان الطيران يومئذ فى أول عهده — فسقطت الطائرة بهما فماتا ، يخاطب شعره الذى يجوب البحار الثلاثة فى طريقه إلى الآستانة . وفى هذا ما فيه من الدلالة على سيرورة شعره . .

وفى مرثيته للمؤرخ « جرجى زيدان » يفتخر بأن له دولة الشعر دون العصر :

لى دولة الشعر دون العصر وائلة   مفاخرى حِكَمى فيها وأمثالى

وفى مرثيته للقاضى « سعيد زغلول » ابن أخت سعد زغلول باشا ، يفتخر بأنه يصنع من الثناء على الرجال ما يعجز النحاتون عن صنع تمثاله ، فيقول

رب حر صنعت فيه ثنـاء   عجز الناحتون عن تمثالـه

وحسبنا أن نبلغ هنا ما نريد من الاستشهاد بشعر شوقى الذى يفتخر به فى مراثيه حيث لا مجال للفخر والافتنان . أما افتنانه « بشعره » فى بقية قصائده، وسائر مواقفه فكثير كثرة تلفت النظر كما سلف القول

فتارة يفتخر بأنه هو وحده القريض والشعراء فى هذا العصر

إن عصراً مولاى فيه المرجـى   أنا فيه القريض والشعـــراء

وأخرى يفتخر بأنه طير النيل لا طير غيره ، وأنه إذا قال شعراً فالقوافى حضَّر —

وإنى لطير النيل لا طير غيره   وما النيل إلا من رياضك يحسب

إذا قلت شعراً فالقوافى حواضـــر وبغداد بغداد ، ويثرب يثـــرب

وثالثة يفتخر بأن مدائحه مأثورة لا تضيع ولا تزول ، كما فى قصيدته عن الخلافة

مالى أطوقه (١) الملام وطالمـــا قلدته المأثور من أمداحـــى ؟

ورابعة يفتخر بأنه المصباح لا يضيع حتى يكون فراشة المصباح ، وأن غزوات القائدين التركيين « أدهم » و « أنور » كللت بأشعاره

إنى أنا المصباح لست بضائـــع حتى أكون فراشة المصبـــاح

غزوات « أدهم » كللت بذوابلـــى وفتوح « أنور » فصلت بصفاحى

وخامسة يفتخر بأن بين بردتيه شاعراً أشعر من جرير

أنا إن عجـــزت فأن فـــى بردىَّ أشعر من جريـــر !

ولا يكتفى بأن يكون « جرير » عصره ، بل أن الله قد أعاد فيه « البحترى »

إن الذى قد ردها وأعادهـــا فى بردتيك أعاد فىَّ البحترى !

ويغلو شوقى فى الفخر بشعره درجات فيقول مخاطباً أم الخديو عباس

لا ترومى غير شعرى موكبا إن شعرى درجات الخالدين

وفى قصيدته « تمثال نهضة مصر » ، وفى جلال الاحتفال بإزاحة الستار عن التمثال ، لا ينسى شاعرنا شوقى نفسه ، وكأنه ينحت لنفسه بنفسه تمثالا من المجد بجانب تمثال نهضة مصر ، فيقول

وإنى لغرِّيـــد هـــذى البطـــاح تغـــذى جناهـــا وسلسالهـــا

ترى مصر كعبـــة أشعـــاره وكل معلقـــة قالهـــــــا

وتلمح بين بيوت القصيـــد حجال العروس ، وأحجالها

---

(١) الضمير يعود على كمال اتاتورك الذى الغى الخلافة ، وكثيرا ما اطال شوقى المدح فيه قبل فعلته هذه .

ولا ينسى شوقى نفسه ظاعنا أومقيما ، مادحا أو راثيا ففى قصيدته وهو يصف مشاهد الطبيعة فى طريقه من أوربا إلى الآستانة ، يتجه إلى السلطان عبد الحميد مادحا له ، مخاطبا إياه بقوله :

لى فى ثنائك ، وهو باق خالد ، شعر على الشعرى المنيفة زارى

فشعره هنا — كما يقول — أناف على كوكب الشعرى وأزرى به . !

وحين ينتقل شوقى من مدح السلطان أو الخليفة العثمانى عبد الحميد إلى مدح الخديو عباس ، فإنه لا يفوته فى قصيدته « رمضان ولى هاتها ياساقى » أن يعرج على نفسه ، ويفخر أنه شاعر وحيد « متفرد سباق » فيقول

سبق القريض إليه كل مهىء من شاعر متفرد سباق

وشوقى فى مقامات السلاطين والملوك لاينسى نفسه بالفخر ، والأشارة إلى نفسه وشعره ومكانته ، وكأن هناك دافعا خفيا يدفعه إلى هذا الموقف ولعله يعقد موازنة بين مجد الملك وعز السلطان من ناحية ، وبين جلال الشعر وعزة الشعراء من ناحية أخرى .

ولا يفوته هذا الشعور حتى وهو فى حضرة الملوك الراحلين ففى قصيدته « توت عنخ آمون وحضارة عصره » يخاطب الفرعون الراحل العظيم بقوله

ملك الملوك تحية وولاء محتفظ أمين

هذا المقام عرفته وسبقت فيه القائلين

ووقفت فى آثاركم أزن الجلال وأستبين

وبنيت فى العشرين من أحجارها شعرى الرصين

ولعله يذكّر توت عنخ آمون ، ويعرّفه — إذا لم يكن يعرف — أن شعره رصين . !

ومخاطبة الشاعر أحمد شوقى للملوك والفراعين واعتزازه أمامهم بشعره وبنفسه وبقلمه وشاعريته تذكرنا بمخاطبته للآثار والمدن وتذكيره إياها

بشعره الذي تحله منها في أعلى مقام ففي قصيدته الكافية « زحلة » يخاطبها بقوله

أحللت شعري منك في عليا الذرا وجمعته برواية الأمـــــلاك
إن تكرمي يا زحل شعري إنني أنكرت كل قصيـــدة إلاك

وفي أندلسيته الرائعة التي نظمها في منفاه بأسبانيا في الحرب العالمية الأولى . يشير إلى تلك الأرض الطيبة أرض مصر التي هي أرض مولده وأرض أبوته . ويشير إلى أيام صباه فيها . وإلى قوافيه المسسنة فيها ، ومواقفه المحجلة عليها ، فيقول

أرض الأبوة . والميلاد . طيبها مر الصبا في ذيول من تصابينا
كانت محجلة فيها مواقفنــا غرا مسلسلة المجرى قوافينــا

ولعل وقفة شوقي في يوم مهرجانه أمام عشرات وعشرات (١) من وفود البلاد العربية التي جاءت تكرمه وتبايعه مع حافظ إبراهيم بإمارة الشعر كانت تقتضيه أن يلم بنفسه لحظات . ليفتخر بأنه كان لسان مصر الناطق . وأنه كان رسول تهانيها في الأفراح وقائل تعازيها في المآتم . وأن شعره كان الغناء في فرح الشرق ، وكان العزاء في أحزانه ، فيقول

رب جار تلفتت مصر توليـــــه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزيـــا بمآقـــي وطني أو مهنئا بلسانـــه
كان شعري الغناء في فرح الشر ق . وكان العزاء في أحزانــه

و « شعر » شوقي دائما هو محل ذكر واهتمام وإبراز في كثير من قصائده . ووصلا لما انقطع من حديثنا عن مخاطبته للمدن والآثار . وتنبيهها إلى قيمة شعره ، نراه مرة أخرى في قصيدته عن « باريس » يذكر أن شعره متدفق ، سلس ، محلق على نون السماء فهو شعر سماوي عال أوحت به سماء باريس :

---

(١) أما المشـــتركون والمشـــاهدون لليوبيل نفسه فكانوا بالمئات والمئات

وسماء وحى الشعر من متدفق سدس ، على نول السماء محوك

وأحيانا يجمع فى قصيدة واحدة بين الافتتان بشعره وبشاعريته ، وبنفسه ، كما فعل بائيته المرقمة الآ تظمها سنة ١٩٠٤ ، وفيها يقول

هـاك مدحـة الـ شاعـر الأرب
زفهـا إلـى خـير من خطب
فارسيـة بـزت العـرب
لم يجـىء بهـا شاعـر ذهـب
أن تراعهـا تسمـع العجـب
بيـد أنهـا بعـض ما وجـب !

وكما فعل فى قصيدته الميمية التى قالها فى حفل افتتاح الدار الجديدة لبنك مصر سنة ١٩٢٧ حيث جعل من الزعيم الاقتصادى « محمد طلعت حرب » فاتحا لعمورية ، وجعل من نفسه هو « أبا تمام » هذا العصر . وجعل العصور تنظم شعره حين يروى :

وكأنه فى الفتح « عمورية » وكأننى فيه « أبو تمـام »
أمم العصور بحسنه وأنا الذى أروى فينتظم العصور كلامى

وإذا كان ممدوح الشاعر شوقى لم يبلغ درجة من النضج الأدبى : والألمام الثقافى تعرفه بشعره فأنه لا يحجم أن يذكر ممدوحه بأن أباه كان يعرف شعره ويقدره ! كما فعل فى ثنائياته للأمير عبد المنعم بن عباس الثانى ، حيث يخاطبه قائلا :

فان أقرئتَ يا مولاى شعرى فأن أباك يعرفه ويدرى

ولم يفت الشاعر شوقى حين ظهر ديوانه فى طبعته الأولى سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م أن يصنع له تاريخا شعرياً بحساب الجمّل — كما كان الشعراء يفعلون بالتواريخ الشعرية فى ذلك العهد — فجعل ديوانه معجزاً ، وأسماه « معجز أحمد » ، وجعل عبارة تاريخه : « أليق ديوان ظهر » ، حيث يقول

مجموعة لأحمد معجزه فيها بهر
تعد فى تاريخها أليق ديوان ظهرا
١٣١٧ هـ

وإذا كان شوقى قد بالغ وأسرف بعض الأسراف فى افتتانه بنفسه وشعره وشاعريته فى كثير من قصائده ومواقفه ، فأنه كان فى بعض مواقفه لبقا كيسا ، ناعما فى إظهار تواضعه .

ولعله أراد بذلك أن يوازن بين الكفتين كفة الزهو والافتخار ، وكفة التواضع والانحسار ولكنه لم يعتدل بين يديه الميزان . فأصبح افتتانه وفتنته بنفسه غالبا على تواضعه ومن تواضعه الرقيق ما قاله فى قصيدة « بعد المنفى » متحدثا عن شباب مصر الذين أحسنوا استقباله فى ثغر الأسكندرية

وما أدبى لما أسدوه أهل ولكن من أحب الشيء حابى

أما ما قاله فى مرثيته لقاسم أمين المتوفى سنة ١٩٠٩ : فقد سلك فيه مسلك الاتضاع أيضاً ، حيث قال أن مثل هذا الرائد الاجتماعى لا يؤبنه إلا أمثال قس ابن ساعدة الخطيب ، وبشار بن برد الشاعر

هاتوا « ابن ساعدة » يؤبن قاسما وخذوا المراثى فيه من « بشار »

ولعل أجمل تواضع أبداه الشاعر شوقى نحو نفسه ، وأنكر فيه ما قد يتوهم له من فضل صنعه فى شعره وشاعريته ، وأن الفضل فى ذلك بيد الله ، هو ما قاله فى حفل يوبيله

لست أنسى يداً لأخوان صدق منحونى جزاء ما لم أعانه
رُب سامى البيان نبه شأنى أنا أسمو إلى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين أولى لو جرى الحظ فى سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندى وأذاعوا الجميل من إحسانه

ما الرحيق الذى يذوقون من كر مى وأن عشت طائفا بدنانـــه
وهبونى الحمام لذة سجـــع أين فضل الحمام فى تحنانـــه
وتـــر فى اللهاة ، ما للمغـــنى من يد فى صفائه وليانـــه

ومن عجب أن هذه النغمة المتواضعة الجميلة التى لم نعهدها عند الشاعر شوقى من قبل ، ولا من بعد ، قد التقت فى القصيدة نفسها التى يقول فيها عن شعره أنه كان الغناء فى فرح الشرق ، وكان العزاء فى أحزانه ولعل هذا الالتقاء بين الافتتان بالنفس وبالشعر وبين الاتضاع وإنكار الذات هو أثر من آثار الصراع النفسى عند الشاعر شوقى ، واقتناعه فى نهاية المطاف بأن المغنى المبدع المطرب لا فضل له فى صفاء أوتار لهاته وليانها ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم . . .

بقى أن نقول إن افتتان الشاعر أحمد شوقى بذاته قد أخذ مظهراً آخر من التعبير عن نفسه « بأنا » فى كثير من المواطن . وهو تعبير يجسد لنا اهتمامه بالذات إلى حد كبير وهذا التعبير الذاتى ، مضافا إلى ذلك الثبت الطويل من الزهو والافتخار بشعره وشاعريته الذى أسلفنا الكلام عنه فى خلال هذا البحث ، هو وجه من وجوه الاعتداد بالشخصية عند شوقى والاهتمام بها والولوع بالحديث عنها

ففى قصيدة له عن الخديو إسماعيل يتحدث « بأنا » عن نفسه قائلا

أنا من لا يرى الفرار من المـو ت ومن لا يرى من الموت بدا
أنا من بل دمعة المهـــد بالأ مس ، ولولا التعليل لم يأومهدا

وفى قصيدته عن الانقلاب العثمانى وسقوط السلطان عبد الحميد يقول

أنا إن عجـــزت فأن فـــى بردى أشعر من « جرير »

وفى قصيدته « دمعة وابتسامة » التى يستقبل فيها أم الخديو عباس ، ويعزيها فى فقد ولدها عبد القادر ، يقول

وأنا الآسى جراحات الأسى وإن امتدت إلى أصل الوتـــين

وفى قصيدته « تحلية كتاب » التى يحيى بها المرحوم أحمد حافظ عوض بمناسبة صدور كتابه « فتح مصر الحديث » : يقول :

أنا من بدل بالكتب الصحابـا لم أجد لى وافيا إلا الكتابـا

وفى مرثيته للزعيم مصطفى كامل يقول

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الـدوران

وهى وغيرها فى شعر شوقى نبرات تذكرنا بنبرات الذات و « الأنا » عند شاعر مثل أبى الطيب ، التى ارتفعت وطغت عنده إلى حد قوله فى بيته المشهور :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبـى وأسمعت كلماتى من به صمم

ولكن يظل شوقى — وحده — نموذجا وحيداً بين شعراء العربية فى الافتتان بالذات وبالشعر الذى ينظمه إلى حد بعيد .

الشعر المعتدى عليه

ما رأيت فنا من فنون القول كثر العدوان عليه ، والتساهل فيه ، والنهب منه ، والاستخفاف به ضبطا ونسبا كما رأيت فى الشعر العربى قديمه وحديثه .

ويبدو أن الشعر قد أُتى من حيث أريد تكريمه ، واستخف به من حيث رغب فى تقديره ، وقد جاءه المقتل من كثرة تعريضه للاستشهاد به فى كل المقامات ، فتحير المستشهدون كيف يروون ويضبطون ويردون القول إلى قائله ، وهم أمام بحر زاخر ، ومحيط متلاطم من الأبيات والمقطعات وقد دفعهم الحرص على إيرادها إلى التساهل فى روايتها ، والاستهتار بصحة نسبتها : ولم يبالوا — فى سبيل تحمسهم لإيراد الشعر والاستشهاد به — أن ينسبوا قولا إلى غير قائله ، أو يردوا ما قاله زيد إلى ما قاله عمرو . . أو يوردوا النص الشعرى على غير سواء وجهه ، ولو أدى ذلك إلى اختلال الوزن ، واضطراب النسق ، وفساد المعنى .

ومن سوء حظ الشعر العربى أن يكون الاحتفال به سببا فى الجناية عليه ، وأن تؤدى كثرة العناية بروايته إلى قلة الاهتمام بمتنه ونصه ، فأصبحنا أمام سيل جارف من الأوهام والأخطاء والكسر فى الشعر الذى ينشره

وبات القارىء الواعى للشعر وصحته ووزنه ونسبه يلاقى من الغيظ والصبر على المكروه فى قراءة الشعر ما يضيق به الصدر ، وينفد معه الصبر .

والحق أن الشعر قد زاحم النثر فى الاستشهاد ، تأييد القضايا ، فلا يكاد يخلو منه كتاب فى الأدب ، أو التاريخ أو الطبقات ، أوالتراجم ،أو الأدب الجغرافى ، أو التصوف ، أو التفسير . أو الأصول ، أو علم الكلام،أو كتب المواعظ والرقائق ، أو الفقه ، أو الدين .

نعم ! لقد رجعت كتب الدين ، والكلام ، إلى الشعر تستأنس به ،

وتدعم القضايا بالاستشهاد ، وتضع البيت من الشعر فى الموضع الذى تريد تأييده ، فينزل من الكلام كالكلام المبرم ، والقول المحكم ، وترتاح النفس القارئة وتطمئن إلى أن موضوع القضية ، قد أكده شاهد من الشعر ، ومنظوم من القول .

وليس من باب المصادفة أن نجد مثلا كتابا جليلا مثل « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى — وهو من هو فقها وحكمة وفلسفة وورعا — يسوق الشعر فى مساقات كثيرة . حيث تدعو الحاجة إلى الاستناد إليه ، والائتناس به . فنجد مثلا فى فصل « العلم المحمود والمذموم » قول الشاعر

خذ ما تراه ، ودع شيئاً سمعت به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

ونجد فى فصل « آداب المتعلم والمعلم » ، قول الشاعر

العلم حرب للفتى المتعالى ... كالسيل حرب للمكان العالى

وقول الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

ونجد فى فصل « وظائف المرشد المعلم » شعراً منه قول الشاعر

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ونجد فى فصل « علامات علماء الآخرة » شعراً منه قول الشاعر

عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه

ونجد فى فصل « قواعد العقائد » مثل هذين البيتين

رجلان خياط ، وآخر حائك ... متقابلان على السماك الأعزل

لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ... ويخيط صاحبه ثياب المقبل

و « إحياء علوم الدين » من أوله إلى آخره مملوء بمثل هذا الشعر الذى تخيره الإمام الغزالى ليؤكد به أكثر من قضية تعرض لها فى كتابه .

وليس من باب المصادفة أن نجد كتابا مثل « أدب الدنيا والدين » للإمام البصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وهو مزحوم بشعر غير قليل يسوقه هذا القاضى الفقيه الشافعى الكبير ليؤيد به قضايا الأخلاق التى تعرض لدراستها ، كالمؤاخاة بالمودة ، والبر ، ومجانبة الكبر والإعجاب ، وحسن الخلق ، والحياء ، والحلم والغضب ، والصدق والكذب ، والكلام والصمت ، والصبر والجزع ، والمشورة ، وكتمان السر ، والطيرة والفأل ، والمروءة ، ولا تكاد تخلو صفحة من الكتاب من بيت أو بيتين أو مقطوعة شعرية تساق فى مساق التوكيد والدعم والتأييد ، مع أن الرجل فقيه حافظ قاض صاحب فتوى وليس أديبا ولا صاحب شعر ، ولكنه وجد فى زبدة الشعر العربى حتى وقته ما يصلح للاستشهاد به على الأدب الدنيوى الدينى الرفيع

وليس من باب المصادفة أن نجد كتابا مثل « سراج الملوك » للإمام العالم الفقيه الزاهد العابد أبى بكر الطرطوشى الأندلسى المتوفى بالأسكندرية سنة ٥٢٠ هـ وقد امتلأ بالشعر الذى يسوقه المؤلف فى معرض الاستشهاد والتوكيد ، كقول الشعراء :

وإذا بغى باغ عليك بجهلـــــه فاقتله بالمعروف لا بالمنكـــــر

* * *

لقد نصحت لأقوام وقلت لهــم أنا النذير فلا يغرركم أحـــد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشتـــه إلا الأله ، ويودى المال والولـــد
لم تغن عن (هرمز) يوما خزائنه والخلد قد حاولت (عاد)فما خلدوا

* *

ولا خير فى حلم إذا لم تكن لــه بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن لــه حليم إذا ما أورد الأمر أصــدرا

* * *

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعـه ولست للعرض إن أودى بمحتال

أما كتب المحاضرات والأخبار والنوادر والأسمار والمفاكهات فأن الشعر المروى غالب عليها ، واضح فيها ، منبث بين صفحاتها على هيئة تلفت النظر ، وتشد الانتباه وقد يغنى أن أذكر لك بعض هذه الكتب كالعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ولطائف المعارف للثعالبي . ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني . وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى . والكشكول والمخلاة للعاملى والمستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى وغيرها مما لا يسمح المقام بذكره .

ولم أجد فيما أعرف من الأدب الإنجليزى والفرنسى اهتماما بالشعر وروايته والاستشهاد به مثل اهتمام علمائنا ومؤلفينا بالشعر العربى وندر أن يستشهد كاتب أو باحث أو مؤرخ أجنبي بشعر شاعر من شعرائهم فالشعر عندهم محصور فى دواوينه ، مطوى بين صفحاتها لا يتجاوزها إلى موطن آخر للاستشهاد والاستناد ، ولا نجد عندهم باحثا أو كاتبا يؤيد قضاياه ببيت واحد من الشعر بل أن حفظة الشعر عندهم والمستشهدين به لا يكادون يوجدون . على كثرة ما نجد عندنا من كثرة الاستشهاد والإيراد . كقولهم قال فلان أو قال الشاعر ، أو قال الآخر ، إلى أمثال هذه العبارات التى نصادفها فى كثير مما نقرأ .

والشعر العربى فى الكتب والمصنفات كالشعر فى المجالس والندوات والأسمار ، لا تزال فيه حتى يومنا هذا ملامح من الاحتفال له والاهتمام به ، فأن الخطيب ، أو المحاضر ، أو المتحدث لا يزال إلى اليوم يختلب ألباب سامعيه بالبيت أو الأبيات من الشعر يسوقها فى معرض التأكيد على موضوعه أو التمكين له ولا ننسى فى زماننا هذا كيف كان المغفور له سعد زغلول يطرفنا فى خطبه الطوال ببيت من الشعر يتلقاه السامعون بالاستحسان والتصفيق

ولا ننسى فى زماننا هذا جيل رواة الشعر من أمثال حافظ إبراهيم ،

واحمد الزين ، وعلى الجارم ، وكامل كيلانى ، وعلى الجندى ، ومحمود غنيم رحمهم الله .

إلى هنا وكنت أظن الاحتفال بالشعر والاهتمام بروايته — كتابة وتحديثا — قد خلق له جوا من العناية به والرعاية له ولكن الاستقراء — مع الأسف — قد دلنى على أنه لا يزال يروى ولكن بلا ضبط ، ولا يزال يحفظ ولكن بغير تحقيق ، ولا يزال يستشهد به فى الكتب ولكن بدون تمحيص . حتى دواوين الشعر نفسها التى أتيح لها أن تنشر محققة ، لا يزال يقع فيها من الخبط والتخابط وعدم استقامة البناء ، وكسر الأوزان ما تعجب النفس من وقوعه على حال من الكثرة ، كأن الأصل فى النشر هو التلفيق ، لا التدقيق .

ولا أذكر للقارىء الكريم أسماء دواوين من هذا الطراز تناولتها بالنقد والتقويم والتصحيح فى مجلات (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة ، و(مجمع اللغة العربية) بدمشق ، و(مجلة معهد المخطوطات العربية) التابع للجامعة العربية ، فليس القصد التشهير بقوم قصدوا خدمة الشعر بنشره محققا ، فجانبهم الصواب ، وأخطأهم الحساب ، وهم محمودون على حسن النية ، غير ملومين على سوء التنفيذ .

وقد لفت نظرى — بطول ممارستى لكتب التاريخ العربى الإسلامى وكثرة تقليبها بين يدى — أن أكثر ما يجىء فى هذه الكتب من الشعر يتسرب إليه الخطأ والفساد والكسر حتى لا يكاد يسلم منها كتاب واحد ، من الكتب الطوال كالطبرى ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، أو من الكتب القصار ، كفتوح البلدان للبلاذرى ، وتاريخ اليعقوبى ، وحسن المحاضرة للسيوطى .

وكذلك الشان فى كتب التراجم ، مثل (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و (الوافى بالوفيات) لابن شاكر الكتبى ، و (الدرر الكامنة) لابن حجر ،

و (الضوء اللامع) للسخاوى ، و (خلاصة الأثر) للمحبى . و (سلك الدرر) للمرادى .

وآفة الشعر الذى فى هذه الكتب تأتيه من ناحية النساخ أولا . فهم الآفة فى كل ما وصل إلينا محرفا مشوها من التراث كما قد تأتيه — أحيانا — من ناحية المؤلفين أنفسهم ، الذين لا يتحرون ، ولا يتحققون ، وقد يكونون على غير معرفة بالعروض والقوافى فيوردون الأشعار مكسورة الأوزان . محطمة البنيان ، أو ينسبون الأشعار إلى غير أصحابها الحقيقيين . ويذكرون ما لهذا لذاك .

ويحضرنا فى هذا المقام ما فعله ابن إسحاق المؤرخ الذى أخذ عنه المؤرخ ابن هشام سيرة النبى عليه السلام فأن ابن إسحاق لم يكن ذا بصر فى الشعر ولا علم به . ومن هنا تسربت إلى السيرة التى كتبها ابن هشام أشعار كثيرة لم ير الرجل — وهو عارف خبير بالشعر — أن يسكت عنها أو يصمت عن التعليق عليها بمثل قوله (الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع . فذلك الذى منعنا من إثباته) أو قوله : (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر)

بل بلغ من اهتمام ابن هشام بما جاء فى السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق من شعر أنه يعنى نفسه بتصحيح ألفاظ الشعر وعباراته عن طريق الرواة الذين يطمأن إلى روايتهم كما يذكر ما جاء فى الشعر من روايات مختلفة ، مثل الذى نجده فى شعر الزبير بن عبد المطلب ، وشعر أبى ذؤيب الهذلى ، وشعر ضرار بن الخطاب ، وشعر أبى قيس بن أبى أنس بل نراه أحيانا ينشد الشعر أو القصيدة المروية عن ابن اسحاق ، ثم يعيد نشرها صحيحة مستوية . كما فعل فى مرثية أمية بن أبى الصلت لزمعة بن الأسود ، فقد علق عليها بقوله (هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء) ثم أعاد روايتها صحيحة عن خلف الأحمر .

وسواء أكان التحريف فى الشعر المروى ، أو الخلط بين أصحاب الشعر ، نتيجة لعمل المؤلف نفسه ، أو نتيجة لعمل الناسخين الذين شوهوا التراث فأنه ظاهرة ندعو الله أن تخف فى تآليفنا وبحوثنا ومقالاتنا ، وعند كتابنا وباحثينا .

ولقد بلغ من اضطراب المؤلفين والدارسين فى نسبة الشعر الذى يروونه إلى أصحابه الأصليين أن شاعراً مؤرخا مؤلفا كبيراً مثل (أسامة بن منقذ) الأمير الفارس العربى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ لم يسلم أن يتردد ثلاث مرات فى نسبة شعر مشهور إلى قائله الحقيقى فالأبيات التى تقول

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألجم فاه بلجام

فنراه ينسبها تارة فى كتابه « الاعتبار » ص ٢٧٤ إلى سفيان بن عيينة رحمه الله ، ثم يعود بعد صفحتين اثنتين من الكتاب — أعنى ص ٢٧٦ — فينسبها إلى الشاعر أبى نواس وهو يورد بيتين منها ، ثم يأتى فى ص ٣٢٦ فينسبها — أو ينسب الثانى منها — إلى شاعر مجهول . وهو هو بعينه المؤلف فى كل صفحة من الصفحات الثلاث . والحق أن هذا الشعر لأبى نواس وهو فى ديوانه ص ١٩٤ ، ١٩٥

وأحيانا ينسب المؤلف شعراً إلى شاعر معين فإذا رجعت إلى ديوان هذا الشاعر لا تجد هذا الشعر فيه ، فينبهم عليك الأمر ولا تدرى وجه الحق فى المسألة :

وقد وقع فى هذا أيضاً المؤلف أسامة بن منقذ صاحب كتاب «الاعتبار» ، فقد نسب فى صفحة ٣٥١ من كتابه هذا : البيتين الآتيين لابن المعتز فى وصف زهر الآذريون الأصفر

وأذريون أتاك فى طبقــه كالمسك فى نشره وفى عبقــه
قد نفض العاشقون ماصنع الهجـ ـر بألوانهم على ورقــه

إلا أنه برجوعنا إلى ديوان ابن المعتز لم نجد البيتين فيه . فوقعنا فى حيرة . هل هما من شعر ابن المعتز ولكنهما لم يردا فى ديوانه المطبوع أم هما لشاعر آخر غير ابن المعتز . وقد نسبهما أسامة إليه وهما وخلطا ؟

ولا شك أن تعيين الشاعر القائل الحقيقى للشعر المروى هو قضية تحتاج إلى بصر كثير من المؤلفين حين يؤلفون . بقولهم قال الشاعر أو قال بعضهم . أو قال الآخر بدون يقين . أو لعلهم يختارون أهون الأمرين حين لا يذكرون اسم الشاعر ما داموا لا يعرفونه . أو ليسوا منه على يقين

ونجد هذه النسبة غير المحددة فى أكثر ما يروى من شعر فى كتب الأدب والتاريخ والمحاضرات والنوادر فنرى أسامة بن منقذ مرة ثالثة . وهو يقول فى مواطن كثيرة من كتابه حين يروى شعراً وقال آخر . أو : قال الشاعر . وفى خلال هذه الأنساب المجهولة قد يأتى بنسبة محددة لشاعر معروف لديه على سبيل القطع أو على سبيل الظن ففى فصل « حسن الجوار » من كتاب الاعتبار يورد أشعاراً لمسكين الدارمى . وحاتم الطائى . والخنساء . والفرزدق . والحطيئة . وعبيد بن حصين الراعى . ثم يأتى بعد ذلك بشعر لا يعلم صاحبه . ولا يدرى قائله فيقول كعادته وقال آخر مع أن هذا الآخر المجهول هو طفيل الغنوى الذى يقول . كما جاء فى ديوانه ص ٥٧

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلــت
هُمُ خلطونا بالنفوس وأرفأوا إلى حجرات أدفأت وأكنت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنــا تلاقى الذى يلقون منا لملــت

ولا ندعى أن أديبا أو باحثا أو مؤلفا عربيا مهما كان شأنه يستطيع أن يلم بالشعر العربى كله ويحفظ ديوانه . ويعرف قائليه على حقيقتهم ، ولكن

المؤلفين يتفاوتون فى هذا على قدر طاقتهم ومحفوظهم وإحاطتهم بالشعر العربى . وقد يكون بعض الشعر القديم معروفا لدينا اليوم لأنه وقع لنا أو ألقته الظروف فى أيدينا وتحت أبصارنا ، ولكنه لم يقع لمؤلف قديم ، كالذى حدث مثلا لأسامة بن منقذ ، فأنه قد روى البيتين التاليين على أنهما لشاعر مجهول لديه ، مع أنهما للشاعر معن بن أوس . وهما

وأنى على أشياء منك تريبـــى ... قديما لذو صفح على ذاك مجمل
إذا سؤتنى يوما صفحت إلى غد ... ليتقب يوما منك آخر مقبل

وإذا كانت الأوهام والأخطاء فى رواية الشعر العربى فى المؤلفات تأتى من ناحية المؤلفين مرة ، ومن ناحية النساخ — وما أكثر أوهامهم — مرة ثانية ، فأنها تأتى مرة ثالثة من تحريفات الطابعين ومنضدى حروف المطابع ، ويشترك معهم فى المسئولية المحققون والمصححون . فأننا نجد فى كتاب (أعيان القرن الثالث عشر) الذى ألفه المرحوم خليل مردم بك — وهو من هو أدبا وعلما وبحثا واطلاعا — وحققه ولده صديقنا الشاعر عدنان مردم بك — نجد فيه شعراً مضطربا فى أكثر من موضع فقد أورد شعراً للشاعر اللبنانى الحاج عمر الأنسى يقول فيه

بإذا الذى ظن بى ما فيه من عوج ... إنى أنا الشمس فانظر ظل نفسك بى
أنا الذى ساد أصله ، ومفتخــرى ... أن البراعة أمى ، والحسام أبــى

وواضح أن لفظة (بأذا) تحريف مطبعى صوابه : (ياذا) ، وأن كلمة : أصله فى البيت الثانى بصيغة المفرد ، خطأ بكسر الوزن ، وصوابها أصلاه بصيغة المثنى ، ولا أدرى كيف جاز هذا الوهم على المغفور له خليل مردم بك أو على ولده عدنان ؟ !

كما نجد فى هذه الكتاب أيضاً ص ١٨٤ هذين البيتين :

علىّ ثياب لو يباع جميعهـــا ... بفلس ، لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تباع تمثلهـــا   نفس الورى كانت أعز وأكبرا !

وواضـــح أن لفظة (نفس الورى) فى الشطر الأخــير بصيغة المفرد خطأ ينكسر به الوزن ، وصوابها نفوس الورى ، بصيغة الجمع ليصح الوزن

وبعد ! فأن الذى أوحى بكتابة هذا المقال عن الشعر المعتدى عليه هو كتاب جيد قرأته أخيراً عنوانه (أحمد بن حنبل ، إمام أهل السنة) للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى صاحب كتب (أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام) و (الإمام الشافعى ناصر السنة وواضح الأصول) و (مالك بن أنس إمام دار الهجرة) و (توحيد الأمة العربية بتطوير شرائعها) وغيرها ، ولست هنا بصدد تقدير هذا الكتاب الذى يعد قمة فى الترجمة للإمام ابن حنبل ، فليس هنا مجاله ولا معرضه ، ولكننى لاحظت أن المؤلف الفاضل فى ص ١٦٤ نسب الأبيات التالية إلى الشاعر أبى العتاهية ، وهى

مثل الرزق الذى تطلبـــه   مثل الظل الذى يجرى معك
أنت لا تدركه متبعـــــا   وإذا وليت عنه تبعـــك
أنت للمال إذا أمسكتـــه   فإذا أنفقته فالمال لـــك

وبنظرة بسيطة إلى ديوان أبى العتاهية لا نجد فيه هذه الأبيات الثلاثة ، ولا حتى الثالث منها — وهو بيت سائر مشهور ، وقد ذكره ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد جـ ٣ — ١٠٧ قائلا قال الشاعر ، ولم يعينه ، ثم أعاده فى صفحة ٤٣٨ بدون تعيين لصاحبه . أما ابن قتيبة صاحب « عيون الأخبار » فقد ذكره فى جـ ٣ — ١٨١ قائلا وقال بعض المحدثين وذكره الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين جـ ١٠ — ٣٠ بدون نسبة إلى شاعر معين ، أما العاملى صاحب كتابى « الكشكول » و « المخلاة » فقد ذكره فى صفحة ٨٧ من المخلاة قائلا قال الشاعر ، دون أن يذكر أو يعين اسمه أما بيتا الظل

— وهذا البيت الأول والثانى من هذه الأبيات المجهولة النسب ، فقد ذكرهما العاملى — أيضاً — فى الكشكول — ج ٢ ص ٢٩١ طبعة دار إحياء الكتب العربية ، وقال أنهما لبعضهم ، أما ابن رشيق — صاحب كتاب العمدة — فقد ذكر البيت الثالث ، بعد أن مهد له بقوله وقد نظم الشاعر هذا الكلام فقال

أنت للمال إذا أمسكتـــــه فأذا أنفقته فالمال لـــــك

ولما قام الزهاوى الشاعر العراقى الكبير بتأليف مختاراته من عيون الشعر ، التى جمعها وحققها صديقنا الباحث الكبير الأستاذ عبد الرزاق الهلالى ، اختار البيت السابق ، ووضعه فى مختاراته قائلا : قال بعضهم ، دون أن ينسبه إلى شاعر معين .

ومن هنا لا أدرى كيف جعل الأستاذ عبد الحليم الجندى هذا البيت وصاحبيه للشاعر أبى العتاهية ، وما هو المصدر ، الذى أخذ عنه ، حتى تراح قلوبنا من هذه الأبيات الحائرة .

وإذا كان هذا من أوهام النسبة فى الشعر ، فأن فى كتاب (أحمد بن حنبل إمام أهل السنة) للمستشار عبد الحليم الجندى وهماً آخر فى صحة المتن الشعرى واستقامته حتى يستقيم الوزن ، فقد أورد فى ص ٥٠٢ بيتا من أرجوزة الشاعر عبد الله بن المعتز التى قالها فى المعتضد بالله العباسى هنا نصه :

كل يوم خليفة مقتـــــول أو خائف مروع ذليــــل

وأدنى نظر إلى هذا البيت يوضح أن المصراع الأول من البحر الخفيف ، والمصراع الثانى من بحر الرجز وه اجب أن يكون المصراعان كبقية أبيات الأرجوزة من بحر الرجز . ولقد وهم المؤلف فى رواية البيت فأحاله إلى هذه الصورة المختلطة ، وصوابه كما فى ديوان ابن المعتز

وكل يوم ملك مقتـــــول أو خائف مر ع ذليـــــل

وأعجب ما رأيته من تحريف الشعر ووقوع الخطأ والاضطراب فى بنائه روزنه ما وقع أخيراً فى كتاب (صالح جودت فى الميزان) للأستاذ عامر العقاد . ففى صفحة ٩٩ روى المؤلف أبياتا للشاعر صالح جودت على هذا الوجه :

أجـــل ظمآن وماء الحب فى نهـــرك
خذينى فى ذراعيك وضمينى إلى صـــدرك
دعينى أشرب النور ينساب من شعـــرك

وواضح أن فى البيت الأول كلمة ناقصة أضاعت وزنه ، وكذلك البيت الثالث ، وصوابهما كما يلى

أجل ظمآن يا ليلى وماء الحب فى نهـــــرك
دعينى أشرب النور الذى ينساب من شعرك

وسواء أكان هذا خطأ مطبعيا أم تحريفا من الأستاذ المؤلف ، فهو دليل جديد يؤكد ما تنادى به وندعو إليه من ضرورة مراجعة الشعر الذى ينشر وتقويمه وتصحيحه ، حتى لا نضيف إلى نكبة الشعر العربى بالشعر المتحرر ، نكبة أخرى بالشعر العمودى المهشم المتكسر . . . !

ملامح وسمات كثيرة الدوران فى الاداء الفنى

عنــد شوقى

لن نحاول هنا أن نتعرض لموضوع « لغة الشعر » التى حاول فريق من النقاد الاهتمام بها ، وإبراز قيمتها فى أداء الشعر ، كما حاول آخرون أن يغضوا من شأنها ، كالذى فعله الشاعر الإنجليزى « ورد زورث » حينما آثر فى محاورته الشهيرة مع الشاعر « كولريدج » أن يعبر الشاعر عن موضوعات الحياة العادية فى لغتها السهلة الواضحة ، التى لا نجد منها ضغط أو كتم والتى يتحدث بها الناس فى أمور معاشهم اليومى ، حيث يتصلون بعناصر الطبيعة اتصالا مباشراً ، وحيث يعيشون بمعزل عن تأثير الغرور الاجتماعى ، فيعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم فى بساطة لا تنميق فيها ولا تزويق .

والحق أن موضوع « لغة الشعر » لم يعرض لنا ونحن نحاول فى هذه الدراسة أن نتتبع فى متابعة دقيقة طريق الأداء الفنى عند الشاعر أحمد شوقى فنحن نقصد من هذا البحث أن نكشف عن ملامح مميزة واضحة وجدناها فى شعر شوقى على مدار دواوينه الأربعة كلها ، وعلى مدار شوقياته المجهولة التى جلاها للناس صديقنا وأستاذنا الدكتور محمد صبرى — رحمه الله — فى جزءين كبيرين .

وإذا كنا نستعذب شعر شوقى ونستجيده على أساس ما فيه من لفظ أنيق مختار ، وعبارة مشرقة متميزة ، ومعان جيدة عالية فنحن مع عبد القاهر الجرجانى فيما يراه من أن وراء ذلك أموراً (لا تنبىء عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده) .

ولا شك أن شوقى قد قرأ وحفظ كثيراً من شعر البحترى ، والشريف الرضى ، وأبى تمام ، والمتنبى ، وأبى فراس وتأثر بهم ، وتسرب إلى نفسه كثير من أساليبهم وديباجتهم وطرائق تعبيرهم . وإذا كان شيخه ومعاصره محمود سامى البارودى قد أحيا من قبله ديباجة الشعر القديم ، ونفض عنه الغبار ، وأعاد إليه رونقه ونصاعته ، فأن شوقى قد فعل هذا وأكثر منه بأن زاد عليه تلك الأمور التى أشار إليها عبد القاهر الجرجانى . وعدها من أسرار البيان العربى

فاحتفال البارودى بالألفاظ الرنانة ، والكلمات الطنانة ذوات الجرس والوقع هو احتفال لم يتجاوز ذلك إلى ما وراءه ، ولم يلحقه بشوقى شاعر العصر الحديث ، الذى ظلت تتطلع إليه العربية ، وتهفو إليه منذ بضع مئات من السنين .

ولا شــك أن شوقى كان مطلعا على أسرار البيان العربى بما هيىء له من كتب قديمة تعالج موضوعات الشعر ونقده ، والبلاغة والبيان والبديع . وأغلب الظن أنه لم تفته كتب ابن قتيبة ، والجاحظ ، والجرجانى صاحب « الوساطة » ، والجرجانى صاحب « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، وأبى هلال العسكرى صاحب « الصناعتين » ، وابن الأثير صاحب « المثل السائر » وغيرها . بل لم يفته — على سبيل الجزم — كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفى ، الذى يعد رائداً فى تاريخ الأدب وفى تبسيط النحو والبلاغة .

ولقد أفاد شوقى كثيراً من كتب البيان والبديع ووقف عند نماذجها وأمثلتها الدائرة المشهورة وقفات طوالا كما أفاد كثيراً من النماذج الجيدة فى الشعر العربى ، وهى تلك النماذج التى ثقف بها ، ولقف منها أجمل ما فيها ، وطعم بها أسلوبه الشعرى ، ثم زاد عليها ما ابتكره هو من معجمه اللفظى

والبيانى الذى تفرد به وحده ، والذى جعله متميزاً من بين شعراء العصر الحديث بطابع وحيد فى التعبير لم يتح لغيره .

وإذا كان لكل شاعر أو كاتب أسلوب منفرد يتميز به عمن سواه ، ويشير عليه بوضوح ، فأن بعض الشعراء والكتاب — حتى الكبار منهم — تختلط أساليبهم بأساليب غيرهم وتتداخل فيها ، لأن الخصائص المميزة ليست واضحة عندهم .

ومن سمات شوقى المتميزة فى أدائه الفنى حفنة من الظواهر الواضحة التى تصرخ على نفسها فى شعره ، والتى تنادى بأعلى صوتها فريدة فى ديوانه ، لا يشاركه فيها غيره من القدامى والمحدثين ، وهى بالإضافة إلى المحسنات البديعية التى استعملها شوقى ، وإلى الصنعة البيانية التى حذق الشاعر استعمالها ، تحدد الملامح الكبرى فى أدائه الفنى

ولقد أولع شوقى « بالتكرار » فى شعره ، حتى بات ذلك شيئاً ملحوظا فيه . ولا أدرى من أين عرض له هذا ، وكيف أسرف فيه ؟ هل تأثر مثلا بالدكتور جوستاف لوبون وبما كتبه عن توكيد الأمور فى النفس بطريق تكرارها ؟ وهل كان فى لغة حديثه وتخاطبه يكرر الكلام فتسرب من ذلك شىء إلى لغته فى النظم ؟ وهل كان يكرر حين يقتضى المقام التكرار لاعتبارات بلاغية ، كما وقع ذلك فى القرآن الكريم ، وفى الحديث النبوى ، وفى الذى أثر من أحاديث الفصاح وبقاياهم ، أم كان يكرر بلا هدف مرسوم ؟

أننا نتناول قصيدة شوقى الهمزية الكبرى فى مولد النبى عليه السلام فنجده قد كرر فى مقطع من مقاطعها لفظة (وإذا) أربع عشرة مرة ، فى أربعة عشر بيتا متتالية . ونجتزىء هنا بأيراد أربعة أبيات متتالية تدل على بقيتها وهى :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنـواء
وإذا عفوت فقادراً ، ومقـدراً لا يستهين بعفوك الجهـلاء

وإذا رحمت فأنت أم ، أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فأنما هى غضبة فى الحق ، لا ضغن ولا بغضاء

وتكرار الشرط (بإذا) هنا هو محاولة من الشاعر لاستيفاء جوانب كريمة من أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فاقتضاه تفصيل هذه الجوانب أن يكرر الشرط على مدار أربعة عشر بيتا

على أنه ليست هذه هى المرة الوحيدة التى يكرر فيها شوقى « إذا » الشرطية فى قصيدة . ففى قصيدته الهمزية التى قالها فى مؤتمر المستشرقين الدولى المنعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ والذى كان ممثلا لمصر فيه ، نراه يكرر « إذا » فى ثمانية أبيات متتالية نذكر منها بيتين يخاطب فيهما الله قائلا :

فإذا لقيوا قوياً إلا هـا فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلا بتنز يه فإن الجمال منك حباء

وقد تكررت « كأن » التشبيهية ست عشرة مرة متتالية فى قصيدة واحدة هى قصيدة « صدى الحرب » فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية ، حيث يصف تلاقى العسكرين على سهل فرسالا ، وفى كل بيت من الأبيات الستة عشر تشبيه . ويصف فيها الجيش التركى ، والخيام ، والسرايا ، والقنا ، والدجى ، والمنايا فى ضمير الظلام ، وصهيل الخيل ، ووجوهها ، وأنوفها ، وصدورها ، وسنا الأبواق ونداء الجيش ، وعيونه فى كل مذهب من سهل فرسالا ، والوغى وبلغ من محاولة شوقى استكمال الصورة ، وتمام التشبيه أن يشبه الوغى بالنار فى ثلاثة أبيات متتالية . ويلاحظ أن هذه اللوحة مبعثرة متناثرة جمع فيها الشاعر لقطة من هنا ولقطة من هناك . فهو ينتقل عفو الخاطر ، وبلا ترتيب منظم من الجيش إلى الخيام . ثم يعود إلى سرايا الجيش . وبعد لقطات من القنا والدجى والخيل يعود إلى نداء الجيش وعيونه ، ويختم اللوحة بالانتقال إلى نار الوغى :

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يكرر فيها شوقى التشبيه « بكأن » فى قصيدة واحدة . ففى قصيدته « الهلال الأحمر » التى يحيى فيها هذه الجمعية ، بمناسبة إحياء حفل لجمع التبرعات لأعانة المقاتلين فى طرابلس ضد الطليان المعتدين ، يكرر التشبيه « بكأن » فى الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة ، وكأنه فى كل بيت ، أو فى كل تشبيه يلم طرفا من أطراف الهلال ، وبياضه وحمرته ، ويشبه بالشفق تارة ، وبدم العشاق أخرى ، وبوردة حمراء ثالثة ويقول من ذلك

كأن ما احمرّ منه حول غرتـــه دم البرىء ذكى الشيب عثمانا
كأن ما ابيض فى أثناء حمرتـــه نور الشهيد الذى قد بات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون لـــــه قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانـــا

وكأنما أغرم الشاعر شوقى بتكرار التشبيه بكأن ، فعاد فى قصيدته « لبنان » يكررها خمس مرات فى خمسة أبيات متتالية ، يصف فيها ربوع لبنان، وبيوته ، وريحانه ، وتينه ، وتوته ، وهمس القاع فى أذن صخوره ، وجرس الماء فى ينابيعه . وقد اضطر إلى التكرار هنا بتنوع الصور واللقطات فى لوحة الجبل .

فشوقى لا يكرر إلا لمقتضى ، ولا يصطنعه إلا لضرورة كما فعل فى قصيدته « دمشق » النونية ، فقد أراد أن يوضح معنى (الملك — بضم الميم) بتوضيح مظاهر تجليه ، فكرره أربع مرات فى أربعة أبيات متتالية يقول فيها

الملك أن تعملوا ما اسطعتمُ عملا وأن يبين على الأعمال إتقـــان
الملك أن تخرج الأموال ناشطة لمطلب فيه إصلاح وعمـــران
الملك تحت لسان حولـه أدب وتحت عقل على جنبيه عرفـــان
الملك أن تتلاقوا فى هوى وطـن تفرقت فيه أجناس وأديـــان

وحين استقبل شوقى أم الخديو عباس بعد غيبة طويلة ، ضم قصيدته على خمسة أبيات متتالية يستهل كل واحد منها بقوله أقبلى ، وهو تكرار يدل على حرارة الاستقبال ، وشدة التحفى .

وفى قصيدة « المعلم » اللامية يكرر شوقى « إذا » أربع مرات ، كما كررها من قبل فى قصيدتى « الهمزية الكبرى » و « مؤتمر المستشرقين » . فيقول

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى   روح العدالة فى الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة   جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى   ومن الغرور فسمه تضليلا
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتما وعويلا

ولا يكتفى شوقى بتكرار الألفاظ فى قصيدة واحدة بل نراه يكرر عبارات بعينها فى أكثر من قصيدة ويظهر أنه كان مولعا ببعض التعابير يديرها فى قصائد مختلفات ، كعبارة « تعبت فى مراسه » فقد كررها فى قوله فى الهمزية

قوةُ الله إن تولت ضعيفا   تعبت فى مراسه الأقوياء

وفى قوله فى النسيب

وعلينا من العفاف رقيب   تعبت فى مراسه الأهواء

وكعبارة « وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت » فقد كررها فى قصيدة استقبال الطيارين العثمانيين قائلا :

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيت   فأن تولوا مضوا فى إثرها قدما

وفى الموطن الآخر الذى يقول فيه

وإنما الأممُ الأخلاق ما بقيت   فأن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكعبارة « الراحة الكبرى » ، فأنا نجدها فى قصيدة « ذكرى كارنارفون » كما نجدها فى مطلع قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » حيث يقول

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا   وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وما كان أكثر ما يردد شوقى عبارة « دار النيابة» (١) فى بعض قصائده. وقد كان حرصه على إقامة حياة ديموقراطية دستورية باعثا له على هذا التكرار.

ومن التعابير المكرورة فى شعر شوقى التعبير بالفعل « يكاد » تخفيفا للغلو فى التشبيه ، أو طلبا للمقاربة ، كقوله

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى   ويقضم بعض الأرض بعضا ويقضب

وقوله فى وصف تجار زمن الغلاء بعد الحرب العالمية الأولى

أصيب من التجار بكل ضار   أشد من الزمان عليه نابا

يكاد إذا غذاه ، أو كساه   ينازعه الحشاشة والإهابا

وقوله فى تهنئة الخليفة بنجاته من قذيفة سنة ١٩٠٥

يكاد يسير البيت شكراً لربه   إليك ، ويسعى هاتفا عرفات

وقوله فى قصيدة « إلى عرفات »

تكاد تضيء الأرض تحت ظلاله   وتخرج عقيانا مكان نبات

وقوله فى قصيدة « أبو الهول »

تكاد لإغراقها فى الجمود   إذا الأرض دارت بها لم تدر

وقوله فى المعلم

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

وقوله فى قصيدة « النسر المصرى » التى يحيي بها الطيار المصرى الأول « صدقى » : —

وتكاد الطير من خفته   تتعالى فيه من غير جناح

أما التعبير « يلو » فيزيد كثرة على تعبيره بالفعل « يكاد » ، ويطول بنا المجال لو أخذنا فى إحصاء مواطن ذلك الحرف ، ولكنا نكتفى ببعض الشواهد كقوله

---

(١) ولا ننسى تكراره لعبارة « رواة قصائدى » فى قصيدة دمشق وفى اللامية التى قالها فى ذكرى استقلال سورية

ولو أنى دعيت لكنت دينى ... عليه أقابل الحتم المجابا

وكقوله فى « ذكرى المولد »

ولو خلقت قلوب من حديد ... لما حملت كما حمل العذابا

وكقوله فى همزية المولد النبوى

فلو انّ إنسانا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء

وكقوله فى « ذكرى المولد »

ولو أنى خطبت على جماد ... فجرت به الينابيع العذابا

وكقوله فى قصيدة « مشروع ملنر »

يا قوم هذا زمن قد رمى ... بالقيد واستكبر عن سحبه

لو أن قيداً جاءه من عل ... خشيت أن يأبى على ربه !

وقوله فى إطلاق سراح سجناء المحكمة العسكرية

لو مر بالولدان طيف جمالها ... فى الخلد خروا ركعا وسجودا

وقوله فى قصيدة « أبو الهول » :

وشكوى « لبيد » لطول الحياة ... ولو لم تطل لتشكى القصر

ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة ... لحقت بصانعك المقتدر

وقوله فيها أيضاً مخاطبا أبا الهول

ولو صوروا من نواحى الطباع ... توالوا عليك سباع الصور

وقوله فى قصيدة « فى سبيل الهلال الأحمر »

لو يعلمون السوق ما حسناتها ... بيع الحصى فى السوق بيع الجوهر

وقوله فى قصيدة « الأزهر »

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد ... غبنا ، وجل المشترى ، والمشترى

وقوله من قصيدة فى تكريم الدكتور على إبراهيم الجراح المشهور :

لو يرى الله مصباح لما ... كان إلا العلم ، جل الله شانا

وهناك من العبارات اللوازم التى أكثر شوقى من استعمالها ، الإتيان بأن ، وبعدها الاسم الموصول – وغالبا ما يكون الذى – اسما لها ، ثم مجىء الخبر بعد ذلك فعلا ، كقوله فى قصيدة « الخلافة » :

إن الذين جرى عليهم فقهه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح

وقوله فى قصيدة « تكريم » :

إن الذى قسم البلاد حباكمو بلدا كأوطان النجوم مجيدا

وقوله فى قصيدة « على سفح الأهرام »

إن الذى ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى « الضاد »

وقوله فى قصيدة « تكليل أنقرة »

إن الذين توارثوك على الهوى بعد « ابن هند » طالما كذبوك

وقوله فى قصيدة « المعلم »

إن الذى خلق الحقيقة علقما لم يُخل من أهل الحقيقة جيلا

وقوله فى قصيدة « الأندلس الجديدة »

إن الألى فتحوا الفتوح جلائلا دخلوا على الأسد الغياض وناموا

ومن لوازم شوقى الظاهرة المتكررة فى شعره الإتيان ببيت من الشعر على سبيل التذييل فى القصيدة ، ينزل منزلة الحكمة أو المثل السائر ، على أن يصدر هذا البيت بإذا الشرطية . وأكثر أبيات شوقى السائرة ، وحكمه المأثورة من هذا الباب قوله :

وإذا القلوب استرسلت فى غيها كانت بليتها على الأجسام

وقوله

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى روح العدالة فى الشباب ضئيلا

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولا

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وقوله

إذا لم يستر الأدب الغوانى فلا يغنى الحرير ولا الدمقس

وقوله

وإذا أراد الله ، إشقاء القــرى جعل الهــداة بها دعاة شقــاق

وقوله

إذا طلبت عظيما فاصبرن لــــه أو فاحشدن رماح الخط والقضبا

وقوله

وإذا أخذت المجد من أميــــة لم تعط غير سرابه اللمــــاح

وقوله

وإذا النساء نشأن فى أميـــــة رضع الرجال جهالة وخمــولا

وقوله

إذا كان الرماة رماة ســـــوء أحلوا غير مرماها السهامــــا

وقوله

إذا التصريح كان براح كفــــر فلم جن الرجال به غراما ؟

وقوله

وإذا بناة المجد راموا خطــــة جعلوا الزمان محققا ومنيــلا

وقوله

وإذا أراد الله أمراً لم تجـــــد لقضائه ردا ولا تبديـــلا

وتغلب فى تعبيرات شوقى عبارة الأمر بالفعل (قل) ، وخاصة فى المواطن التى يقتضى فيها إسداء النصح ، وبذل الموعظة ، وسلامة التوجيه : كقوله

فقل لبان بقول ركن مملكــــة على الكتائب يبنى الملك لا الكتب

وقوله من قصيدة مشروع « ٢٨ فبراير »

قل للكنانة قول الصدق من ملك مؤيد بالهدى لا ينطق الكذبا

وقوله من قصيدة « ذكرى كارنارفون »

قل للمدل بماله وبجاهـــــه وبما يجل الناس من أنسابـــــه

وقوله من قصيدة « إلى عرفات »

فقل لرسول الله : يا خير مرسل أبثك ما تدرى من الحســـرات

وقوله

فقل رب وفق للعظائم أمتى ... وزين لها الأفعال والعزمات

وقوله من قصيدة « على سفح الأهرام »

قل للأعاجيب الثلاث مقالة ... من هاتف بمكانهن وشادى

وقوله

قل للخلافة قول باك شمسها ... بالأمس لما آذنت بدلوك

وقوله من قصيدة « تكريم »

قل للشباب : زمانكم متحرك ... هل تأخذون القسط من دورانه؟

وقد أعجب الشاعر شوقى بالفعل « مشى » فأداره فى كثير من الأبيات على وجهى الحقيقة والمجاز ، وهو فعل يكون المعجم اللفظى فى شعر شوقى .

ومن استعمالاته له قوله فى الهمزية النبوية :

مشت الحضارة فى سناها واهتدى ... فى الدين والدنيا بها السعداء

وقوله فى قصيدة « توت عنخ آمون »

مشت بمنارهم فى الأرض « روما » ... ومن أنوارهم قبست « أثينا »

وقوله من قصيدة « صدى الحرب » :

مشت فى سراياهم فحلت نظامها ... فلما مشينا أدبرت لا تعقب

وقوله من قصيدة « إلى عرفات » :

مشى فيه قوم فى السماء وأنشأوا ... بوارج فى الأبراج ممتنعات

وقوله من قصيدة « المعلم » :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى ... روح العدالة فى الشباب ضئيلا

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون » مخاطبا الشمس : « أخت يوشع »

مشيت على الشباب شواظ نار ... ودرت على المشيب رحى طحونا

وقوله من قصيدة « على قبر نابليون » :

وتمهل إنما تمشي إلـــــــى حرم الدهر ، ومحراب القرون

وقوله من مرثيته للمطرب عبد الحي

لو تستطيع كرامة لمكانهــــا مشت الرياض إليه والأدواح

ويلفت النظر عند شوقي ميله إلى استعمال « القسم » في مواطن غير قليلة من شعره ، ولعله كان في غنى عن ذلك ، لولا كلفه بتوكيد قضاياه دائماً بما يتيسر له من طرق التوكيد ، كالتكرار وغيره .

ومن أقسامه المتناثرة في شعره قوله في قصيدة « تكريم » :

والله ما دون الجلاء ويومـــــه يوم تسميه الكنانة عيــــداً

وقوله في قصيدة « الأزهر »

لا والذي وكل البيان إليك لــم أك دون غايات البيان مقصراً

وقوله من قصيدة « وداع فروق » :

أما — والله — لو علمت مكاني لأنطقت المآذن . والقـلاعا

وقوله من قصيدة « المعلم »

والله لولا ألســــن وقرائـــح دارت على فطن الشباب شمولا

ما كان « دنلوب » ولا تعليمه عند الشدائد يغنيان فتيــــلا

وقوله من قصيدة « دمعة وابتسامة »

قسماً ما الخير إلا وجهـــــة هي هذا الوجه للمستقبليـن

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون »

وأقسم كنت في « اوزان » شغلا وكنت عجيبة المتفاوضينـــــ

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون وحضارة عصره »

قسما بمن يحيي العظــــــــــــام ولا أزيدك من يمـــين

وما ادار شاعرٌ الاستفهام والأمر والنهى والنداء والدعاء فى شعره كما ادارها شوقى فى مجموع شعره المعلوم والمجهول . ويطول بنا مجال القول لو تتبعناها واحدة واحدة فى هذا المقام الضيق الذى لا يأذن إلا ببعض الشواهد :
ومن استفهاماته الكثيرة المشهورة قوله فى قصيدة « شهيد الحق » :

إلام الخلف بينكمُ إلامـــا … وهذى الضجة الكبرى علاما ؟

وقوله فى قصيدة « انتحار الطلبة » :

فيم تجنون على آبائكـــم … ألم الثكل شديداً فى الكبر ؟

وقوله فى قصيدة « أبو الهول » :

إلام ركوبك متن الرمـــال … لطى الأصيل، وجوب السحر؟
تسافر منتقلا فى القـــرون … فأيان تلقى غبار السفـــر ؟
أبينك عهد وبين الجبـــال … تزولان فى الموعد المنتظـــر؟

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون » معرضا بالإنجليز الذين سرقوا — أو نقلوا — السلطان وحيد الدين من قصره فى إستنبول إلى مدرعة بريطانية هربا من الكماليين وأخذوه إلى مالطة :

أمن سرق الخليفة وهو حـى … يعف عن الملوك مكفنيـنـا ؟

ومن تعابيره الآمرة المشهورة قوله فى مطلع قصيدة المعلم

قم للمعلم وفه التبجيـــلا … كاد المعلم أن يكون رســـولا

ومن نواهيه المشهورة قوله فى قصيدة « خلافة الإسلام » التى ألغاها كمال أتاتورك :

لاتبذلوا برد النبى لعاجـــز … عزل يدافع دونه بالـــراح

وقوله من قصيدة « الأزهر »

لا تحذ حذو عصابة مفتونـة … يجدون كل قديم شىء منكرا

ومن نداءاته المشهورة قوله فى قصيدة « بعد المنفى » :

ويا وطنى لقيتك بعد يــأس كأنى قد لقيت بك الشبابا !

وقوله من قصيدته الهمزية النبوية مخاطب محمداً عليه السلام :

يا خير من جاء الوجود تحية من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا

وقوله فى قصيدة « ذكرى المولد »

أبا الزهراء ، قد جاوزت قدرى بمدحك بيد أن لى انتسابا

وقوله فى قصيدة « إلى عرفات »

ويارب ؟ هل تغنى عن العبد حجة وفى العمر ما فيه من الهفوات ؟

وقوله فى مطلع قصيدة « أبو الهول »

أبا الهول ! طال عليك العصر وبلغت فى الأرض أقصى العمر

أما دعاء شوقى بالخير فهو غير قليل فى شعره سواء أكان التعبير عنه بجمل أصلية ، أم جمل اعتراضية وهو يدعو بالخير فى كل مناسبة ، وخاصة فى قصائده الإسلامية والدينية ومدائحه النبوية . وقليلا ما كان يدعو بالشر ، كدعائه على الأنباء التى حملت إليه نكبة دمشق سنة ١٩٢٥

لحاها الله أنباء توالــت على سمع الولى بما يشــق

وكدعائه على يوم قمبيز أحد ملوك الفرس الذى غزا مصر سنة ٥٢٥ ق م واستولى عليها وفعل بأهلها وفرعونها من الظلم والذل ما لا ينسى ، قائلا

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيـــز ، ولا طنطنت بك الأنباء

وكما كانت لأحمد شوقى لوازمه الخاصة : وطوابعه الشخصية المميزة للأسلوب — وهى تلك الطوابع التى تتبعناها فيما سبق من الكلام — فأنه لجأ إلى المحسنات البديعية العامة التى يشترك فيها مع غيره والتى كان بارعا فى استعمالها ، فلم يزحم بها الكلام ، ولم يثقل بها كاهل شعره . ومن هنا خفت مسالكها على النفس كاستعماله للتقسيم والمقابلة والتوشيح البديعى

وجمع المؤتلف والمختلف ، والجناس ، والتذييل ، والأمثال ، والترصيع — أى القافية الداخلية فى البيت لا القافية الأخيرة ، كقوله فى قصيدة « انتصار الأتراك فى الحرب والسياسة »

قواد معركة وراد مهلكة أوتاد مملكة ، آساد محترب

وكقوله فى قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » :

يا ابن السنا عاليا ، والعز ممتنعا والبأس محتدما ، والعرف منسكبا

ومن توشيحات شوقى البديعية قوله فى قصيدة « صدى الحرب » :

ملكت سبيليهم ففى الشرق مضرب لجيشك ممدود وفى الغرب مضرب

وقوله فى القصيدة نفسها

وتغشى أبيات المعاقل ، والذرا فثيبهن البكر ، والبكر ثيب

وقوله فى القصيدة نفسها

فمثل بناء الترك لم يبن مشرق ومثل بناء الترك لم يبن مغرب

وقوله فى القصيدة نفسها

فلا الشرق فى أسطوله متقى الحمى ولا الغرب فى أسطوله متهيب
أمولاى غنتك السيوف فأطربت فهل لبراعى أن يغنى فيطرب ؟

ومن عجب أن شوقى فى البيت الأخير رفع الفعل « يطرب » مع أن حقه أن ينصب ، ولعلها ضرورة شعرية حكمت عليه ، أو فلتة نحوية فاتته ، وكلاهما قبيح وليس هذا بالموطن الوحيد الذى يؤخذ على شوقى فيه مأخذ نحوى أو لغوى ، ففى قصيدته فى نكبة دمشق يقول

بلاد مات فتيتها لتحيـــا وزالوا دون قومهم ليبقُـــوا

بضم القاف من الفعل « ليبقوا » والصواب فتحها ، لأن الفعل (يبقى)

معتل بالألف ، فيفتح ما قبل حرف علته حين إسناده إلى واو الجماعة . وقد اضطرت القافية المضمومة شاعرنا إلى ارتكاب هذه الضرورة .

وفى مرثيته الرائعة لسعد زغلول ، يقول

يا رفاتا مثل ريحان الضحى كللت عدن بها هام رباها

والضمير فى (بها) يعود على الرفات ، والرفات مذكر لا مؤنث ، لأن الألف والتاء فيه ليست لجمع المؤنث السالم ، ولكنهما من بناء الكلمة ، فوهم شوقى وتصوره مؤنثا وأعاد عليه ضمير المؤنث.

وفى قصيدته الجليلة « على قبر نابليون » ، يقول

وترى الحق عزيزاً فى القنا هينا فى العزل المستضعفين

بتشديد الزاى من كلمة (العزل) — كأنها على وزن ركع ، وسجد ، جمع راكع وساجد . وكأن شوقى أراد بالعزل جمع أعزل ، وهو من لاسلاح له ولا عدة للقتال معه . وهو وهم ، والصواب أن يجمع أعزل ، على عزل ، بضم العين وسكون الزاى ، مثل : أحمر ، وحمر .

وهل تقدح مثل هذه الأوهام فى قيمة شوقى الذى كان ذا طابع متميز متفرد فى الأداء الفنى فى الشعر العربى المعاصر ؟ إنه فى الحق قمة شامخة لاينالها المتناول ، ولا يدركها المتطاول .

مع بعض شعراء الربيع

لم يكتف الشعراء أن يحيوا الربيع ويستقبلوا مقدمه البهيج بأشعارهم منذ كان الشعر العربى إلى يومنا هذا ، بل رأوا – زيادة فى تكريم الربيع والتحفى بمقدمه – أن ينسبوا إليه دواوينهم وليس أبلغ فى التحية والحفاوة من أن ينسب ديوان بأكمله إلى الربيع ، حتى يكون اسم « الربيع » متوجا لديوان برمته ، ولو لم يكن كل الشعر فيه متصلا بالربيع

والحق أن ظاهرة تسمية الدواوين باسم « الربيع » ونسبتها إليه هى من وحى القرن العشرين خالصة أما ما قبل ذلك من قرون على مدار التاريخ العربى كله ، فلا نجد ديوانا واحداً متوجا باسم « الربيع » أو معزوا إليه ، وأن كان الشعر العربى من الجاهلية إلى العصر الحديث مزدحما بالقصائد والمقطعات والأراجيز التى نظمها الشعراء فى تحية الربيع ووصفه ، وصفة مظاهر الحياة الدافقة المزدهرة فيه .

ولعل أقدم وأول ديوان من الشعر العربى نسب إلى « الربيع » هو ديوان (نسمات الربيع) الذى صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ لصاحبه الشاعر الحضرمى صالح حامد العلوى فهو أول ديوان معزو إلى الربيع تسجله المكتبة العربية فيما نعلم ومن بعدها تنبه شعراؤنا المحدثون والمعاصرون إلى اللفتة الربيعية التى بدأ بها الشاعر الحضرمى ، فوجدنا بضعة عشر شاعراً عربياً يحذون حذو هذا الشاعر الرائد وينسبون بعض دواويهم إلى الربيع وكان أول من اقتدى بالشاعر صالح بن حامد العلوى فى هذا المجال الشاعر العوضى الوكيل ، فرأيناه يصدر فى سنة ١٩٣٩ ديوانه المعنون (أغانى الربيع) .

ولم يمض عام واحد على ظهور ديوان أغانى الربيع للشاعر العوضى الوكيل حتى رأينا الباحث الدءوب زميلنا المرحوم الدكتور محمود رزق سليم يصدر فى سنة ١٩٤٠ عن مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية ديوانا صغير الحجم عنوانه (وحى الربيع) ، وهو مجموعة من الأشعار والأناشيد – والمحاضرات

أيضاً — التي ألقاها صديقنا القديم على منابر الثغر وفي احتفالات جمعية الشبان المسلمين بالذات ، تحية للربيع وتحفيا به ، فقد كان من عادة الإسكندرية أن تنظم حفلات أدبية وشعرية منذ سنة ١٩٣٨ لاستقبال الربيع كل عام

وفي سنة ١٩٤٢ صدر لشاعر الشباب النابغ المرحوم فؤاد بليبل ديوانه الذي طبع في أعقاب وفاته بشهور يحمل عنوان (أغاريد ربيع) ويبدو أن التسمية هنا لم تكن من وحي الشاعر نفسه . وإنما من وحي صهره الذي أراد أن يشير إلى شعر الشاعر الذي مات وجف عوده في أول الربيع من العمر .

وأخذت بعد ذلك تتوالى دواوين الشعر المنسوبة إلى الربيع والتي تحمل في عناوينها أرج اسمه وفوح عبيره ، ففي سنة ١٩٤٤ صدر عن بيروت ديوان (أول الربيع) للشاعر رشدي معلوف وهو من أسرة المعالفة المشهورة في مجالات العلم والأدب والشعر ، منهم صديقنا العلامة المؤرخ المرحوم عيسى إسكندر المعلوف ، وأولاده الشعراء فوزي المعلوف صاحب ملحمة «على بساط الريح» المشهورة ، وصديقنا المرحوم شفيق معلوف الشاعر المغترب في سان باولو بالبرازيل . وصاحب « عبقر » و « نداء المجاديف » و « لكل زهرة عبير » وغيرها وصديقنا رياض معلوف الشاعر المغترب العائد إلى وطنه : وصاحب ديوان « الأوتار المتقطعة » وغيره .

وفي سنة ١٩٤٦ صدر ديوان (أحلام الربيع) للشاعر السعودي طاهر زمخشري . وأعقبه هو نفسه في سنة ١٩٥٥ بديوان آخر يحمل اسم (أنفاس الربيع) ولم يصدر في الفترة ما بين (أحلام الربيع) وأنفاسه للشاعر طاهر الزمخشري إلا ديوان (الربيع) للشاعر المهجري إلياس فرحات ، وقد طبع في مدينة سان باولو عاصمة البرازيل التجارية سنة ١٩٥٤

ومن الظواهر اللطيفة في تاريخ الدواوين الشعرية الربيعية أن سنة ١٩٦٥ حفلت بديوانين يحملان اسم الربيع أولهما (ربيع) للشاعر مصطفى عبد الرحمن وقد صدر في أول العام ، وثانيهما ديوان (ماذا يقول الربيع ؟) للشاعر كمال نشأت . وقد صدر في منتصف العام نفسه ، وهما أجمل تحية استقبل بها الربيع في موسم واحد

وفى سنة ١٩٦٩ اشترك الثغر الإسكندرى الجميل بأصدار ديوان يحمل اسم الربيع ، هو ديوان (أحلام الربيع) للشاعر محمد محمود زيتون ، فكان ثالث تحية ديوانية أسهمت بها الإسكندرية فى موكب الربيع الخالد ، وهو يتفق فى اللفظ مع ديوان (أحلام الربيع) للشاعر السعودى طاهر زمخشرى .

ولم ينقطع ذلك المد الدائم الذى يلهم الشعراء بديوان الربيع ، ففى سنة ١٩٧١ صدر ديوان (أغانى الربيع) للشاعر الكويتى عبد المحسن الرشيد ، وقد اشترك بالاسم الكامل المتطابق مع ديوان (أغانى الربيع) للشاعر العوضى الوكيل .

وهذه الدواوين التى عبقت المكتبة العربية بأرجها حاملة اسم الربيع كان من حسن الحظ أنها من الشعر الفصيح ، ولعلها دليل جديد على أصالة الفصحى وتمكنها من القلوب على أن الشعر العامى — وهو طريق آخر مألوف للتعبير عن الأحاسيس الشعبية الدافقة — لم يحجم عن المشاركة فى هذا الميدان الربيعى بديوان ففى سنة ١٩٦٥ رأينا الأديب حامد الأطمس يصدر فى مشروع الكتاب الأول الذى تحتضنه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ديوان : (صناع الربيع) الذى قدمه صديقنا الشاعر أحمد رامى — رحمه الله — أجمل تقديم .

وهنا لابد من وقفة قصيرة أمام الدواوين التى ظهرت فى المكتبة العربية ، وهى تحمل اسم الربيع أو تحمل بعض ملامحه . . فديوان (أغاريد ربيع) للشاعر فؤاد بليبل ليس فيه تحية واحدة أو كلمة استقبال واحدة للربيع ، لأن عنوان الديوان يحمل دلالة على أن صاحبه مات فى ربيع العمر وديوان (الربيع) للشاعر المهجرى إلياس فرحات لا يحمل بين قصائده الست والسبعين إلا قصيدة واحـــدة عنوانها أحب الربيـــع ، وأما الخمس والسبعون قصيدة الباقية فتدور حول موضوعات عاطفية ، وسياسية ، وقومية ، واجتماعية ، ومناسبات خاصة بعيدة عن الربيع . ولكى نفهم السر فى هذه التسمية للديوان باسم الربيع يجب أن نعرف أن الشاعر قصد أن يجمع

فى هذا الديوان ما نظمه من الشعر فى ربيع حياته ، كما جمع ديوانا آخر باسم : (الصيف) يضم ما نظمه من الشعر فى رحلة الصيف من عمره المبارك ؛ وجمع ديوانا ثالثا باسم : (الخريف) يضم ما نظمه من الشعر فى رحلة الخريف من حياته أما الشتاء (١) فنسأل الله أن يطيل عمر صديقنا إلياس فرحات عما تحمد معه مسيرة الطريق .

ولا بأس أن نذكر هنا أن الشاعر فرحات المرراح يحثنا فى ديوانه (الربيع) على أن نغتنم من الربيع أمتع ما فيه من متع الحياة ، وأن نتمتع فيه بكل شيء قبل فوات الأوان : —

أحـــب الربيـــع وأيامــــه — وأهوى لياليــه الضاحكات
وأعشق أجمل ما فى الربيع — ورود الربى ، وخدود البنات
وأعجب كيف يعيش امـــرؤ — خليا : وزهر الدجى عاشقات
ألست تراها تلظى جـــوى — وترنو إلى صحبها غامـزات؟!
أيروى الجمال الثرى والسمــا — وما بين جنبيك أرض موات ؟
تمتع خليلى بضم الغصـــون — وشم الأزاهير قبل الفـــوات
فأن الربيع شباب الزمـــان — وإن الشباب ربيع الحيـــاة
وأن الحياة — على خبثهـا — لتحوى كثيراً من الطيبـات..

وهناك ديوان آخر من الدواوين التى تحمل فى عنوانها اسم الربيع ، ولكنها لا تحمل فى قصائدها قطعة واحدة عن الربيع . وهو ديوان (أول الربيع) للشاعر اللبنانى رشدى معلوف ، ففى قصائده عاطفيات وغزليات وتأملات ، ولكن ليس بينهن قطعة واحدة للربيع ويبدو أن تسمية الديوان باسم أول الربيع تحمل الدلالة على أن شعر هذه المجموعة هو من بواكير ما نظمه الشاعر فى ربيع عمره ولكنه عنوان يحمل أحرف لفظة « الربيع » الجميلة على أى حـــال !

واستأثر فصل « الخريف » بتسمية بعض دواوين من الشعر المعاصر ،

---

(١) شاء الله أن يموت صديقنا فرحات فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٧٦ !

هى ديوان (الخريف) للشاعر المهجرى إلياس فرحات ، وهو مطبوع بسان باولو بالبرازيل و (أوراق الخريف) للشاعر المهجرى الشمالى ندرة حداد ، شقيق الأديب الصحافى المهجرى عبد المسيح حداد صاحب جريدة السائح النيويوركية التى أنشئت سنة ١٩١٢ ، واحتجبت نهائيا سنة ١٩٥٧ ، وقد صدر ديوان (أوراق الخريف) سنة ١٩٤١ عن مدينة نيويورك وثالث الدواوين التى سميت باسم الخريف هو (أوراق الخريف) للشاعر الكبير المرحوم عزيز أباظة ، وهو ليس ديوانا للشعر إلا على سبيل التجوز ، ولكنه مسرحية شعرية تدور حول مسائل معاصرة ، لا حول أحداث تاريخية قديمة كما عودنا الشاعر عزيز أباظة أما رابع هذه الدواوين الخريفية فهو (رقصات الخريف) للشاعر العراقى يوسف أمين قصير ، ويضم شعره من سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٧٣ ولم يجر فيه الشاعر على نهج واحد بل جعله مزيجا من الشعر العمودى والحر

أما فصل الصيف فلم يختص فى المكتبة العربية إلا بديوانين ، هما : ديوان (الصيف) وهو ثانى دواوين الشاعر المهجرى إلياس فرحات ؛ وديوان (ليالى الصيف) للشاعر صالح بن حامد العلوى ، الذى سبق القول أن له ديوانا بعنوان : (نسمات الربيع) .

هذه هى دواوين الشعر العربى التى نسبت إلى الربيع فى كثرتها ؛ وإلى بعض فصول العام فى قلتها ؛ مع ملاحظة أن الشعراء تحاشوا نسبة « الشتاء » إلى دواوينهم . ولعل برودة الشتاء ذكرتهم ببرودة الموت الذى يفر الشعراء منه إلى دفء الحياة . !

ويسوقنا الحديث عن تسمية الدواوين بأسماء الفصول ، إلى الحديث عن تسمية الكتب عامة بها . وخاصة فصل « الربيع » الذى وجد له فى المؤلفات العربية متسعا من التسمية ومنها كتاب (سلوة الحريف ، بمناظرة الربيع والخريف) الذى صدر عن مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ ، ب وهماً إلى الجاحظ ، وهو قطعاً ليس له . لأن أسلوبه وطريقة

سجعه وزخارفه اللفظية ليست من مذهب الإمام الجاحظ ولا من مزاج عصره ، ولأن فيه شعراً فى الربيع لشعراء ولدوا بعد وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، فكيف يتفق هذا أو يصح إلا أن يكون الكتاب معزواً إليه ، ومنسوبا له على غير صحة ؟

ومن كتب المجال الربيعى فى التسمية كتاب : (ربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار) للإمام اللغوى الأديب الزمخشرى ، صاحب « أساس البلاغة » وتفسير الكشاف » ، وهما مشهوران .

وربيع الأبرار هو حكايات ونوادر عن الحكماء والأدباء فى فنون مختلفة ، وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٢ هـ . وله مختصر سمى (روض الأخبار) ، كما أن له مختصراً آخر عنوانه (أنوار الربيع) وقد أشار إليهما حاجى خليفة صاحب (كشف الظنون) كما أن هناك كتاب (ربيع الجنان ، فى المعانى والبيان) لحسام الدين الأبيوردى المتوفى سنة ٨١٦ هـ . وكتاب : (ربيع القلوب ، وروح الغيوب ، فى ذكر أسماء المحبوب) ، ولم يذكر لنا حاجى خليفة اسم مؤلفه . .

ومن كتب هذا المجال أيضاً كتاب (رحلة الربيع) للدكتور طه حسين ، و (رحلة الخريف) للأستاذ توفيق الحكيم ، و (رحلة الربيع) للأديب السعودى فؤاد شاكر ، وكتاب (الربيع فى الأدب والحياة) للشاعر الصديق مصطفى عبد الرحمن ، و (أمراض الصيف) للطبيب الدكتور أنيس فهمى ، وكتاب : (رحلة صيف) للكاتب الصحافى توفيق حبيب الذى اشتهرت مقالاته الموجزة اللماحة فى صحيفة الأهرام باسم « هوامش الصحافى العجوز » ، وكان دائرة معارف متنقلة وكتابه هذا يصور رحلة فى فصل الصيف إلى شرق أوربا وتركية ، كتبها بأسلوب ممتع طريف ، ونظرات ذكية لماحة .

ومن معجزات « الربيع » الكبرى أنه لم يكتف بأن ينطق المبصرين من الشعراء بروائع الشعر فى تحيته ووصفه ، بل أنطق حتى المحرومين نعمة البصر فهذا شاعرنا أبو العلا المعرى يعرف يوما أن صديقا له قد تأهل

فى مطلع الربيع ، وأن عرس صديقه قد اقترن بمباهج الربيع وطلائع نواره ، وائتلاق أزهاره ، كأنهما كانا على موعد ، فانتهز الشاعر الفيلسوف هذه الفرصة ، وهنأ صديقه — وكان أميراً مطاعا من أمراء العرب فى عصره — بقصيدة طويلة فى ديوانه (سقط الزند) ، عرج فى استهلالها على الإشارة إلى حلول الربيع قائلا

قد أتاك الربيع يفعل ما تـــأ مره فعل عبدك المأمـــــور
وكسا الأرض خدمة لك يا مـــو لاه دون الملوك خضر الحرير
فهى تختال فى زبرجدة خضرا ء تغذى بلؤلؤ منثـــور
وغدت كل ربوة تشتهى الرقص بثوب من النبات قصيـــر

إن المعرى لم يولد أكمه — كما ولد الشاعر بشار — ولكنه عمى وهو صغير إثر إصابتـــه بالجدرى ، فبقيت فى ذهنه اللماح صور من الربيع ، وصفها بهذه الأبيات المرقصة ، حتى أصبحت كل ربوة تشتهى الرقص عما عليها من ثياب الأزهار القصيرة ، لأنها لا تزال نامية فى مطلع الربيع

وإذا كان المعرى قد أتيح له أن يرى الربيع وهو طفل قبل أن يكف بصره : فأن الشاعر بشار بن برد — وقد ولد أعمى — قد استغنى عن حاسة النظر — للاستمتاع بالربيع — بحاستى السمع والشم ، ومن هنا لم يفته أن يستقبل موكب الربيع الحاشد أكرم استقبال حين قال

أشم ريح الخزامى من مطالعهـــا فتملأ القلب أشواقا وأشجانـــا
جاء الربيع ولم أعلم بمقدمـــه حتى سمعت لسرب الطير ألحانا !

وليس غريبا على بشار أن يرى بعين خياله وعقله وتخيله ما لا يراه الناس بعيون محاجرهم ، أليس هو القائل فى وصف معركة سمع بها ولم ينظرها

كأن مثار النقع فوق رؤوســنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـــه

واستقبال الربيع يستحضر فى الذهن المقابلة بين وجهه الضاحك المشرق ،

وبين وجه فصل كالخريف الذى يعتبر تجهمه نذيراً بتجهم الشتاء من بعده . ففى أواخر الخريف يختفى سر الربيع الساحر كما يختفى جناح الصباح فى جنح ليل مظلم . وفى الخريف يطوف الذبول والتجهم على الربيع بعد نضارة الربيع ومرحه وإلى هذا المعنى يشير صديقنا الشاعر الإسكندرى « أدوارد حنا سعد » فى قوله

طير مروعة ، وخفق ريـــاح — وخمائل مهجـــورة الأرواح
صفراء عاطلة ، تجرد عطفهـــا — من ورد منطقة ، وزهر وشاح
طاف التجهم والذبول على الربى — بعد الربيع الناضر المـــراح

ومع حنق الشاعر إدوار حنا من تجهم الخريف فأنه كان عف اللسان معه فلم يصب عليه جام غضبه ، كما فعل — مثلا — الشاعر المصرى ابن وكيع التنيسى الذى اشتهر بأرجوزته فى وصف الفصول الأربع .

ومن الشعراء من رأى أن فى الخريف متعة لا يجوز أن تفات ، وأنه قنطرة ومجاز من الصيف الحار إلى الشتاء البارد الموجب للقصف واللهو ، كالشاعر أبى بكر الصنوبرى المتصل ببلاط سيف الدولة بن حمدان ، فهو يدعو فى مقطوعة فائية إلى عدم إضاعة فرصة المتاع بالخريف .

وهكذا نجد شعراء لا يؤثرون فصلا على فصل ، ولا يضيقون بفصل دون فصل ، بل يجدون فى كل فصل من الفصول الأربعة لذة خاصة ، ومذاقا خاصا ، كما عبر الشاعر المهجرى رشيد أيوب .

ولا بد أن نقول أن الربيع بوجهه الطلق السمح كان موضع اهتمام كثير من الشعراء منذ العصر الجاهلى إلى اليوم ؛ وإذا كان الشاعر القديم قد يعجز أن يقول شيئاً فى وصف الربيع ، فلا أقل من أن يستعيره لتشبيه جميل أو استعارة حسنة كما قال الشاعر فى ممدوحه

وأنت ربيع ينعش الناس سيبـــه — وسيف أعيرته المنية قاطـــع

والشعراء الذين ذكروا الربيع أو ألموا به ، أو طافوا بمحرابه لا يحصون

كثرة . وما نحن هنا بسبيل إحصائهم أو حصرهم ، فأن هذا مطلب يقف دونه الجهد ولكنهم بحمد الله يملأون أوراق ديوان الشعر العربى ورقة ورقة ، ومنهم عبد الله بن الدمينة ، وابن الطثرية ، والمتنبى ، وبشار ، وأبو تمام ، والبحترى وابن المعتز وابن الرومى وأبو نواس ، وابن خفاجة ، وصفي الدين الحلى ، وفتح الله بن النحاس فى القديم ، والبارودى ، وشوقى ، وأبو شادى ، والعقاد ، والمازنى ، وناجى ، والهمشرى ، وأحمد مخيمر ، ومحمود غنيم ، والعوضى الوكيل ، وكمال نشأت ، ومحمد زيتون ، وروحية القلينى ، ومصطفى عبد الرحمن ، وأدوار حنا سعد ، وأمين نخلة ، وصلاح الأسير ، والشابى ، وعبد القادر الناصرى ، وعمر أبو ريشة ، وأنور العطار وغيرهم من شعراء العصر الحديث

ولا تزال ترن فى آذاننا أصداء من أنغام عذبة تتجدد بتجدد الربيع كل عام وهى باقية حاضرة لا يخطئها الاستشهاد والاستحضار فى مقام التحدث عن شعراء الربيع ، كرائية الشاعر أبى تمام التى يقول فيها

يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمسا قد زانه ... زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فأنما هى منظر

وكالقصيدة الميمية للبحترى التى يقول فيها

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من البشر حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوما

وكأرجوزة الشاعر ابن الرومى التى يقول فيها

أصبحت الدنيا تروق من نظر ... بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر ... فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار ، زهراء الزهر ... تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

إلا أن هناك من هذا السيل المنهمر من شعراء الربيع ثلاثة أو أربعة ،

لم يكتفوا بالإلمام بالربيع أو الطواف بهيكله ، بل أطالوا العكوف على محرابه ، وأكثروا الترنم بالشعر فيه : كأنهم يسبحون بحمده ، أو بحمد الله الذى أطلعه.
ومنهم ابن وكيع التنيسى الشاعر المصرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وقد وقف شعره كله — تقريباً — على الزهر والخمر ، وأبو بكر الصنوبرى شاعر سيف الدولة الحمدانى ، الذى قصر شعره على الأزهار والرياض ؛ وجمع المرحوم الشيخ محمد راغب الطباخ جزءاً من ديوانه باسم (الروضيات) ؛ والشاعر العراقى صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ؛ وكان أشعر أهل زمانه بلا خلاف بين مؤرخى الأدب ، وله نونية فى الربيع كما له فيه أيضاً قصيدة معروفة يقول فيها

ورد الربيع فرحبا بــوروده وبنور بهجته ونــور وروده

ويلاحظ أنه كثير الاهتمام فى شعره بالحلى البيانية والبديعية .

أما رابع شعرائنا العاكفين على عبادة الربيع فهو الشاعر ظافر الحداد الإسكندرى المنشأ والإقامة اليمنى الأصل وقد عاش فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر ، ومدح وزيره الأفضل بن بدر الجمالى ولظافر الحداد فى الربيع شعر كثير وكان حنينه — وهو مقيم بالقاهرة — إلى الإسكندرية من أجل ربيعها المزهر وكأنما نصب « ظافر » نفسه ليكون دائماً مؤذنا بحلول الربيع ، حيث تسمع له فى كل موسم مثل قوله

جاء الربيع أخو حياة الأنفــس ومجمل الدنيا بأفخر ملبــــس
فاغنم بنا ملح الزمان مبـــادراً وتمل منها حظ من لم يبخس
واستقبل الأرج المعطر كلمـــا مرت عليه الريح كالمتنفــس

وعلى حين كان يهتم كثير من الشعراء فى القديم والحديث بالتصوير المادى ، والوصف الحسى للربيع . فكانت لوحاتهم للربيع صوراً منقولة عن الطبيعة وكأنها نسخ لها فأنا نجد بعض الشعراء المحدثين لم يكتفوا بهذه الصور المعادة المكرورة ، بل جروا مع الشعراء الغربيين ، فكشفوا عن آثار الربيع

فى نفوسهم ، وصوروا لنا أحاسيسهم بالربيع ، وتجاوبهم معه ، ومعايشتهم له ، كالذى نجده عند صديقنا المرحوم الشاعر أحمد مخيمر الذى يقول

هذا الربيع الذى أراقبـــه ليس ورودا وليس أشجـــارا
ولا نسيما إذا سرى هتفـــت حمائم ضحوة وأسحـــاراً
لكنه فتنة الوجود غـــدت تكشف عنه للروح أســـراراً
وحكمة فى الغصون رائعـــة يحسبها الناظرون أزهـــاراً

وعلى حين كان بعض شعرائنا يبكون ربيع حياتهم الذى نأى عنهم ، فلا يهتزون بمقدم فصل الربيع كالشاعر المهجرى رشيد أيوب الذى يقول

يقولون قد جاء الربيع فقم بنـا لنصرف أوقات السرور على أمن
فقلت دعونى أصرف العمر بالبكا فأن ربيعى فى الحياة نأى عنى

فأننا نجد — فى الوقت نفسه — بعض شعراء آخرين يحسون حياتهم ربيعا دائما ، فهم لا يخافون خريفا ، ولا يهابون شتاء ، مثل شاعرنا المرحوم صالح جودت الذى يقول

يا حلوة العشرين لا تفزعـــى من همسة الخمسين فى مسمعى !
أنا شباب سرمدى المـــدى أنا ربيع دائم المطلـــع !

و (همسة الخمسين) هنا من لمحات الصديق صالح جودت الذكية ، فنذير الخمسين هو فى أذنه كالهمس الخفيف لأنه لا يراع بالسن ، ولو كان غيره من شعراء التخوف من السنين ، لقال (صرخة الخمسين) أو (رجفـــة الخمسين) . . .

جعل الله أيام أصدقائى القراء ربيعا دائما .

روح النقد والتذوق الشعرى عند

ابن هشـــــام

لقد جمع ابن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة بين التاريخ والسير والمغازى من ناحية ، وبين اللغة والشعر والأدب من ناحية أخرى وهو جمع ظهر لنا أثره فى سيرة الرسول التى لخصها وهذبها عن المؤرخ النسابة محمد بن إسحاق .

ولم تصل إلينا السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق كاملة . ولكنه أملاها على تلميذه زياد البكائى المتوفى سنة ١٨٣ هـ وكان زياد هذا أضبط تلاميذ ابن إسحاق ، وأتقن من روى سيرة الرسول عنه ، فجاء عبد الملك ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، فروى عن زياد البكائى السيرة التى أملاها ابن إسحاق ، ثم رأى أن يجمعها فى كتاب بعد تلخيصها وتهذيبها فكان لنا من ذلك السيرة المشهورة بسيرة ابن هشام فى أجزائها الأربعة .

ونلاحظ ونحن نقرأ سيرة ابن هشام أن فيها أشعاراً كثيرة مما قيل فى الجاهلية وصدر الإسلام لا يطمئن ابن هشام إليها ولا يؤمن بصحتها وينبه على الخلط فى نسبتها إلى أصحابها ، أو ينكر معرفة أهل العلم بالشعر لها وكأنه بهذا لم يكتف أن يكون مؤرخا وراوية للأخبار وحسب ، ولكنه يضيف إلى المعرفة بالتاريخ والمغازى المعرفة الوثيقة بالشعر والنقد والتذوق الأدبى .

وليس كل المؤرخين فى تاريخ العرب والإسلام ، قديما وحديثا ، على هذا النحو من الجمع بين المعرفة التاريخية ، والمعرفة بالأدب والشعر والقافية معا . ولسنا نطلب من المؤرخ أن يكون أديبا أو لغويا أو شاعراً ، ولكنا نطالبه بأن يتذوق النصوص التى يرويها — شعراً كانت أم نثراً — وأن يحكم على صحتها من ناحية الذوق الأدبى ، كما يحكم عليها ويقيمها من ناحية التاريخ

ولقد كان الحافظ المؤرخ ابن كثير ، صاحب كتاب (البداية والنهاية) فى التاريخ غير عالم بالشعر ولا منصرف إليه قدر انصرافه إلى التاريخ والحديث

النبوى ومن هنا لم يهتم بتحقيق الشعر الذى رواه فى تاريخه الكبير ، فأنه — مثلا — نسب إلى الشاعر الفرزدق أبياتا فى رثاء الخليفة الشهيد عثمان بن عفان مع أنها لم تأت فى ديوانه ، ، ولم يعن ابن كثير بتحقيق نسبتها إليه .

وما لنا نذهب فى التمثيل بعيداً ؟ فأن ابن إسحاق نفسه ، الذى جمع ابن هشام سيرته فى الرسول عليه السلام ولخصها وهذبها ، لم يكن ذا بصر فى الشعر ولا علم به ومن هنا تسربت إلى السيرة التى كتبها ابن هشام أشعار كثيرة لم ير الرجل — وهو عارف خبير بالشعر — أن يسكت عنها أو يصمت عن التعليق عليها مما سيأتى ذكره عما قليل .

ونحن لا نتجنى على ابن إسحاق حين نصفه ، فقد نعته النقاد من قديم بالجهل بالشعر جهلا يبلغ حد الغفلة أو التغفل ، حتى قال فيه محمد بن سلام الجمحى صاحب كتاب « طبقات الشعراء » (أنه ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه) ولم ينكر ابن سلام الجمحى علم الرجل بالمغازى والسير فقال فيه كلمة الحق ، ثم زاد عليها بقوله : (فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذراً) .

والحق أن ابن إسحاق لم يحقق الشعر الذى جاء به فى السيرة والمغازى ، فنسب شعراً إلى رجال لم يقولوا شعراً قط ولا عرف الشعر عنهم . ونسب أشعاراً إلى نساء لم يعرفن بقول الشعر ، بل نسب إلى قوم من العرب البائدة — من أمثال عاد وثمود — أشعاراً كثيرة ولم تكن شعراً — كما قال ابن سلام — وإنما هى كلام مؤلف معقود بقواف . وقد لامه ابن سلام الجمحى لوما بالغا حين قال عنه (أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟)

وحمل ابن النديم — صاحب الفهرست — على ابن إسحاق المؤرخ حملة شديدة فى هذا الصدد ؛ قائلا بأنه ضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر . وردد المؤرخون والنقاد ورجال التاريخ الأدبى هذه الأقوال ، وكان آخرهم مؤرخنا الحديث جرجى زيدان

وعلى الضد من ذلك كان عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية التى جمعها من سيرة محمد بن إسحاق . فقد كان الرجل عالما بالشعر ، واللغة ، وله كتاب فى شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب كما يذكر ابن خلكان الذى وصفه فى وفيات الأعيان — نقلا عن السهيلى صاحب « الروض الأنف » — بأنه كان متقدما فى النحو

ومن هنا كان العبء الذى ألقى على كاهل ابن هشام ثقيل المحمل ، فأنه حين تصدى لجمع السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق ، رأى — أمانة للعلم — أن يحقق ما جاء فيها من الشعر ويرده إلى الصواب . ويضبط نسبته إلى أصحابه ، فاتبع منهجا قويماً

ونلاحظ من مطالعاتنا المتكررة لسيرة ابن هشام أنه إذا كان واثقا من الشعر الذى رواه ابن إسحاق فأنه يرويه قائلا (وهو من قصيدة أو أرجوزة للشاعر) مما يؤكد أن الشعر لصاحبه فإذا شك فى الشعر المروى علق قائلا مثل هذه العبارة (الشعر الذى فيه هـذا البيت مصنوع ، فذلك الذى منعنا من إثباته)

وأحيانا كثيرة نجد ابن هشام يروى الأشعار ثم يعلق عليها بقوله (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر .) كما فعل فى تعليقه على مراثى بنات عبد المطلب بن هاشم — جد النبى عليه السلام — لأبيهن ، فقد قال قبل أن يسطره فى روايته (ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر إلا أنه لما رواه محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه) . وكما فعل فى تعليقه على مرثية على بن أبى طالب اللامية لشهداء بدر فقد قال (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها)

وكثيراً ما يصادفنا فى سيرة ابن هشام تعليقه على الشعر المروى بمثل هذه العبارة (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة له) كما نجده فى مواطن كثيرة من أجزاء كتابه الضخم وأحيانا يعدل عن لفظ الإنكار إلى لفظ الشك : كقوله معقبا على شعر منسوب إلى الإمام على بن أبى طالب (وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب)

ولا يكتفى ابن هشام بتصحيح ما جاء فى السيرة من شعر ، أو تصحيح نسبته لقائله ، بل كثيراً ما نراه يصحح المناسبةالتى قيل فيها الشعر ، كالأرجوزة التى نسبت للشاعر عبد الله بن رواحة يوم عمرة مكة ، فأنه يقول معقبا عليها (الأبيات لعمار بن ياسر فى غير هذا اليوم . والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين ، والمشركون لم يقروا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل . . .) .

وقد يزيد ابن هشام نسب الشاعر إيضاحا ، بما يزيد القارىء معرفة بالشاعر ، أو يصفه بما يزيد التعريف به فحين روى عن ابن إسحاق شعراً لخالد بن زهير الهلالى عقب عليه بقوله : (وهو ابن أخى أبى ذؤيب الهذلى) ؛ وهو هنا يعرف شاعراً مغموراً بشاعر مشهور

وأحيانا يغفل ابن إسحاق اسم الشاعر الذى يروى له الأبيات غفلة منه أو جهلا به ، وهنا نجد مؤرخنا ابن هشام يذكر اسم الشاعر فقد روى ابن إسحاق بيتين من الشعر قائلا (وقال شاعر من العرب) ، وهنا عقب ابن هشام بقوله (وهذان البيتان لأبى خراش الهذلى) ، ولم يكتف بهذا أى بكنية الشاعر فزاد قائلا واسمه خويلد بن مرة وفى موضع آخر من السيرة يروى ابن إسحاق شعراً يقدم له بقوله (قال القائل) فيعلق ابن هشام بقوله (أنشدنى أبو عبيدة هذه الأبيات لعامر الخصفى خصفة ابن قيس بن عيلان) .

وقد جرى ابن هشام مؤرخ السيرة على رواية الشعر فيها بطريق الرواية والإسناد لفلان عن فلان ، كما يفعل الأثبات من رواة الحديث النبوى ففى قصيدة مروية لكعب بن مالك رضى الله عنه يقول ابن هشام (أنشدنى من قوله « نمضى ويذمرنا » إلى آخرها أبو زيد الأنصارى) ، ونلاحظ أن أبا زيد الأنصارى هذا كان من أكثر رجال الإسناد الشعرى الذين روى عنهم ابن هشام ، ومنهم المفضل الضبى شيخ أبى زيد ، وأبو عبيدة ، وأبو محرز خلف الأحمر .

وقد ينسب محمد بن إسحاق الشعر أو القصيدة لشاعر ، فيجيء ابن هشام ويزيد بأن هذه القصيدة لهذا الشاعر ، وقد تروى لشاعر آخر غيره يذكر اسمه . كالأبيات الميمية التي نسبها ابن إسحاق إلى قيس بن الأسلت . فقد عقب عليها مؤرخنا ابن هشام قائلا (وهذه الأبيات في قصيدة له . والقصيدة أيضاً تروى لأمية بن أبي الصلت) ونجد مثل هذا كثيراً في مواطن كثيرة من سيرة ابن هشام .

وبلغ من اهتمام ابن هشام بما جاء في سيرة محمد بن إسحاق من شعر أنه يُعنىٰ نفسه بتصحيح ألفاظ الشعر وعباراته عن طريق الرواة الذين يطمأن إلى روايتهم . كما يذكر ما جاء في الشعر من روايات مختلفة . كما نجده في شعر الزبير بن عبد المطلب . وشعر أبي ذؤيب الهذلي . وشعر ضرار بن الخطاب ، وشعر أبي قيس بن أبي أنس بل نراه أحيانا ينشد الشعر أو القصيدة المروية عن ابن إسحاق ، ثم يعيد نشرها صحيحة مستوية كما فعل في مرثية أمية ابن أبي الصلت لزمعة بن الأسود . فقد علق عليها بقوله (هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء) ثم أعاد روايتها صحيحة عن خلف الأحمر .

وإذا وجد ابن هشام عيبا عروضيا في القافية فإنه لا يسكت عن الإشارة إليه فحين نقل رواية ابن إسحاق لشعر الأسود بن المطلب في رثائه لأبنائه الذين قتلوا في غزوة بدر . علق على البيت الأخير منها قائلا :(هذا إقواء) والإقواء في الشعر هو اختلاف حركة الروى . وهو عيب من عيوب القافية . وأحيانا ينبه ابن هشام إلى ضرورة قراءة الشعر قراءة صحيحة . بتحريك الروى أو إسكانه ، حتى لا يكون مخالفا لعلم العروض والقافية

وبلغ من تذوق ابن هشام للشعر الذي جاء في السيرة أنه أحيانا لا يقف صامتا أمام نص شعرى أعجبه . أووجد فيه مذاقا سائغا فهنا لا يتردد الرجل عن التعليق بجملة أو عبارة تدل على تقييمه لهذا الشعر وحسن تذوقه له ففي قصيدة حسان بن ثابت الميمية التي يذكر فيها أصحاب اللواء يوم غزوة

أحد نجد ابن هشام يقيم هذه الأشعار بقوله (هذه أحسن ما قيل)
وهو تعليق يدل على أن الرجل قد تتبع كل ما قيل فى هذه المناسبة من شعر ، ثم وازن بينها جميعا ، وخرج بهذه النتيجة التى انتهى إليها ، وهى نتيجة نتفق فيها مع هذا المؤرخ الأديب الذواقة ، ويتفق معنا فيها كثير من الناقدين البصراء بالشعر العربى الجميل .

وبلغ من تخل ابن هشام للشعر الذى جاء فى السيرة النبوية والمغازى أنه كان فى كثير من الأحيان يترك رواية بعض الشعر لسبب أو لآخر ، كالأقذاع الذى أراد أن ينزه كتابه ولسانه وسيرة الرسول عن روايته كتعليقه على ما ذكره من أبيات أبى طالب فى هجاء من خذله من قريش بقوله (تركنا منها بيتين أقذع فيهما) . وأحيانا يترك رواية بعض الشعر بلا سبب يذكره ؛ كقوله معقبا على قصيدة أخرى لأبى طالب بن هاشم عم النبى عليه السلام (بقى منها بيت تركناه) وأحيانا تعطفه عاطفة الحب والإجلال للنبى محمد وصحبه ، فيترك من قصيدة رواها بعض الشعر الذى يمس أصحاب الرسول ، كما فعل فى حائية الشاعر أمية بن أبى الصلت التى قالها يوم بدر معلقا بقوله (تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأحيانا كان يسقط بعض الشعر ويحذفه مخافة الأكثار ، كما فعل فى قصيدة لأبى أسامة معاوية بن زهير قائلا (تركت قصيدة لأبى أسامة كراهية الإكثار) ، وأحيانا كان يترك أبياتا من قصيدة (لقبح اختلاف قوافيها ...) ، وكأنه يتحرج من رواية الشعر الضعيف أو القبيح .

وهكذا نرى أن ابن هشام صاحب السيرة النبوية ، كان مؤرخا ، وكان لغويا ، وكان ذواقة وناقدا للشعر من طراز رفيع .

مثال من صبر العلماء

منهج العماد فى جمع الشعر

يعد كتاب « خريدة القصر ، وجريدة العصر » للكاتب الأديب الشاعر ، مدبر الممالك والدول « العماد الأصبهانى » ، عملا رائعا جليلا فى حفظ جمهرة كبيرة من الشعر العربى والشعراء فى القرن السادس الهجرى من الضياع الذى قد يتعرض له الشعر والشعراء فى عصر من العصور .

ولم يكتف « العماد » بحفظ الشعر والشعراء فى بقعة واحدة من الوطن العربى الكبير دون أخرى . بل وجه أنظار عنايته . وشد رحال عزمته إلى أصقاع الأرض العربية كلها ما بين مشرق ومغرب — أو كما نقول اليوم من المحيط إلى الخليج — فجمع فى موسوعته الشعرية الضافية أشعاراً كثيرة من الأندلس ، والمغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق .

ولقد تنبه العرب اليوم بحمد الله إلى قيمة هذا الكتاب الضخم ، فنصوا عزائمهم إلى نشره محققا مضبوطا مشروحا ، من النسخ الخطية التى ألقاها الزمان منه فى مكتبات الشرق والغرب . فأصدرت تونس شطر أصالحا مما يخص الأندلس والمغرب وكذلك فعلت مصر ، والشام، والعراق فيما يخص أشعار شعراء كل واحدة منها

ولقد صدر من القسم العراقى للخريدة حتى اليوم ثلاثة أجزاء ضخام هى الأول والثانى ، والرابع بمجلديه الكبيرين . أما الجزء الثالث — وكان حقه الطبيعى . وترتيبه الزمنى أن يصدر قبل الرابع — فقد تأخر نشره — كما يقول محقق الكتاب كله صديقنا العلامة الباحث الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثرى عضو المجامع اللغوية العربية — لاستكمال تحقيق بعض جوانبه

ولم يكن العماد الأصبهانى فى عمله العظيم فى (الخريدة) سابقا ، ولا رائد طريق . لقد سبقه بعض الذين استشعروا دينهم على أمتهم العربية بجمع شعرائها وشعرهم فى فترة معينة من فترات تاريخها فهنا جمع شعرى لعصر كامل أو لقرن معين ، وليس جمعا عاما للشعر والشعراء فى حقب من التاريخ متلاحقة — كما فعل ابن قتيبة — مثلا — فى « الشعر والشعراء »

لقد سبق إلى مثل هذا الجمع الشعرى الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » ، والباخرزى فى كتابه « دمية القصر » ، والحظيرى الكتبى فى كتابه « زينة الدهر وعصرة أهل العصر » الذى جمع فيه طائفة من أهل عصره ومن تقدمهم ، وروى أشعارهم وأخبارهم على أن العناية بمثل هذا الجمع القرنى — أو العصرى — للشعر العربى قد قلت بعد هؤلاء الرواد الطلائع ، إلى أن جاء الشهاب الخفاجى ، والمحبى ، فأحييا هذه الطريقة فى كتابيهما : « الريحانة » ، و « النفحة » اللذين يعدان حديقة حالية للشعر العربى فى القرنين العاشر والحادى عشر ولعل قلة الاهتمام بالشعر فى عصور الانحطاط التاريخى ، والتدهور الحضارى للعرب والإسلام ، كانت عاملا من عوامل إهمال المجموعات الشعرية « القرنية » التى لم يتجه إليها عزم الباحثين والمؤلفين .

أما فى عصرنا هذا ، فقد أغنت دواوين الشعراء المطبوعة ، وأغنت حركة الطباعة والنشر ، وأغنت الصحف والمجلات الأدبية التى تخص الشعر باهتمامات خاصة ، عن هذه المجاميع الشعرية ، إلا ما كان من مثل ما صنعه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية — فى مصر — من إصدار مجموعات صغيرة من الشعر العربى الحديث على هيئة مختارات تضم أشعاراً لبعض شعرائنا المعاصرين وطائفة من تراجمهم اليسيرة ، التى قد تهدى وتعرف تعريفاً خاطفاً كاللمح ، ولكنها لا تدخل فى التفاصيل ، قدر ما تعطى نقطا يسيرة عن كل شاعر اختير له فى المجموعة . والحق أن جمع الشعر وتسقط الأخبار والآثار عن الشعراء هو عملية قد يعيا بها المرء والظروف مواتية ،

والمناسبة ملائمة ، والوسائط ميسورة ، والوسائل موفورة فما بالك ، أيها القارىء الكريم إذا كان جامع هذه الأشتات رجلا قابعا فى بلدة من العراق مثل « واسط » أو « بغداد » ، لا يملك هاتفا ، ولا سيارة ، ولا وسيلة من وسائل الاتصال السريع ، والنقلة العاجلة . غير ظهر دابة أو مطية قد ينقطع بها الطريق ؟

وما بالك إذا كان جامع هذه الأشتات وضام هذه الأخبار ، ومؤلف هذه الشذرات . رجلا كالعماد الأصبهانى ، ناب عن الوزير « عون الدين ابن هبيرة » فى أعماله بواسط ، أو اتصل بالسلطان المجاهد البطل « صلاح الدين الأيوبى » صلة قرب والتصاق ، يكتب له . ويدبر المملكة عنه ، ويدير دولته . ويصرف أموره ، ويشير عليه بالذى فيه الخير ، ويؤلف الكتب فى سيرته ، وفى الحروب الصليبية التى خاض غمارها ؟ ؟

الحق أن هذا العمل فى جمع المادة الشعرية لكتاب متخصص مثل « الخريدة » يعد عملا تنوء به العصبة أولو القوة ، وتعيا به الجماعة من الجماعات ، أو اللجنة من اللجان ، فما بالكم إذا نهض به فرد كثير المشاغل ، وأجزأ فيه إنسان متعدد الشواغل ؟ لا يكاد يستقر بأصبهان يقرأ « دمية القصر » للباخرزى ، حتى ينتقل إلى بغداد ، فواسط ، ففلسطين قلب الأمة العربية الإسلامية الخافق فى ذلك الحين وفى كل حين ؟

ولقد كان للعماد الأصبهانى فى جمع تلك المادة الوافرة طرقه الخاصة ، ووسائله المتعددة ولعله اعتمد أول ما اعتمد ، على أن ينشده من التقى به من الشعراء أشعارهم وهذه هى الطريقة المباشرة فى الرواية والتلقى ، وبها تنضبط الرواية وتتحقق ولا يفسدها تحريف الرواة من ناحية أو تصحيف النقل من ناحية أخرى ولا ننسى أنه كان فى ذلك العصر « راوية للشعراء » ينوب عنهم فى الإنشاد بين يدى الكبراء والعظماء كما كان

بصنع الأديب المقرىء « ابراهيم بن المبارك » فى بغداد على عهد العماد الأصبهانى ، وكما يرويه عنه فى كتابه — ص ٢٢٨

وبلغ من اهتمام « العماد » بلقاء الشعراء للرواية عنهم إنشاداً من شعرهم أنه لما جاء بغداد سأل عن الأديب الشاعر « عبدالسيد الواسطى » الذى كان قد أنشد بعضهم شيئاً من شعره فى أصفهان فلم يعرفه أحد من أهل بغداد — ويظهر أنه كان شاعراً مغموراً — حتى أنشده بعض شعره بعض النصارى العطارين ببغداد يقال له « ابن تومة » ، وكان « العماد » جالساً بدكان عطارته ، وذكر له أن « الواسطى » كان شيخا إسكافيا ببغداد — ص ٣٥٩

وما أكثر ما كان الشعراء يتسابقون إلى لقاء « العماد » أينما حل ، أملا أن يحظوا بروايته لما ينشدونه من أشعار وطبيعى أن يعلموا أنه كان على نية أن يجمع كتابا فى الشعر والشعراء المعاصرين ، فلم يحجموا عن قصده بالزيارة . ويحدثنا هو عن الرئيس « أبى الفرج السوادى الواسطى » الشاعر الهجاء فيقول : (بينى وبينه فى النظم والنثر مداعبات ومكاتبات وما حضرت « واسط » إلا وجدته سابقا إلى الزيارة ، شائقا بحسن العبارة ، أو لطيف الاستعارة) — ص ٣٧٠

وما أكثر ما كان الشعراء يطلبون من « العماد » أن يكتب أشعارهم ويدونها بيده ، ويسجلها بخطه ، خشية أن يذهب الزمان بحفظ الرواية ، فتبقى الكتابة. ونراه حين يحدثنا عن الرئيس الشاعر « أبى الفرج الواسطى » مرة أخرى يقول (وأنشدنى لنفسه ، وقد عدت إلى واسط فى سنة ستين وخمسمائة ، فى الولاية الوزيرية ، فحضر عندى ، فعرضت عليه هذه الأبيات التى أثبتها له ، فقال إن كنت تثبت لى شعراً فاكتب لى هذه القطعة فى استزادة الماء . .) ص ٣٩٧ ، ثم أورد العماد القطعة بعد ذلك

وكثيراً ما كان « العماد » يسمع إنشاد الشعراء لأشعارهم أمامه وبحضرته ،

أو يسمع أشعارهم ينشدها غيرهم فى مجلسه . وبهذا يجمع فى الرواية بين إنشاد الشاعر نفسه . وبين إنشاد غيره له . وما فى ذلك بأس مادام هدفه أن يحصل على الشعر من أى طريق . إلا أن طريقة الإنشاد المباشر من فم الشاعر المروى عنه أصح ضبطا ، وأكثر دقة وأسلم عاقبة من روايات قد يدخلها التغيير والتبديل .

وكثيراً ما تتأتى رواية الشعر عند « العماد » من باب « الشيء بالشيء يذكر » فقد زاره مرة صديقه القاضي « عبد المنعم بن مقيل الواسطى » ، وأسمعه « العماد » شيئاً من شعره هو فيما قاله عن « البق والبراغيث » فى ليلة بات فيها « بنهر دقلى » من فروع دجلة ، وهنا نشط القاضي عبد المنعم — من باب الشيء بالشيء يذكر — فأنشده رواية عن « ابن سلم » ، ما قاله « العدل بن مختيار » فى هذا الغرض نفسه . ص ٣٥٤

وقد يحفظ « العماد الأصبهانى » قصيدة على أنها لشاعر معين رويت له ، وأنشدها غيره إياها ، فإذا ما جاء مجال المحاضرة والمناظرة والمذاكرة الشعرية . روى « العماد » القصيدة على أنها لذلك الشاعر المعين : وإذا بشاعر من الجالسين الحاضرين فى الندوة يصحح نسبة هذه القصيدة إلى غيره ، ويؤكد أنها له هو فقد أنشد مرة قصيدة على أنها « لابن المنداثى » قاضى مدينة واسط ، فلما أنشدها هو بدوره للشاعر السوادى قال هى لى . لا له . . وبهذا صحح الوضع، وصححت الرواية لصاحبها الأصلى . ص ٣٩٥

ولم يبال « العماد » فى سبيل جمعه لشعر أهل عصره وشعراء زمانه ، أن يكون لقاؤه للشعراء أنفسهم ، أو للمنشدين والرواة فى أى مكان وعلى أية حال فى داره : أو فى السوق ، أو فى سوق الكتب ، أو على مدخل داره ، أو فى عرض الطريق ، أو فى دار وزير . فها هو ذا يروى شعراً « لأبى محمد العكبرى » وقد لقيه يوما ببغداد فى سوق الكتب عصراً ينشد لنفسه شعراً فى مدح الوزير الزينبى . فاستنشده فأنشده — ص ٢٤

وها هو ذا — مرة أخرى — يروى عن الشاعر « نصر بن محمد بن مبادر النيلى » شعراً فيقول (وأنشدنى لنفسه على باب داره بالنيل) — ص ٣٤٧ ، والنيل هنا نيل العراق لا نيل مصر

ولما كان « العماد » صاحب جاه فى العراق ، كما كان فى (قربه من البطل صلاح الدين الأيوبى) فقد كان ممدحا ، ومقصوداً من الشعراء خاصة ، للاستعانة بجاهه والإفادة من صنائعه ، ومن هنا كان يحفظ شعر مادحيه وقاصديه ويسجله استعداداً لجمعه فى « الخريدة » وقد عقد فى الخريدة فصلا فى آخر القسم العراقى لجماعة من شعراء « البصرة » قصدوه بالمدح ومنهم الفضل بن حمد بن سلمان ، الذى يقول فيه (لما وردت البصرة فى نيابة الوزير — يعنى عون الدين بن هبيرة — فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وخمسمائة كتب إلى

جمعت حجى ، وفضل نهى ، ورأيا
به فى الخطب يستورى الزناد
رعاك الله من وال مطاع
أمين الجيب يقدمه الرشاد
كريم الخيم محمود السجايا
له فى كل صالحة معاد
بلا منه الوزير على التدانى
صفاء لا يكدره البعاد
ونصحاً فى الأمور وصدق عزم
ورأيا بات يعضده السداد .

ص ٧٦٦

وللشاعر « الفضل » هذا مع العماد الأصبهانى مكاتبات شعرية غير قليلة ، هى نموذج من شعر الإخوانيات الرفيع وكان يجزع إذا ما تأخرت عنه كتب

العماد ، ظنا منه أنه أغفله أو أهمله أو أضاع مودته ، فيكتب إليه الشعر يلتمس منه صلته بالمكاتبة كقوله له مرة

جـــواب الكتـــاب كـــرد السـلا
م حـــق ، فقـــيم منعـــت الجوابـــا ؟
وأنـــت فـــتى ماجـــد مفضـــل
ينيـــل الأمانـــي ؛ ويدنـــي الطلابـــا
ونحـــن إمـــا أســـاء الرجـــا
ل صنعـــا ؛ وإن يـــدع يومـــا أجابـــا
وإن عـــدد القـــوم أحسابهـــم
وجدنـــاه أكـــرم قـــوم نصابـــا
وأوفاهـــم ذمـــة فـــي الـــورى
وأعلاهـــم مفخـــرا ، وانتسابـــا

وممن مدح « العماد الأصبهاني » من أهل واسط « أبو شجاع محمد بن القلانسي » ، وكان شابا « مقلقلا » كما يقول عنه « العماد » ، وقد جعلته الحاجة يستعدي بالعماد على الزمان فأعداه . وجبر كسره . ولكنه ضاق بالأيام فنطق بالشكوى إلى العماد قائلا

أشكـــو إليـــك مـــن الأيـــام حيـــث نبـــا
صـــبري ؛ وقـــل علـــى تصريفهـــا جلـــدي
ولســـت أعـــرف لـــي دنيـــا ســـوى سعـــة
في الفضـــل ضـــاق بهـــا صـــدري وذات يدي

ولقد استطاع « العماد » بحسن خلقه ، وكرم طبعه ، وسماحة نفسه وسعة مروءته ، وكثرة نخوته أن يكسب حتى قلوب الأشراف من أهل البيت ، وأن يسوق بعضهم إلى مدحه . مع أن الأشراف هم دائما الممدحون وهم دائما

المقصودون ومن هؤلاء « الشريف على بن أسامة العلوى الحسيى الضرير » ، الذى ترجم له الأديب « الصفدى » فى « نكت الهميان : فى نكت العميان » والذى كان شابا ظريفا حسن الصوت ، ينادم الأكابر بأنشاد الأشعار المطربة الغزلة لأمثال مهيار الديلمى ، والشريف الرضى ، وغيرهما . ولم يعمر هذا الشاب الظريف طويلا ، وقد كان العماد يتتبع أخباره وهو فى حاشية البطل صلاح الدين الأيوبى بالشام وما أرقه وهو يقول فى آخر الأخبار عنه (وسمعت — بعد سفرى إلى الشام — أنه لحق بالخبير العلام ، وضمت عليه أضلاع الرجام) .

والحق أنه لولا تلك الاجتماعات الطريفة التى كان يعقدها « العماد » أو تعقد له ، لتذاكر الأشعار وروايتها وإنشادها من أفواه قائليها أو أفواه المنشدين والرواة ، لما قدر له أن يجمع تلك الذخيرة الطيبة من شعر عصره . وما أكثر ما نراه يشير إلى هذه اللقاءات فى غير موضع من كتابه حين تجىء مناسبتها ، أو تدعو داعيتها كقوله فى معرض حديثه عن الطبيب الحكيم الشاعر « أبى طاهر البرخشى » (أنشدنى له بواسط ليلة الخميس حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة ستين وخمسمائة . وكنا مجتمعين نتذاكر طرف الأشعار ونتجاذب أطراف المعانى المستحسنة . فى غلام ناوله خلالا — وهو العيدان التى تتخلل بين الأسنان

وناولنى من كفه شبه خصره
ومثل محب ذاب من طول هجره
وقال خلالى قلت كل حميدة
سوى قتل صب حار فيك بأمره

وقد كان العماد الأصبهانى يجمع ، فى جمعه لشعر عصره ، بين الحفظ من ناحية ، وبين سرعة الكتابة والتسجيل من ناحية أخرى . مخافة أن تذهب

الأيام . وكثرة المشاغل ، وضعف الحافظة عما حفظ ففي ترجمته « وجيزة للشاعر « أحمد بن علي بن دواس القنا » يصرح بقوله (وسمعته كثيراً ينشد قصائده في الأكابر وما اتفق لي إثبات شيء من شعره لوثوقي بالزمان وامتداده وأني بواسط ولا يفوت ذلك ولم أدر أن الليالي في قصد المرء وتعويق مراده) ومن هذا النص الصريح نلمح أسف « العماد » على تفويت ما فاته من تدوين شعر بعض الشعراء وكتابته بيده . اتكالا على الذاكرة التي تضيع المحفوظ . وتذهب بالمروى شفاها

ومما لجأ إليه « العماد » من طرائق جمعه لشعر شعراء عصره : أنه كان يطلب من بعض الشعراء أن يوافوه بمجاميع أشعارهم في حوزته إلى حين ليقضي منها وطره بالحفظ من ناحية والنقل عنها من ناحية أخرى وكانت هذه المجاميع تنصب إليه على سبيل « العارية » ترد إلى أصحابها بعد إدراك المأمول منها ومن ذلك ما صنعه مع الشاعر الأديب « أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري صاحب « زينة الدهر » فقد طلب منه أن يعيره مجموع ما نظمه من أشعار أو كتبه من رسائل وبهذا استطاع أن يدون في « الخريدة » ما أراد الحصول عليه من شعر هذا الأديب المصنف الشاعر العارف بالكتب معرفة الخبير ويشهد له بذلك قوله فيه (كتبي يعرف الكتب وما فيها والمصنفات ومصنفيها ، والمؤلفات ومؤلفيها ..)

وحين كانت الظروف تعجز « العماد الأصبهاني » عن جمع الشعر من طريق الإنشاد والرواية — مباشرة وغير مباشرة — ومن طريق استعارة المجاميع الشعرية من أصحابها فإنه كان يلجأ إلى الكتب والمؤلفات ينقل منها ، ويأخذ عنها ويصرح بهذا النقل في أمانة للعلم ، أو رعاية للحق دون خفاء ولا إخفاء . ودون تبجح بالمعرفة ، وإنكار لفضل أصحاب الفضل ممن سبقوه قليلا في الزمن المعاصر

ففي ترجمته « لأبي علي الحسن البندنيجي » — من شعراء الخليفة القائم

« المقتدى » — ينقل ويصرح بالنقل من كتاب « تكملة الذيل » لابن الهمذانى . وفى ترجمته له أيضاً يصرح بنقله عن السمعانى فى كتابه الموسوم بالمذيل أو الذيل — بغير ميم — وفى ترجمته « لبهاء الدولة بن دبيس » يصرح بأنه قرأ فى « المذيل » لابن الهمذانى . وفى ترجمته للأمير « دبيس بن صدقة » — الملقب بسيف الدولة — كما لقب من قبل سيف الدولة بن حمدان — ينقل عن السمعانى فى تاريخه ، نقلا عن « الوشاح » ؛ ولعله يريد كتاب « وشاح الدمية » لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وفى ترجمته للأمير منصور ابن صدقة — وما أكثر هؤلاء الأمراء الأسديين — يصرح بأنه قرأ عنه خبراً فى كتاب السمعانى . وفى ترجمته للشاعر « أبى الحسن بن أبى الصقر الشافعى الواسطى » يصرح بأنه قرأ فى « الذيل » لابن الهمذانى ، وكذلك يفعل فى ترجمته للشيخ « أبى العز القلانسى » أما فى حديثه الوجيز المقتضب جداً عن « أبى العز » المغنى المعروف « بالبقرى العواد » ، فيصرح بأنه وجد له فى بعض المجاميع هذين البيتين فى وصف وردة

وردة غضـــــة القطـــــاف زهـــــت
بمنظـــــر فـــــى العيـــــون مرمـــــوق
كأنهـــــا خـــــد عاشـــــق دنـــــف
حـــــف بلـــــون مـــــن خـــــد معشـــــوق !

وفى ترجمته للشاعر « أبى القاسم هبة الله بن الحسين الموذى » يصرح بأنه طالع فى شعره مجموعا بخط « أبى الفضل بن الخازن » . وفى ترجمته « لمهذب الدولة أبى الخير » يصرح بأنه قرأ له بعض الشعر فى مجموع ، ولكنه لم يصرح باسم صاحب المجموع أو كاتبه على أقل تقدير .

وحين كان ينقل العماد الأصبهانى عن الشعراء من خطوطهم ، لم يقصر مرة فى الإشارة إلى ذلك . ولعله بهذا الصنيع يوثق روايته ، ويعلى من قيمتها وقوتها ، حتى لا يكون النقل عن يد أخرى غير يد الشاعر ، وهى بالطبع

غير أمينة أمانة الشاعر نفسه . وقد صنع هذا كثيراً فى نقله شعر الشاعر الأمير « حسام الدولة بن حفص الحنفى » من أمراء ربيعة فى البصرة

وإذا كان العماد الكاتب يلجأ إلى الرواة والمنشدين لجمع طائفة من شعر أهل عصره . فأنه كان يؤثر بعض أصدقائه المقربين إليه بالاستماع إلى إنشادهم شعر غيرهم وكان يطمئن إلى هؤلاء الرواة الأصدقاء الذين كانوا بلا شك عونا له على جمع مادة كتابه ومن هؤلاء الأصدقاء صديقه « عبد المنعم ابن مقبل الواسطى » الذى أنشده قدراً غير قليل من شعر الشعراء . وخاصة مرثية الأمير « نجم الدولة بن أبى الجبر » التى نظمها يرثى ولداً له مات بالحويزة فى يوم عيد اسمه أبو الحسين . والتى يقول فيها

لبس الجنود جديدهم فى عيدهم
ولبست حزن « أبى الحسين » جديداً

ووددت لو حضر المصلى فيهم
حيا ، وكنت المسبت الملحودا

أيسرنى عيد ولم أر وجهه
فيه ؟ ألا بعدا لذلك عيداً

كيف المسرة لامرىء فقد الهوى
وحشا عليه جنادلا وصعيداً

أفحين عاد الليث بأسا يتقى
والبدر حسنا ، والسحابة جوداً ؟

ونقيل النجباء من آبائه
وجدوده المتخيرين الصيدا

ورجا الصديق كما رجوت بأن يرى
هدى به ما ساءنى مسدودا

وتخذنه كهفاً أرد به الأذى
عني ، وركناً في الخطوب شديداً
وأوان أوهنت الليالي أعظمي
وغضضن من بصري وكان حديداً
ومشيت للسبعين منحني القرا (١)
وبما أرى سبط القوام مديداً
وطوى لذاتي الموت إلا قلهم
فتبوءوا بعد القصور لحوداً
فارقته وبقيت أخلد بعده
لا كان ذاك بقاً ، ولا تخليداً
من لم يمت حزناً لموت حبيبه
فهو الخؤون مودة وعهوداً
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش
من بعده ذا لوعة مكموداً

ونجيز للنفس هنا الاستطراد قليلا ونحن نختار هذه الأبيات الحزينة المؤثرة من مرثية الشاعر الأمير نجم الدولة بن أبي الجبر » لولده أبي الحسين وهي مرثية تذكرنا بمراثي الشاعر التهامي لولده والحصري القيرواني وابن الرومي ، وعائشة التيمورية لابنتها التي توفيت عروسا جميلة ، والتي مطلعها

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ ، والزمان غدور

والشيخ ناصيف اليازجي الذي نظم في رثاء ولده ، حبيب ، مرثية يقول فيها :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليه ويا دموع أجيبي !

---

(١) القرا : الظهر

ونعود إلى ما كنا فيه من لجوء « العماد الأصبهانى » إلى أصدقائه المقربين يستنشدهم أشعار غيرهم من الشعراء فقد كان يضيف إلى ذلك الالتجاء إلى أولاد الشعراء أو أولاد إخوتهم ، أو إلى ذوى القربى منهم يستنشدهم أشعارهم : أو يستمع إلى ما يتطوعون هم به ابتداء من إنشاده أشعار شعرائهم ، ففى ترجمته للأديب القاضى « يحيى بن المولد بن القاضى كمال الدين الرازى » يروى شعراً أنشده إياه ولده : « أبوسعد عبد الرحيم » وكان الإنشاد بنهر دقلى — من فروع دجلة — سنة ٥٤٩ هـ ، وفى ترجمته للفقيهة المؤدبة البصرية : « أم على الرشيدة بنت أبى الفضل بن المؤمل المالكى التميمى » : يصرح بأن ولدها الأديب « على العبدى » كان يتردد عليه فى أثناء مقامه بالبصرة . وقد روى له ما كتبه من الشعر إلى أمه الشاعرة . وما أجابت به ولدها من شعر للأمومة رقيق تقول فيه

اولا الأمانىّ والتسويف والأمل	ما كان يكنفنى سهل ولا جبل
وكلما اشتد بى نار تعذبـــى	فليس إلا دموع العين تنهمل
وقد تعللت أسبابا برؤيتكـــم	فكيف بى وبكم إن فاتت العلل
أهذى بكم حسب ماأحيافان حضرت	منى الوفاة وأوفى دونى الأجــــل
ناديت لا تأخذوا ثأرى بهم هبــة	هم الأحبة إن جاروا ، وإن عدلوا
قد ضاق لبى وهامت همتى ولهــا	يا غاية السول قد ضاقت بى الحيل
لأظهرن هوى قد كنت أكتمـه	فليس لى فى هوى أمثالكم خجل .. !

وفى ترجمة العماد الأصبهانى الكاتب للأمير « حسام الدولة محمد بن المغيث ابن حفص الحنفى » يقرر بأن ولده « بركة » — وهو شاب فاضل كثير الأدب . غزير الفضل — أنشده بالبصرة شيئاً من شعر والده الأمير وأنه كتب له — أيضاً — بخطه قصيدة طويلة فى الغزل من نظم أبيه . وزاد هذا الولد البار فضله وبره بأبيه فأهدى إلى العماد الأصبهانى كراسة بخط والده من شعره . ولعل هذا الموقف البار من ولد إلى والده . يذكرنا . . والأسى يملأ النفس —

عما صنعه بعض الأبناء من عقوق لآبائهم من كبار أدبائنا المحدثين والمعاصرين ، فأضاعوا بعض تراث آبائهم الفكرى ، ولم يهتموا بحفظه ولا صيانته من الضياع ، ولم يوجهوا همة إلى نشره مهما كلفهم ذلك من عنت كما يدعون

ولعل ابن « الحريرى » صاحب المقامات التى شرقت وغربت ووعتها الصدور زمانا طويلا ، كان أكثر الناس برا بوالده « الحريرى أبى محمد القاسم ابن على البصرى » الذى نعته العماد الكاتب على طريقته فى التعريف بالشعراء والأدباء قائلا (حريرى الوشى عراقى الوشم لؤلؤى النظم كلامه يتيمة البحر وتميمة النحر ودرة الصدف ودرى السدف وطراز الفضل وعلم العلم) وابن « الحريرى » هذا اسمه زين الإسلام أبو العباس محمد » وقد كان ناشراً لفضل والده ، باعثا لذكره حافظا لأشعاره راوية لمقاماته ، حريصا على رسائله ومسائله وقد استطاع العماد الكاتب - حين أتاحت له الأيام فرصة لقاء مع هذا الولد البار فى البصرة سنة ٥٥٦ هـ - أن يسمع عليه من مقامات أبيه أربعين مقامة من المقامات الخمسين . ولكن لسوء الحظ قطعه المرض عن إتمامها - كما يقول - ولم يطق إقامة - ص ٦٠١

ومن أبناء الأخت الذين رووا وأنشدوا شعر أخوالهم الأديب الشريف « قطب الدين بن الأقساسي » ، فقد أنشد العماد الكاتب شعراً لخاله « أبى القاسم على بن محمد بن الشريف الجليل » يقول فيه

وقوم رمونى عن قسى ضغائـــن ... بأسهم أحقاد ، وأيد كوالــم

إذا ما رأونى قطعوا اللحظ ، وانثنوا ... من الغيظ ، فاعتاضوا بعض الأباهم

لهم علم يوم الندى غير خافـــق ... وأطلال مجد دارسات المعالـــم

وموقد نار لا تضىء لطـــارق ... وبرق سماح لا يلوح لشائـــم

ومن أعجب ما ذكره العماد من اهتمامه بالشعر المنشد وحرصه عليه ، وحفه له به أنه كان مرة عند الوزير ابن هبيرة بحكم صلته به ، ونيابته عنه ، وإدارته لولايته ، وإذا « بابن الشريف الجليل » يدخل على الوزير شاكيا متظلما ، متألما فينشده من شعره قصيدة مقتصدة فى أسلوبها — كما يقول العماد بنص عبارته — مستجيرا به من الليالى وخطوبها ، فاهتز لها الوزير ، وأثنى على فضل الشاعر ووعده بقضاء حاجته . وما كاد الشاعر يفرغ من الإنشاد والوزير ينتهى من الثناء حتى أخذ « العماد » القصيدة مكتوبة من يد الشاعر فاختار منها أبياتا على ذمة أن يطرز بها « خريدته » . وقد كان !

ولا شك أن « العماد » لم يستقم له من مجموع الشعر الذى وصل إليه إنشاداً ورواية ، ونقلا إلا قدر هو الذى أودعه بين دفتى خريدته ، فقد كان بلا شك يختار وينتقى . ويحاول جاهدا أن ينفى عن القمح الزوان ، ولكنه مع ذلك وقع له كثرة من شعر لا يسمو إلى منازل السمو فى الشعر العربى فى القرن السادس الهجرى وليس على الرجل من بأس ولا حرج ، فقد كان حريصا على أن يجمع الغث بجانب السمين ، وأن ينقل نماذج واقعية من الشعر العراقى فى عصره ، فاجتمع له العالى والهابط ، والجيد والردىء ، والشريف والوضيع ، ولعله بذلك قد حمل العبء ، وأدى الأمانة عن عصره

ولا شك أنه وقف كثيراً ليختار ، وانتظر كثيراً ليتخير ، ولم يلق فى جعبة « خريدته » بكل ما ألقى إليه ، وحسبنا أن نعرف عنه أنه وهو يترجم — أو يعرف — بالشاعر « الشريف أبى هاشم إسماعيل بن المزمل الواسطى » قرر أن أشعاره التى نظمها بمدينة كرمان الإيرانية قد جمعت فى مجلدة تنيف على ستة آلاف بيت ، وأنه طالعها كلها فلم يختر منها إلا أبياتا ثلاثة — لا غير ! — كان الشاعر أنشده إياها فى لقاء لهما بأصبهان قبل ذلك وهذه هى الأبيات

مضى الود والأيام ما سمحت لنـا بشرب مدام ، أو بقرب نديـم

ونحن عطاش ، والموارد جمـة — يوطدها قوم لكل لئـيم
على الراح ، والأقداح منى تحية — إلى أن أراها فى بنان كريـم !

ألا رحم الله العماد الأصبهانى ! وحياه فى جهوده الأدبية والتاريخية ، وفى الجزء الرابع والأخير بمجلديه الضخمين ، من الخريدة العراقية ، التى بذل لها العلامة العراقى الكبير صديقنا وزميلنا المجمعى الأستاذ محمد بهجت الأثرى فى التحقيق والتعليق والشرح ، من التوفر ، والمتابعة ، والتدقيق والتقصى ، والإحاطة ما لا تحيط بوصفه كلمات ولا تقوم بشكره عبارات

ابو نواس ... وراء القضبان

لم يكن « سجن المطبق » الشهير فى أوائل العصر العباسى أول سجن شيد فى الإسلام فقد قامت من قبله سجون فى العصر الأموى وعصر الخلفاء الراشدين ، ما دامت الحدود فى الإسلام تقتضى الحبس وغيره من العقوبات التى يجدها القارىء الكريم فى كتب الحدود . فالسدود ، والقيود ، والقضبان ، والأغلال ، والسجون ، ليست جديدة فى الأدب العربى ، بل هى قديمة قدم العقوبة فى التشريع الإسلامى . ولكن « سجن المطبق » الذى نزل به الشاعر أبو نواس غير مرة كان شيئاً جديداً فى حياة المجتمع الإسلامى ، أقامه الخليفة أبو جعفر المنصور فيا أقامه من المنشآت والدور والقصور عندما استقدم المهندسين من كل مكان لتخطيط « بغداد » .

فقد أقام « قصر الذهب » بما اشتمل عليه من مقاصير مرقشة بخطوط ذهبية وأصباغ زاهية ، وعمر بجانب القصر مسجدا جميلا سمى مسجد المنصور — أو مسجد السلام — وكان من أبدع ما شيد المسلمون من المساجد حسنا وزينة ، ورأى أن تمام التخطيط لحاضرة جديدة لا يكون إلا ببناء سجن كبير حديث بين السورين سماه « المطبق » ، وأعده لخصومه السياسيين والمغضوب عليهم من خاصته وكبار رجال دولته . فكان « المطبق » بذلك أول سجن حديث متحضر فى الإسلام .

والحق أن الحاجة إلى سجن جديد متين قوى الأركان والجدران قامت فى ذهن الخليفة المنصور من تجربة شهدها بنفسه فى أوائل حكمه وقبل تشييد سجن « المطبق » فقد كان فى « الهاشمية » التى بناها أبو العباس السفاح سجن استغلت جماعة (الراوندية) — أتباع أبى مسلم الخراسانى — ضعف بنائه فهاجموه وأخرجوا المسجونين منه واتجهوا جميعا نحو قصر أبى جعفر

يريدون قتله ومن هنا وضع أبو جعفر فى تخطيطه لبغداد التى بناها للدولة الجديدة أن يكون السجن العتيد الشديد أحد المعالم المهمة فى بنائها .

ولم تكد جدران « المطبق » تقوم ، وقوائمه تشتد ، حتى عمره الخلفاء منذ أيام المنصور بالنزلاء الوافدين عليه ، بين حبس قصير ، وسجن طويل . فهذا الخليفة « المهدى » بن المنصور يحبس فيه القائد الكبير « عبد الكبير » من ولد زيد أخى عمر بن الخطاب لهزيمته أمام الروم ، فيظل صاحبنا فى « المطبق » حتى الموت ، وهو مصير تأخر به عن إعدامه عقب الهزيمة والمحاكمة .

وهذا أبو جعفر المنصور نفسه يودع فى سجن « المطبق » وزيره « يعقوب ابن داود » بتهمة ميله إلى العلويين ، ويجىء المهدى بن المنصور خليفة بعد والده ، فيخرجه من « المطبق » ويستوزره ، ولكنه يتأكد من انحرافه إلى العلويين فيزجه فى السجن ثانية .

ولقد تعاقب على إدارة سجن « المطبق » رجال أشداء كانوا يختارون لصفات معينة فيهم ، وكان من أشهر مديريه فى عهد شاعرنا أبى نواس « سلامة الأبرش » الذى ترقى من سجان قديم عمل للمهدى والهادى والرشيد ، إلى مكلف بالسجن وضامن له ومقيم عليه . وقد عمل من داره الخاصة سجنا آخر فى بعض الحالات ، فقد سجن الرشيد نفسه فى بيته حين اختلف مع أخيه موسى الهادى حول ولاية العهد .

وكان « المطبق » يعج دائما برواده ونزلائه من كل لون من رجال الدولة والحاشية الذين يغضب الخليفة عليهم أما المجرمون العاديون من الشطار واللصوص وقطاع الطرق فكانت لهم سجون أخرى غير « المطبق » ، وكان نزلاء « المطبق » ما بين قواد وأمراء وعلماء وشعراء ، فليس غريبا أن يكون أبو نواس واحداً من هؤلاء

وما أكثر ما كانت تنطلق الصرخات والصيحات ، وأصوات الاستعطاف والاعتذار من فم الشاعر أبي نواس وهو في أعماق محنه وكثيراً ما كانت تنصرف هذه الصرخات والدعوات إلى أصحابها فتصيب مواطن الرحمة من قلوبهم

ونجد في ديوان شاعرنا النواسي قصيدة نونية فيها طلب للعفو والإخراج من السجن ولا يذكر لنا جامع ديوان أبي نواس سبب نظم هذه القصيدة ، ولكننا نجد في « أخبار أبي نواس » « لأبي هفان » رواية عن يوسف بن الداية ، أن أبا نواس كتب إلى الحسين الخادم وهو محبوس أن يوصل له هذه الأبيات إلى الرشيد وإذا كنا عرفنا من نص « أبي هفان » الخليفة المستعطف ، فأننا ما زلنا على جهل بسبب محبسه هذه المرة . وفي هذه القصيدة يقول أبو نواس

بعفوك بل بجودك عذت . لا بل	بفضلك يا أمير المؤمنينـــــــ ـ
فلا يتعذرن على عفـــــــو	وسعت به جميع العالمينـــــــا
فأني لم أخنك بظهر غيـــــــب	ولا حدثت نفسي أن أخونـــــا
براك الله للإســلام عـــــــزا	وحصنا دون بيضته حصينـــــ
لقد أرهبت أهل الشرك حـــتى	تركتهمُ وما يتذمرونـــــــا
تزورهمُ بنفسك كل عـــــــام	زيارة واصـــل للقاطعينـــــــا
ولو شئت اكتفيت إلى نعـــــيم	وقاسي الأمر دونك آخرونـــــ
فشفع حسن وجهك في أســــير	يدين بحبك الرحمن دينـــــــا
إذا ما الهون حل بدار قــــــوم	فليس لجار مثلك أن يهونـــــ ا

ونلاحظ على هذه الأبيات المنظومة من وراء القضبان أن أبا نواس يغالي فيها بمدح الخليفة المستعطف ويكشف عن مكانته من أهل الشرك ودوام حربه عليهم ويستشفع إليه بحسن وجهه . وحبه للرحمن . ويعتز بأنه في جوار من لا يهون جاره

وتردد جدران « سجن المطبق » أصداء صرخة أخرى للشاعر أبي نواس ، وهنا يصرح الشاعر بظلمه ، وبأن اتهامه بالتعطيل باطل ، ويكاد يعلن يأسه من عطف الخليفة محمد الأمين عليه واستنقاذه إياه من السجن فيتمنى لو جاء المأمون – منافس الأمين – ليخلصه مما هو فيه قائلا

يارب إن الناس قد ظلمونى وبلا اقتراف معطل حبسونى
وإلى الجحود بما عليه طويـ ـتى ربى إليك بكذبهم نسبونى
ما كان إلا الجرى فى ميدانهم فى كل خزى ، والمجانة ديدنى
لا العذر يقبل لى ، ويفرق شاهدى منهم ، ولا يرضون حلف يمينى
ما كان (١) – لو يدرون – أول مخبأ فى دار منقصة ، ومنزل هون
أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى ، فمن لى اليوم بالمأمون ؟ !

ويلاحظ أن هذه الأبيات هى صرخة يائس أطلقها أبو نواس من وراء القضبان فى عهد ابتداء الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى كاد يصيب الخلافة العباسية بصدع شديد ، لولا أنه انتهى – بعد أحداث شنيعة وفتن جسيمة – إلى قتل الأمين وتولية أخيه المأمون . وكأنما كان أبو نواس على أبياته تلك يحس من وراء الغيب بما ستؤول إليه الأمور . ومن عجائب المقدور أن المأمون حين بلغته أبيات أبى نواس قال « والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله » . . ولكن شاعرنا مات سنة ١٩٨ هـ قبيل دخول المأمون بغداد بقليل وصيرورة الخلافة العباسية إليه .

ولا شك أن القيود والسدود التى عاناها أبو نواس فى سجنه قد أحالت حاله ، وأضعفت منته : وضعضعت قوته ، وغيرت حالته حتى بات ينكره رائيه ويجهله عارفه وإلى هذا يشير أبو نواس فى صرخة أخرى له من السجن يقول فيها

(١) الضمير فى كان يعود على السجن

على مركبي مني السلام ، وبزتـــي وغدوات لهو قد فقدن مكانـــي
فلو أن خدنى القريبين أبصـــرا خضوعي للسجان ما عرفانـــي !
ولو أبصراني والقيود تلفـــني ومشيي إلى البواب بالنجشـان

ولم تستطع قيود السجن وأغلاله وأصفاده — على ثقلها — أن تسكت صوت أبي نواس ولا أن تلجم لسان شاعريته وكأنما كان يتخذ من الشعر ونظمه ترويحا للنفس من ناحية ، وسبيلا إلى الخلاص من ناحية أخرى فتارة يلجأ إلى بعض الشخصيات المقربة من الخليفة وولاة الأمور فيستعطفها ويلتمس الخير عندها بأبيات ينظمها ، وتارة يصف حالته في السجن ويصور نفسه في الحبس وثالثة يصف سجانا ثقيلا لا يقاس ثقل الحديد بثقله حتى غدا حديد السجن ريشا بالنسبة إلى ثقله ! وحتى ملأت الكراهية قلب شاعرنا عليه بأثقل من الحديد . . .

ومن غرائب الحظ أن ينال هذا السجان الثقيل : «سعيد» ، شهرة في الأدب العربي بما قدم إلى شاعرنا النواسي من مساءات ، وبما دمغه شاعرنا من التثقل ، حتى بات يفضل عليه الشيطان المريد وما أبأس أبا نواس وأرقه معا وهو يخاطب الخليفة قائلا

وقيت بي الردى زدني قيـودا وشن على سوطا أو عمـــودا
ووكل بي وبالأبواب دونـــي من الرقباء شيطاناً مريـــدا
وأعف مسامعي من صوت رجس ثقيل شخصه يدعى « سعيـــدا »
فقد ترك الحـــديد على ريشــا وأوقر بغضه قلبي حديـــدا

وليس بعد هذا كراهة لسجان . ولا بغض لإنسان .

ومن أرق استعطافات أبي نواس وهو وراء القضبان قوله يستعطف الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ويتشفع به إلى ابن عمه الأمين ليضمن له التوبة عنده وينقذه من السجن

رفع الصوت فنـــادى يا أبا عيسى الجـــوادا
كن عمادا يا ابن من كـــا ن غياثا وعمـــادا
وتدارك جسدا قـــدمـــات أو قد قيل كـادا
قل له إن قال هل تـــا ب ؟ . . نعم تـــاب وزادا
واضمن التوبة تضمـــن كلما أطراك عـــادا

ولو أن قصائد ديوان أبي نواس كانت مؤرخة لعرفنا إلى من رفعت الأبيات السابقة للاستعطاف على وجه اليقين ، فقد ذكر جامع ديوان شاعرنا أنها رفعت إلى الأمين ، ولا ندرى على أى مصدر عول ، ولا على أى كتاب استند ، فأن « أبا هفان » فى كتابه « أخبار أبي نواس » يذكر أن الأبيات رفعت ليشهد المستعطف له بالتوبة عند الخليفة هارون الرشيد .

ومن استعطاف أبي نواس وهو فى محنه ما ذكره صاحب كتاب « أخبار أبي نواس » من أن شاعرنا كتب إلى الفضل بن الربيع من سجن المطبق أبياتا يتشفع بها وبه إلى الأمين العباسي ، ويصف تغير حاله فى السجن إلى أحسن ما يكون عليه المتقون التائبون فقد ارعوى باطله ، وأقصر حبل غوايته وانقلب إلى حالة الزهاد ، وصارت المسابح بين أصابعه ، والمصحف فى لبته مكان القلادة ، وبالجملة انقلب خلقا آخر فأدركته السعادة بفضل عناية الفضل بن الربيع به ورعايته له . وفيها يقول

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ـك وعودتنيه ، والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهـــاده
لو تراني ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته ، أو قتاده (١)
المسابيح فى ذراعى والمصحف فى لبتى مكان القـــلادة

---

(١) الحسن البصرى امام عالم ناسك ، وقتادة صحابي جليل شهد كثير من الغزوات .

وإذا شئت أن ترى طرفة تعجب ... منها مليحة مستفـــادة
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى ... وتفطن لموضع السجـــادة
تر أثراً من الصلاة بوجهـــى ... توقن النفس أنها من عبـــادة
لو رآها بعض المرائين يومـا ... لا شتراها يعدها للشهـــادة
ولقد طال ما شقيت ، ولكـن ... أدركتنى على يديك السعادة !

ولقد حفظ أبو نواس للفضل بن الربيع — وزير الأمين — أياديه عنده ونعمه لديه بالشفاعة له عند الرشيد والأمين لتخليصه من حلق الأصفاد ، وأسر القضبان وثقل السجان فخصه بمقطعات فى مناسبات مختلفات فتارة يقول له

ما من يد فى الناس واحـــدة ... كيد أبو العباس مولاهـــا
نام الثقات على مضاجعهـــم ... وسرى إلى نفسى فأحياهـــا
قد كنت خفتك ثم أمننـــى ... من أن أخافك خوفك اللـــه
فعفوت عنى عفو مقتـــدر ... حلت له نقم فألغاهـــا

وثانية يقول له

أصبحت —غير مدافع —مولاكا ... والحظ لى فى أن أكون كذاكا!
لله درك ! أى رهن منيـــة ... بالأمس كنت وهالك لولاكا
أصبحت معتدا على بنعمـــة ... ما كان ينعمها على سواكـــ

وثالثة يقول فى معرض النسيب مشيداً بيد الفضل بن الربيع

الله خلصنـــــــى ورأ ... ى الفضل من حلق الكبـــول
وأقالنى من عنت الزمـــا ... ن ، وقد يئست من المقيل

وكثيراً ما كان أبو نواس يلجأ إلى والد الفضل بن الربيع ، أو واحد

من قرابته ، فيستنجد بهم عند الفضل ويستشفع بمودته لهم ومحسوبيته عليهم عشرين عاما ، كقوله — من سجنه — مخاطبا أبا الفضل ، والد الفضل ابن الربيع

أأسلمتني يا جعفر بن أبي الفضل ؟ فمن لي إذا أسلمتني يا أبا الفضل
وأي فتى في الناس أرجو مقامه إذا أنت لم تفعل وأنت أخو الفضل؟
فقل لأبي العباس إن كنت مذنبا فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل
ولا تجحدوا بي ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

ويقضي نظام عالم السدود والقيود في القديم والحديث ألا تقطع عن السجين زيارات منظمة من أهله وأقاربه وأصحابه وقد صحت هذه القاعدة على شاعرنا أبي نواس ولكن « حذيفة » صاحب الشرطة على عهد الرشيد والأمين لاحظ أن أكثر زوار أبي نواس في سجن « المطبق » كانوا من طبقة معينة هم ألصق بهذا الشاعر المتهتك الخليع وأليق بمزاجه . وندع « حذيفة » صاحب الشرطة يروي هذا الخبر بنص عبارته قائلا (لما حبس أبو نواس كان أكثر من يزوره في حبسه المرد ، والشبان ، والخمارون ، وأصحاب الريبة فعرفت منهم من لم أكن أعرفه من قبل ذلك فجعلت عليهم الضرائب ، فلما أطلق فقدت ذلك وتفرقوا) .

ويكشف لنا هذا الخبر الطريف ، الذي استله صاحب الشرطة على عهد الرشيد والأمين من دفتر يومياته ، وكناشة مذكراته ، عن الدرك الذي ارتكس فيه الشاعر أبو نواس في حياته العابثة الماجنة الصاخبة بقرع الكئوس ، كما يكشف لنا هذا الخبر — من ناحية تاريخية أخرى عن رسوم الزيارة التي كان يدفعها زوار السجون للموكلين بها من أصحاب الشرطة فلم تكن أبواب السجون لتفتح لكل زائر ، أو تطلق لكل قاصد ، ولكن الزيارة كانت مقيدة بضريبة يحصلها المشرفون على السدود والقيود

وبعد ! فلقد كان الشاعر أبو نواس يودع السجن ومعه دائما أسباب إيداعه ، ولم يكن ذلك لظلم من الحكام وأولى الأمر أو تجن منهم على الرجل وإنما كان لأمور نسبت إليه واستوجبت سجنه .

فقد حبسه الخليفة هارون الرشيد لأبيات سمع بها ووصلت إليه عن طريق وزيره الفضل بن الربيع ، واشتم منها رائحة الزندقة فأمر به أن يسجن والحق أن أبا نواس كان جريئا لا يبالى أن يروى عنه شعر فيه رائحة الكفر وكان لا يطوى ذلك الشعر بل يحاول أن ينشره بكل وسيلة ممكنة فقد روى « أبو هفان » عن يوسف ابن الداية قال

كنت عند أبى نواس . فقال لى اسمع أبياتا حضرتنى وأنشد أبياتا منها

وملحة بالعذل تحسب أننى	بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فأجبتها	إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملام . فقد أطعت غوايتى	وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ورأيت إيثارى اللذاذة والهوى	وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل	علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنى أحد يخبر أنه	فى جنة مذ مات أو فى نار ...

فلما بلغ هذا قلت له يا هذا ! إن أعداءك ينتظرون منك السقطات فيتهزونها ليجدوا السبيل بها إلى الطعن عليك والقدح فيك إلى السلطان فاتق الله فى نفسك ودع الإفراط والمجون فأنه مؤديك إلى خسارة الدنيا والآخرة إلا أن يقبل الله بك إلى الطريقة المثلى فأن كنت لم تظهر هذه الأبيات فتناساها واطوها فقال لى والله لا أكتمها خوفا

وقد أحاطت تهمة الزندقة والكفر بأبى نواس من كل جانب . حتى لم ينقطع الاتهام عنه لحظة طول حياته وهو ملوم فى ذلك كل اللوم فما كان أغناه — لو عقل — عن ركوب هذه المزالق الخطرة

وكثيراً ما كان يلجأ إلى الخلاص من تهمة الزندقة بحركات وأفعال وأقوال تدل على إيمانه . وقد أجدت عليه هذه الوسيلة مرة ، وخذلته غير مرة فقد حدث عاصم بن حميد بن تميم الوراق ، وعنه روى ابن منظور المصرى صاحب لسان العرب ، قال : رأيت أبا نواس وهو فى سراويل ، والناس يجرونه ويضربونه فى قفاه بالنعال ، ويقولون زنديق ! . . ويرمونه بالحجارة ، حتى أدخلوه إلى محمد بن زبيدة — يعنى الخليفة العباسى الأمين — فقال ما هذا ؟ قالوا زنديق فقال علىّ بالسيف والنطع ! فقال أبو نواس دعونى أصلى ركعتين ، فأفرجوا عنه فتهيأ للصلاة ، ثم رفع رأسه إلى السماء وكبر وصلى ركعتين وقال

سبحان من خلق الخلـــــق من ضعيف مهـــــين
فساقه من قـــــرار إلى قرار مكـــــين
فى الحجب شيئاً فشيئـــاً تحار دون العيـــون
حتى بدت حركـــات مخلوقة من سكـــون

فقال الأمين ما هذا زنديق أعطوه ألف درهم : واخلعوا عليه . فخرج تحت الخلع ، وطردوا الناس عنه .

ويعترف لنا « النظام » المتكلم المعتزلى المشهور بأن هذه الأبيات — وخاصة الأخير منها — نبهته إلى شيء كان غافلا عنه ، حتى وضع كتابا فى « الحركة والسكون » . وكان الموحى له به شعر أبى نواس . .

ولم تكن الزندقة وحدها هى سبب إيداع الشاعر أبى نواس فى قعر مظلمة وراء القضبان ، فقد كانت معاقرته للخمر سببا فى سجنه غير مرة . ويروى لنا ابن منظور المصرى أن صاحبنا شرب الخمر مرة ، فانتهى علم ذلك إلى

الخليفة محمد الأمين ، فأمر به فحبس ثلاثة أشهر ، ثم دعا به وحوله بنو هاشم وغيرهم ، ودعا بالنطع والسيف وأراد قتله . فأنشأ يقول من قصيدة

تذكر أمين الله والعهد يذكر — مقامي وإنشاديك والناس حضر
ونثرى عليك الدر يا در هاشم — فيا من رأى درا على الدر ينثر ؟
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله — وعمك « موسى » الصفوة المتخير
وجدك « مهدى » الهدى وشقيقه — أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر

إلى أن يقول

أيا خير مأمول يرجى أنا امرؤ — أسير رهين فى سجونك مقبر
مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة — كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم حبستنى ؟ — وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

على أن هناك غير الزندقة والخمر سببا آخر لكى يودع أبو نواس السجون . فقد أطال لسانه مرة فى هجاء « سليمان بن أبى جعفر المنصور » وكان الخليفة الأمين يجله ويوقره لمكانته فى البيت العباسى . فشكاه سليمان إلى الأمين . فقال له يا عم وما يرضيك ؟ قال حبسه فى « المطبق » ولم تنفع مدائح أبى نواس فى الأمين التى كان يحفظها عن ظهر قلب ، والتى كان يظن أنها تشفع له عند الخليفة . فما زال سليمان بالأمين يثيره على أبى نواس حتى أمر بحبسه فى سجن « المطبق »

وقد تولى « الأمين » الخلافة والشاعر أبو نواس سجين وراء قضبان سجن « المطبق » ، وكان يعرفه كل المعرفة وهو أمير . فلما سأل عنه قيل له « محبوس لما يزل فى المطبق » فقال « ليس عليه بأس » . ومضى « إسحاق ابن فراشة » ، و « سعيد بن جابر » أخو الأمين من الرضاع — إلى أبى نواس

فى سجنه يطمئنانه ويقولان له إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة ، فقال ليس عليه بأس فنظم الشاعر وهو رهين القيود أبياتا رقيقة يمدح بها الأمين ويستعطفه ، قائلا

أرقت وطار عن عينى النعاس ونام السامرون ، ولم يواسوا
أمين الله قد ملكت ملكــــا عليك من التقى فيه لبـــاس
تساس من السماء بكل صنـــع وأنت به تسوس كما تســاس
ووجهك يستهل ندى ، فيحيا به فى كل ناحية أنـــاس
كأن الخلق فى تمثـــال روح له جسد ، وأنت عليه راس
فديتك أن أبل السجن بــأس وقد أرسلت : «ليس عليك باس»

فلما بلغت الأبيات الأمين وأنشدت للخليفة فى مجلسه بالعشية ، قال : صدق ! علىَّ به ، فجىء به فى الليل فكسرت قيوده ، وعفى عنه ، وودع القضبان إلى عالم حر طليق

اطباء ادباء شعراء من العراق

حفلت أرض العراق، «ومدينة السلام» في القرنين الخامس والسادس بطائفة من الأطباء الذين جمعوا بين الطب والأدب، وغلب في أدبهم الشعر الجميل يقولونه في شتى المناسبات والأغراض ولا يقصرون شعرهم على الحكمة والفلسفة والغيبيات، بل يتعدون ذلك المجال إلى أفسح المجالات التي كان ينظم فيها الشعراء من وصف، ومدح وتهنئة، وهجاء، ورثاء، وغزل، وخمريات.

وأول من نلقاه من هؤلاء الأطباء الأدباء الشعراء الطبيب الحكيم الفيلسوف الشاعر «ابن شبل البغدادي» الذي اشتهر في كتب الأدب والتاريخ والتراجم والطبقات بقصيدته الفلسفية الرائعة التي مطلعها

بربك أيها الفلك المـــدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

وابن الشبل بغدادي المولد والنشأة، وقد لقيه «أبو الحسن الباخرزي» صاحب «دمية القصر» وسمع منه، وأخذ عنه، وأشار إليه أكرم أشارة في مقدمة «الدمية» وهو يتحدث عن الأدباء الذين لقيهم بمختلف الأقطار، ثم عاد فترجم له في القسم الثالث من الكتاب الذي عقده لفضلاء العراق وافتتح ترجمته له بقوله (رأيته ببغداد سنة خمس وخمسين وأربعمائة فوجدته وقد شد على الأدب الجزل أزرار ثيابه وجمع أقسام الفضل ملء إهابه وذكرته في خطبة الكتاب، عند ذكر السادات الأرباب، وفرغت ثم مما يليق بهذا الباب، وقد كان أعارني صدراً صالحا من فوائده، وأهدى إلى قدراً كافياً من فرائده.)

ومن الطريف أن «ابن الشبل البغدادي» كان من شعراء المشيب الذين

زينوه وحسنوه فى أعين الزائرين . فجعل بياض الشيب فى الشعر الأسود صبحا يتنفس فى غياهب الظلام . . وهو معنى سبق إليه هذا الطبيب الشاعر ، ولكنه أجاد صوغه على كل حال حيث يقول

قالوا المشيب ، فقلت صبـ ـح قد تنفس فى غياهب
إن كان كافور التجا رب ذر فى مسك الذوائب
فالليل أحسن ما يكو ن إذا ترصع بالكواكب

ولا نعدم عند « ابن الشبل البغدادى » لمسة الغزل الرقيق فيما كان يعرض له ولقلبه من أمور العشق وله فى هذا الباب بعض المعانى الجياد . فحين مات محبوبه أراد صحبه أن يسلوه عنه بأن ثانيه فى الحسن موجود فأجابهم إذا كان الحب الجديد موجوداً فأين لى به وقد ذهب شبابى وولى صباى؟ وهو يعبر عن هذا بقوله

قالوا وقد مات محبوب فجعت بـه وبالصبا وأرادوا عنه سلوانى
ثانيه فى الحسن موجود . فقلت لهم من أين لى فى الهوى الثانى صبا ثانى؟

وإذا هدف الطبيب الشاعر « ابن الشبل البغدادى » إلى الحكمة والمثل ، فإنه يوردهما أجمل الموارد ، فى أسلوب يصيب الهدف ، ويبلغ القصد ، فى غير تصنع ولا تكلف اسمعه وهو يرسل هذا البيت الحكيم

إذا أخنى الزمان على كريـم أعار صديقه قلب العـدو

واسمعه وهو يدعو إلى الحرص على صون النفس ، بعكس المال الذى إذا ضاع فأنه يعوض ، وإذا أتلف فأنه يكتسب من جديد

تسلَّ عن كل شيء بالحياة ، فقـد يهون بعد بقاء الجوهر العـرض
يعوض الله مالا أنت متلفـه وما عن النفس إن أتلفتها عـوض

واسمعه وهو يقول فى القناعة

قالوا القناعة عز ؛ والكفاف غـنى والذل والعار حرص النفس والطمع
صدقتم من رضاه سد جوعتـه إن لم يصبه ، فماذا عنه ينتقع ؟

وعلى ما كان عند « ابن الشبل البغدادى » من مذاهب الفلاسفة ، فأنه كان شديد الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان على يقين بأن الأرزاق فينا مقدرة ، فلا يخطئنا ما هو من نصيبنا ، ولا يصيبنا من الرزق ما ليس لنا . وهذا الإيمان المطمئن للنفس فيه العزاء كل العزاء لمن تحير ألبابهم أسباب الأرزاق . وفى هذا يقول « ابن الشبل » وهو مما أنشده صاحب « الدمية »

وحتم قسمة الأرزاق فينا وإن ضعف اليقين من القلـوب
وكم من طالب رزقا بعيـدآ أتاه الرزق من أمد قريـب

ولا أدرى لماذا كان يستكثر الناس على « ابن الشبل البغدادى » هذا الشعر الجيد العالى النفس مع أن مستواه لا ينحط عن أقدار كثير من الشعراء الكبار ؟ لقد استكثروا عليه القصيدة الرائية الفلسفية التى خاطب بها « الفلك المدار » ، فنسبها بعض الناس إلى الحكيم الشاعر الفيلسوف قبله ابن سينا ولكن الثقة الخبير « ابن أبى أصيبعة » يؤكد أنها لا بن الشبل البغدادى ، وينكر نسبتها إلى ابن سينا

ولم يكتف المستكثرون عليه بهذا بل نسبوا همزيته الجيدة فى رثاء أخيه « أحمد » إلى أبى العلاء المعرى ، ولكن أديبنا المصرى الكبير صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى يؤكد فى كتابه العظيم (الوافى بالوفيات) أنها لابن الشبل لا للمعرى ويقول أديبنا الصفدى فى ذلك بنص عبارته (كثير من الناس ينسب هذه القصيدة لأبى العلاء المعرى وهو معذور ، لأنها من نفسه . . وإنما هذه لابن الشبل يرثى بها أخاه أحمد) .

والحق أننا نقصر فى حق الطبيب الشاعر الأديب « ابن الشبل البغدادى »

حين يفوتنا فى هذا المقام الاستشهاد ببعض قصيدته فى الفلك المدار ، وبعض مرثيته لأخيه . . فمن الأولى قوله

بربك أيها الفلك المـــــدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟
مدارك قل لنا فى أى شـــىء ففى أفهامنا منك انبهــــار
وفيك نرى الفضاء ، وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار ؟
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار ؟
وموج ذى المجرة أم فرنــــد على لجج الدروع له أوار ؟
وفيك الشمس رافعة شعاعــا بأجنحة قوادمها قصـــار
وطوق فى النجوم من الليالــى هلالك أم يد فيها ســـوار ؟

وهى طويلة مملوءة بالتساؤلات عما وراء الستار من أسرار ، وهى تذكرنا بقصيدة الشاعر أيليا أبى ماضى فى المعاصرين التى عنوانها « الطلاسم » وقد شهد صاحب « عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء » لقصيدة ابن الشبل الحكمية هذه فقال فيها (وهذه القصيدة من جيد شعره وهى تدل على قوة اطلاع فى العلوم الحكمية ، والأسرار الألهية) .

أما مرثية ابن الشبل لأخيه أحمد ، ففيها يقول

غاية الحزن والسرور انقضـــاء ما لحى من بعد ميت بقـــاء
لا « لبيد » « بأربد » مات حزنا وسلت عن شقيقها « الخنساء »
مثل ما فى التراب يبلى الفتى فالحز ن يبلى من بعده والبكـــاء
غير أن الأموات مروا ، وبقوا غصصا لا تسيغها الأحيـــاء
إنما نحن بين ظفر ونـــاب من خطوب أسودهن ضراء
نتمنى ، وفى المنى قصر العمـــ ـر ، فنغدو كما نسر نســـاء

لقد كان ابن الشبل البغدادى شاعراً مطبوعا وإذا كان قد مهج

قصيدة (الفلك المدار) منهج الفلاسفة المتحيرين المتسائلين ، فأنه فى سائر أشعاره سلك مسلك الشعراء المطبوعين ، فهو يختال على المعانى الدقيقة اللطيفة ، ويبتكر أبكارها عا لم يسبقه إليه سابق ولا يلحقه لاحق : كقوله الذى أبدع فيه

لا تظهرن لعاذل أو عـــاذر حاليك فى السراء والضـــراء
فلرحمة المتوجعين حــــرارة فى القلب ، مثل شماتة الأعداء

ويبدو أن هذين البيتين قد نزلا من نفس الأديب المؤرخ الصفدى أكرم منزل . وأطيب موقع فرواهما أول ما روى فى ترجمته لابن الشبل البغدادى فى (الوا بالوفيات) ، ثم أتى بعدهما بطائفة من أشعاره ومنها رائيته « الفلك المدار » ومرثيته للشقيق كما أن صاحب (النجوم الزاهرة) رواهما أول ماروى من شعره فى ترجمته له فى وفيات سنة ٤٧٣ هـ ، على حين أن صاحب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لم يشر إليهما على الإطلاق . وكذلك فعل صاحب (دمية القصر) .

روح بغداد والبغاددة

وثانى الأطباء الأدباء الشعراء فى العراق البديع الأسطرلابى ، وهو بغدادى أصيل وقد جمع بين الطب والفلسفة وعلم الكلام والفلك والأدب والشعر ويشهد له ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » بأنه كان وحيد زمانه فى عمل الآلات الفلكية ، متقنا لهذه الصناعة ، وحصل له من جهة عملها مال جزيل فى خلافة « المسترشد » العباسى كما يشهد له بأنه لما مات لم يخلفه فى عمل الأسطرلاب والآلات الفلكية مثله وشهد له ياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » بأنه كان أديبا فاضلا شاعراً بارعا . حكيما عارفا بالطب ، والرياضة ، والهيئة ، والنجوم ، والرصد ، والزيج . متقنا علم الآلات الفلكية ، ولا سيما الأسطرلاب فنسب إليه .

وتجمع كتب الطبقات والتراجم والتاريخ على فضل « البديع الأسطرلابى وعلمه. وتعدد نواحي ثقافته ، كما تجمع على الثناء عليه والإشادة بذكره ، كما نجده عند « الخطيرى » فى كتابه « زينة الدهر » ، وعند العماد الأصفهانى فى « الخريدة » .

ومن عجائب المقدور أن هذا الطبيب الشاعر العالم الفاضل قد ظلم فى شعره فلم يصل إلينا من أشعاره الكثيرة إلا مرثيته لابن الشبل البغدادى فى نتف قليلة تقع فى البيتين أو الثلاثة ، على الرغم من أن له ديوان شعر دونه وجمعه بنفسه ، فضاع ديوانه فيما ضاع من تراثنا العظيم

ونلاحظ على شعر البديع الأسطرلابى ابتكار المعـانى واللطف فى استخراجها ، والخفة فى التعبير عنها فلا نجد هبوطا فى عبارته ، ولا ابتذالا فى معانيه كما أنه يمتاز فى أسلوبه بالتأنق فى اختيار الألفاظ البغدادية المحلية التى لا تستعمل فى قطر عربى آخر ، فهو إذا عبر لجأ إلى ألفاظ « البغاددة » وعباراتهم فاستعملها فى شعره ومن هنا كانت روح بغداد واضحة فى شعره ويذكرون له فى هذا المجال قوله فى الغزل على طريقتهم يومئذ

أذاقنى حمرة المنايـــــــا لما اكتسى خضرة العـــذار
وقد تبدى الـسواد فيــــه وكارتى بعد فى العيـــار

فعبارة : (كارتى بعد فى العيار) هى بغدادية محض ، وهى — كما يقول ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان (من اصطلاح البغاددة ، فأنهم يقولون وكارتى بعد فى العيار ، بمعنى أنه ناشب معـه لم يتخلص منه و « الكارة » عندهم فى الدقيق ، بمثابة « الحملة » فى ديار مصر)

وإذا كان أهل بغداد — نضر الله وجهها — يعبرون عن « الحملة » بالكارة فإن أهل العراق — عامة — فى عصر الأسطرلابى كانوا يعبرون عن

« الثلج » بكلمة « الوفر » . فالوفر هو الثلج بلغة أهل العراق . وهنا نجد طبيبنا وشاعرنا وفلكينا « البديع الأسطرلابي » يستعمل لفظة « الوفر » حين نزل ببغداد في عصره ثلج كثير . فقال موجها كلامه إلى « صدور الزمان » ورؤساء الأوان الظالمين في العراق :

يا صدور الزمان ليس بوفـــر ما رأيناه في نواحي العــراق
إنما عم ظلمكم سائـــــر الأر ض . فشابت ذوائب الآفاق !

فبياض الثلج هنا ليس بياض الثلج المعروف بأسبابه الطبيعية . ولكنه بياض المشيب في ذوائب الآفاق من كثرة ظلم الصدور والرؤساء. وهذا التعليل البديعي في هذين البيتين هو من النكت البديعية المعروفة في علم البديع ، وليست بغريبة على شاعرنا وطبيبنا « البديع »

وإذا كان ذانك البيتان يحملان نكتة بديعية . فإنهما — من ناحية أخرى — يعبران عن إحساس شاعر عراقي عما كان يعانيه العراق من ظلم اجتماعي في ذلك الزمان . وإذا كان الطبيب الشاعر « البديع الأسطرلابي يتظرف بعض الحين . و « يتبغدد » باستعماله ألفاظا بغدادية محلية في شعره ، فإنه — بعض الحين — كان يتظرف أيضاً باستعمال ألفاظ أعجمية في شعره ، كقوله في الغزل :

قال قوم عشقته أمرد الخـــد وقد قيل أنه « نكريـــش »
قلت : فرخ الطاووس أحسن ما كا ن إذا ما علا عليه الريـــش !

فكلمة (نكريش) لفظة أعجمية ، ومعناها — كما يقول ابن خلكان — لحية جيدة .

ويبدو أن تظرف الطبيب الشاعر « البديع الأسطرلابي » قد بلغ عند بعض مؤرخي الأدب حد (الخلاعة) و (المجون) . فهذا صاحب « وفيات

الأعيان » يقول عنه (كان كثير الخلاعة يستعمل المجون فى أشعاره حتى يفضى به إلى الفحش فى اللفظ) ويظهر أن مجون « البديع الأسطرلابى » لم يبد فقط فى شعره هو ، بل بدا فى اختياراته من شعر الماجن (ابن حجاج) من شعراء « اليتيمة » المشهورين .

ومن المعانى الجيدة المبتكرة « للبديع الأسطرلابى » قوله وقد أهدى هدية إلى أحد الرؤساء

أهدى لمجلسك الشريف وإنما أهدى له ما حزت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب ، وماله فضل عليه لأنه من مائـــه

ولا يفوتنا هنا فى معرض الحديث السريع عن الطبيب الشاعر « البديع الأسطرلابى » أن نصحح بعض الأوهام ، التى وردت فى أكثر من مقام . فقد وردت كلمة (الأسطرلابى) فى عيون الأنباء « لابن أبى أصيبعة بالصاد المهملة وبعدها طاء ، وكررها المؤلف — أو الناسخ — أكثر من مرة على هذا النحو ولكنها فى (مرآة الزمان) وفى (معجم الأدباء) لياقوت ؛ وفى (وفيات الأعيان) وردت بالسين والطاء ، وهو الهجاء الأكثر دورانا فى الكتب والمصادر القديمة .

وينطق كثير من الناس لفظة « الأسطرلابى » بكسر الطاء . وقد سمعت بأذنى الشاعر اللبنانى الكبير شبلى الملاط ينطقها هكذا فى قصيدته البائية التى ألقاها فى حفل تكريم الشاعر أحمد شوقى ومطلعها

ردت على مطامحى وشبابى ذكرى الصبا، وملاعب الأحباب

والصواب — على ما ذكره أهل التحقيق — أنها بضم الطاء لا بكسرها ؛ وأن الهمزة فى أول الكلمة مفتوحة لا مكسورة كما هو شائع

وهناك وهم ثالث لابد من تصحيحه فى هذا المعرض ، فقد جاء فى طبعة

(معجم الأدباء) لياقوت ، بتحقيق الدكتور أحمد فريد رفاعي ونشره ؛ جـ ١٩ ص ٢٧٤ أن البديع (مات ببغداد بعلة الفالج سنة أربع وثلاثين ومائة) وهو خطأ واضح كما ترى ، وصوابه (سنة أربع وثلاثين وخمسمائة) ، وضبطها بالأرقام ٥٣٤ هـ .

ناثرا اجود منه شاعرا

ونجيء معاصراً « للبديع الأسطرلابي » طبيب بغدادي اشتهر بالأدب والشعر والخط الجميل وهو هبة الله بن صاعد البغدادي المعروف « بابن التلميذ » ويصفه ياقوت الحموي في معجمه بأنه (كان واحد عصره في صناعة الطب ، متفننا في علوم كثيرة . حكيما أديبا ، شاعراً مجيداً . وكان عارفا بالفارسية واليونانية والسريانية . متضلعا بالعربية . . وله النظم الرائق ، والنثر الفائق ، ونثره أجود من شعره). أما صاحب « عيون الأنباء » فيصفه بقوله (أوحد زمانه في صناعة الطب . وفي مباشرة أعمالها ويدل على ذلك ما هو مشهور من تصانيفه وحواشيه على الكتب الطبية . . . وكان جيد الكتابة ، يكتب خطا منسوبا ، وقد رأيت كثيراً من خطه ، وهو في نهاية الحسن والصحة وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي متبحرا في اللغة العربية . وله شعر مستظرف حسن المعاني : إلا أن أكثر ما يوجد له البيتان أو الثلاثة ، وأما القصائد فلم أجد له منها إلا القليل وكان أيضاً يترسل ، وله ترسل كثير جيد .)

والحق أنه ما مُدح رئيس مقدم عالم من النصارى بمثل ما مدح به « ابن التلميذ » الطبيب الشاعر . فقد كان جواداً سباقا إلى المكارم هماما ذا نجدة ومروءة ، وقوراً . وصولا للأخلاء ، فمن قول أحد الأشراف النقباء في مدحه

أمين الدولة اسلم للأيـــادي على رغم المناوىء والمعادي

وللمعروف تنشره إذا ما طواه تناوب النوب الشداد
فأنت المرء تلقى حين تدعى جواداً بالطريف وبالتلاد

كما مدحه الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية بقصيدة محكمة النسج يقول فيها:

يا بني التلميذ لو وافيتكم لم تكن نفسي بأهلي شغفه
وتسليت بكم عن صبيتي وغدا وسطى ثقيل المنصفة
إنما طلقت (كرمان) بكم أنكم لى عوض ما أشرفه

كما مدحه أبو إسماعيل الطغرائي حين جاءه مستشفيا من ألم فى ظهره بقوله

يا سيدى والذى مودته عندى روح يحيا بها الجسد
من ألم الظهر أستغيث وهل بألم ظهر إليك يستند ؟

والحق أنه كان فى مجمل سيرته عماد الظهر وسناده للمعلولين واللاجئين

ولقد كان « ابن التلميذ » يكثر من المقطعات الشعرية القصيرة التي لا تزيد على ثلاثة أبيات . ولعل قصر النفس فى القصيدة الواحدة قد منحه طول التفنن فى الكثير من المقطعات فله فى كل مناسبة دائرة مقطوعة أو أكثر . وما ترك غرضا من أغراض الشعر إلا نظم فيه على البيتين والثلاثة ، فتغزل ، وقال فى الخمر ، والتهنئة ، والرثاء ، كما نظم فى الحكمة والفلسفة ، ولكن يلفت نظرنا كثرة شعره الذى يقوله فى جواب الرسائل فى صدور الكتب فهو فى هذا الميدان فارس لا يلحق .

فمن صدور رسائله الشعرية ما كتبه إلى الوزير « سعد الملك نصير الدين »

لا زال جدك بالأقبال موصولا وجدضدك بالأذلال مغلولا
ولا عدمت من الرحمن موهبة تعبد ربعك بالعافين مأهولا
فنعم منطلق الكفين أنت إذا أضحى اللئيم عن المعروف مغلولا

ومنها ما أجاب به على رسالة « لجمال الملك على بن أفلح »

وأنى وحيث مذ بنت عنك قلبي حزين . ودمعي هتون

وأخلف ظنى صبر معين   وشاهد شكواى دمع معين
فلله أيامنا الخاليات   لو رد سالف دهر حنين !

على أن طبيبنا الشاعر المترسل « ابن التلميذ » قد شغل نفسه بالألغاز في مقطعات شعرية فهو يلغز في « السحاب » قائلا

وهاجم ليس له من عدْوى   مستبدل بكل مثوى مثوى
بكاؤه وضحكه في معنى   إذا بكى أضحك أهل الدنيا(١)

وهو يلغز في « الظل » قائلا

وشيء من الأجسام غير مجسم   له حركات تارة وسكون
يتم أوانى كونه وفساده   وفي وقت محياه المحاق يكون
إذا بانت الأنوار بان لناظر   وأما إذا بانت فليس يبين

وهو يلغز في « الميزان » فيقول

ما واحد مختلف الأهواء   يعدل في الأرض وفي السماء؟
يحكم بالقسط بلا رياء   أعمى يرى الرشاد كل رائى
أخرس لا من علة وداء   يغنى عن التصريح بالإيماء
يجيب إن ناداه ذو امتراء   بالرفع والخفض عن النداء

ولم يشتهر الطبيب الشاعر الناثر « ابن التلميذ » بعمل الألغاز الشعرية وحدها ، ولكنه اشتهر فوق هذا بنظم الشعر الذى يكتب أو يطرز أو ينقش أو يسطر على الأشياء والآلات كالسيوف ، والحصير ، والمبخرة ، ومغسل الشراب والأبواب ، والدور وغيرها فمن نظمه الذى صنعه ليكتب على حصير

---

(١) يعنى ان السحاب اذا بكى بدموع المطر أضحك الناس بالزرع والثمر

أفرشت خدى للضيوف ولم يزل ... خلقى التواضع للبيب الأكيس
فتواضعى أعلى مكانى بينهم ... طوراً، فصرت أحل صدر المجلس

ومن نظمه الذى صنعه ليكتب على مدخنة البخور

إذا الهجر أضرم نار الهوى ... فقلبى يضرم للهجر نارا
أبوح بأسرارى المضمرات ... تبدو سراراً وتبدو جهارا
إذا ما طوى خبرى صاحب ... أبى طيب عرفى إلا انتشارا

ونلاحظ على الشعر المتناثر الذى نظمه « ابن التلميذ » هنا وهناك أنه كان مولعا بتأييد القضية التى يعالجها بالمثال المادى أو الصورة الحسية وهو نوع من البديع نسميه « التأكيد بالمثال » ويعتمد أكثر ما يعتمد على التشبيه الحسى كقوله فى « العلم »

العلم للرجل اللبيب زيادة ... ونقيصة للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نوراً، ويعشى أعين الخفاش

وقوله فى التواضع للرفيع والتسامى للوضيع

تواضع كالبدر استنار لمنظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ومن دونه يسمو إلى المجد صاعداً ... سمو دخان النار وهو وضيع

فالقضية لم تكتمل وتتوكد إلا بالمثال المحسوس ، وهو سمو الدخان مع ضعته وصغر شأنه وهوانه وتواضع البدر على صفحة الماء مع رفعته وجلال قدره وكقوله فى النهى عن احتقار الصغير ، فقد يكون منه الأمر الخطير

لا تحقرن عدوا لان جانبه ... ولو يكون قليل البطش والجلد
فللذبابة فى الجرح الممد (١) يد ... تنال ما قصرت عنه يد الأسد

وكقوله فى رؤية عيوب « الغير » وعدم رؤية عيوب النفس

---

(١) الجرح الممد : الذى صارت فيه المدة

وأرى عيـــوب العالمـــين ، ولا أرى
عيبـــا لنفسى وهـــو منى أقـــرب

كالطرف (١) يستجلى الوجوه ، ووجهه
منـــه قريـــب وهـــو عنه مغيـــب

وقد جمع الطبيب الشاعر المترسل « ابن التلميذ البغدادى » إلى خلال الخير التى كانت فيه صفة البراعة فى معاملة الناس والكياسة فى التعامل مع الأصدقاء والرؤساء فقد ذكروا أن أبا القاسم بن الفضل قد عتب على أمين الدولة ابن التلميذ عتبا مريبا ، فأجابه أمين الدولة بأن خلع عليه قميصا مصمتا أسود ، وكتب إليه مع الخلعة

أحبـــك فى الســـوداء تسحـــب ذيلهـــا
خطيبا ولكـــن لا بذكـــر مثالـــى

كما اشتهر طبيبنا الشاعر « أمين الدولة ابن التلميذ » بأدبه الفائق فى الشكوى ، فهو فى هذا الباب يلمح ولا يصرح . فلقد حدثنا « ياقوت الحموى » فى معجمه أن « دار القوارير » ببغداد كانت من أقطاعات ابن التلميذ ، فلما ولى الوزارة يحيى بن هبيرة حل إقطاع هذه الدار ، وأخذها من طبيبنا الشاعر فحضر ابن التلميذ يوما عند الخليفة العباسى « المقتفى » على عادته فلما أراد الانصراف عجز عن القيام ، وكان قد أصابه الضعف من الكبر فقال له الخليفة المقتفى : كبرت يا حكيم . قال : كبرت يا مولاى وتكسرت قواريرى (وهذا مثل يتماجن به أهل بغداد فى أحاديثهم) .

فقال الخليفة : رجل عمر فى خدمتنا وما تماجن قط بحضرتنا فلهذا التماجن سر ! ثم فكر ساعة وسأل عن دار القوارير فقيل له قد حل

---

(١) الطرف العين واللحظ

الوزير ابن هبيرة إقطاعها وأخذها من ابن التلميذ . فأنكر « المقتفى » على وزيره أخذ دار طبيبنا الشاعر الأديب إنكاراً شديداً ، وردها على ابن التلميذ ثانية ، وزاده إقطاعا آخر

طبيب شاعر خبيث اللسان

ونخرج من طوافنا القصير مع الطبيب الشاعر ابن التلميذ ، إلى طبيب شاعر آخر ، ولكنه اشتهر فى ميدان الهجاء ، فأوفى فيه على الغاية ، حتى لم يكد يسلم من لسانه أحد .. وهو الطبيب « أبو القاسم ، هبة الله ابن الفضل » وكانت بغداد عاصمة العباسيين له دار مولد ونشأة وكان يعانى صناعة الطب ويباشر أعمالها فى منتصف القرن السادس الهجرى وله ديوان شعر ، كما كان للبديع الأسطرلابى ديوان شعر ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن مصير هذين الديوانين .

وإذا كان العصر الأموى قد منى بمهاجاة شديدة بين الشاعرين : جرير والفرزدق ، فأن النصف الأول من القرن السادس فى العصر العباسى قد منى بالمهاترة والشنآن بين الشاعرين الطبيب أبى القاسم هبة الله ابن الفضل ، والأمير أبى الفوارس سعد بن محمد الصيفى المشهور فى كتب الأدب والتاريخ باسم « حيص بيص » !

وشاعرنا الطبيب هبة الله بن الفضل هو الذى أطلق لقب « حيص بيص » على الشاعر الأمير أبى الفوارس ، فقد ذكروا أن العسكر ببغداد قد هم بالخروج إلى السلطان السلجوقى وذلك فى عهد الخليفة العباسى « المقتفى لأمر الله » ، فبات الناس من ذلك فى هرج ومرج ، وحديث كثير ، وحركة زائدة ، فقال الأمير الشاعر أبو الفوارس فى ذلك : مالى أرى الناس فى حيص بيص ؟ ! فأطلقها عليه طبيبنا الشاعر هبة الله بن الفضل ، فلصقت به ولم يستطع أن يتخلص منها فى حياته وبعد مماته ، وصار « الحيص بيص » لقبا لهذا الأمير الشاعر !

ولقد خلع الطبيب الشاعر « هبة الله ابن الفضل » ثياب الوقار ، وطرح إزار الجد ولبس رداء المجانة والخلاعة والمعابثة ، والنكتة المكشوفة والمهاجاة المفحشة فلم يسلم من لسانه صغير ولا كبير ولا سوقة ولا أمير . حتى الطبيب الشاعر « أمين الدولة ابن التلميذ » الذى سبق الحديث عنه لم يسلم من خبث لسانه ولذع هجائه . حيث قال فيه

هذا تواضعك المشهور عن ضعة قد صرت فيه بفضل اللؤم تتهم
قعدت عن أمل الراجي . وقمت له هذا وثوب على القصاد . لا لهم

وما أفظع الطبيب الشاعر « هبة الله ابن الفضل » وهو يهجو الجالس على سرير الحكم

يا معشر الناس ! النفير النفير قد جلس الجردب فوق السرير
وصار فينا آمراً ناهيـــــا وكنت أرجو أنه لا يصـــير
فكلما قلت قذى ينجلـــى وظلمة عما قليل تنـــــير
فتحت عيني فأذا الدولة الدو لة والشيخ الوزير الوزيـــر !

وما أشد خبث لسان هذا الطبيب الشاعر وهو يهجو (ابن المرخم) حين صار إليه القضاء والحكم فى أداة الحكم العباسى

يا ابن المرخم صرت فينا حاكـــا خرف الزمان تراه أم جن الفلك ؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربمـــا أما شريعة . « أحمد » من أين لك ؟

ويبدو أن ابن المرخم هذا هو بعينه (ابن المرجم) الذى ورد اسمه فى (مرآة الزمان) لسبط بن الجوزى هكذا بالجيم لا بالخاء . والذى كتب فيه شاعرنا الطبيب « هبة الله بن الفضل » رقاعا وألصقها فى المساجد والجوامع والشوارع يقول فيها

يا حزينة الطمى الطمـــى ! قد ولى ابن المرجّم

وى على الشرع والقضـــا وعلى كل مسلـــــم !

وما أصدق حكم ابن خلكان على الطبيب الشاعر « هبة الله بن الفضل » وهو يقول عنه (وكان غاية فى الخلاعة والمجون ، كثير المزاح والمداعبات ، مغرى بالولوع بالمتعجرفين والهجاء لهم وله فى ذلك نوادر ووقائع وحكايات ظريفة) أما أبو سعد السمعانى فقد كتب عنه فى كتابه « الذيل » قائلا (شاعر مجود مليح الشعر ، رقيق الطبع ، إلا أن الغالب عليه الهجاء ، وهو ممن يتقى لسانه) أما العماد الأصفهانى فقد ذكره فى الخريدة قائلا (وله شعر كثير لم يدون ، والغالب عليه الهجاء والمجون. وما خلا من ذلك لا يكون له طلاوة هجا الأكابر ، ولم يغادر أحداً من أهل زمانه) — خريدة القصر . قسم العراق جـ ٢ ص ٢٧٠

احب عنترة فاشتهر بالعنترى

بقى من هذه الحفنة الكريمة من الشعراء الأطباء الأدباء فى العراق فى القرن السادس الهجرى طبيب شاعر اشتهر بالطب كما اشتهر بالشعر ، وهو « أبو المؤيد محمد بن المجلى بن الصائغ » المعروف « بالعنترى » وذكروا فى سبب هذه النسبة أنه كان فى أول أمره يكتب أخبار عنترة العبسى وأشعاره وقصص بطولاته ؛ فصار مشهوراً بنسبته إليه ، وصار معروفا فى كتب الطبقات بالعنترى ، لا يصرف هذا النعت إلى غيره ولقد اشتهر « العنترى » بالنثر كما اشتهر بالشعر ولكنهما لم يطغيا على شهرته طبيبا مذكوراً حسن المعالجة . ولقد وصفه ابن أبى أصيبعة بأنه كان (جيد التدبير ، وافر الفضل ، فيلسوفا متميزاً فى علم الأدب ، وله شعر كثير فى الحكمة وغيرها)

وللطبيب الأديب الشاعر العنترى لفتات ذكية فى الفلسفة والحكمة واكتناه أسرار الحياة . فمن شعره النفسى الفلسفى قوله

نفسي تطالبني بما في طبعها ... والعقل يزجرها عن الشهوات

والنفس تعلم أن ذلك واجب ... والطبع يجذب إلى العادات

والطبع يقصر عن مراد كليهما ... وكلاهما وقف على الحسرات

والنفس من خمر الحياة وسكرها ... ستفيق بين عساكر الأموات

وقوله :

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... جمعا لكنت صديق كل العالم

لكن جهلت فصرت تحسب كل من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

استحي أن العقل أصبح ضاحكا ... مما تقول وأنت مثل النائم

لو كنت تسمع ما سمعت وعالما ... ما قد علمت خجلت خجلة نادم

وضع الإله الخلف في كل الورى ... بالطبع حتى صار ضربة لازم

وحين يسبح طبيبنا الشاعر « العنتري » سبحاته في آفاق الفكر الرفيع فإنه لا يلبث أن يهبط معنا بعض الحين ببشريته إلى الأرض ليصف لنا ثمار النارنج والرمان الحامض وليصور لنا غلمانا يسبحون في نهر دجلة وكأنهم وسط لج الماء « در تجرد في بحر من الصدف » . وليهجو الشاعر علي بن مسهر « أفحش هجاء . وليخوض معنا في معارك الناس من أجل البقاء . وهو تنقل بين الأرض والسماء . وبين ثرى والثريا ليرينا بأجلى بيان أن في الإنسان وفي فطرته المتقلبة شيئاً من الملك وشيئاً من الشيطان

مع الشريف المرتضى

فى كتــاب

الشهاب ... فى الشيب والشباب

يظهر أن موضوع الشيب والشباب قد استأثر من عناية المؤلفين العرب واهتمامهم بنصيب غير قليل فلم يترك رجال الفكر العرب هاتين الظاهرتين الطبيعيتين فى حياة الإنسان تمران دون الألمام بهما والوقوف عليهما ، والتحدث عنهما ، وعن وجهة النظر الأدبية والشعرية التى أملتها حصيلة كبيرة من شعر الشعراء منذ العصر الجاهلى .

ولا أدل على اهتمامات المؤلفين العرب بموضوع الشيب والشباب من أننا نجد فى كتب التراث العربى مجموعة من الكتب المصنفة فى هذا المجال يرجع كثير منها إلى العصور الأولى لتاريخ العرب والإسلام ، وإن كان أكثرها لا يزال مفقوداً فيما ضاع من كتب التراث

قد يكون من الفائدة أن نشير فى هذا المقام إلى حفنة من الكتب الضائعة ، منها كتاب « معانى الشيب وآدابه » لعبد الله بن حماد بن مروان الكاتب الذى اعترف ابن النديم صاحب « الفهرست » بأنه لا يعرف من أمره غير هذا وكتاب « الخضاب ، وذم الشيب ومدح الشباب » ليعقوب بن محمد بن على ، وكتاب « الشباب وفضله على المشيب » لأبى عبد الله محمد الحكيمى ولا يعرف عصره وإن كان المقطوع به أنه لم يتجاوز المائة الرابعة ، وكتاب « الشيب والشباب » للحسن بن خلاد ، وكان يسلك طريقة الجاحظ ويذهب مذهبه فى التأليف وهو من أدباء القضاة وكان مختصا بابن العميد وله شعر جيد وعاش فى القرن الرابع وكتاب « الشيب والتعمير » للأمام ابن أبى الدنيا من أدباء القرن الثالث الهجرى واشتهر بالتأليف والتصنيف

فى موضوعات كثيرة وتوفى سنة ٢٨١ هـ وقد أشار صاحب « كشف الظنون » إلى كتابه هذا . وأن كان قد فات ابن النديم صاحب « الفهرست » أن يشير إليه فى ثبت رسائله ومؤلفاته

ويشير « حاجى خليفة » إلى كتاب « الشباب والهرم » لأرسطو . ولكنه لا يذكر لنا اسم من نقله إلى العربية ولعله من أوائل الكتب التى نقلت فى العصور الأولى لحركة الترجمة عن اليونانية

ويظهر أن الشريف المرتضى « الشاعر العالم المفسر وشقيق الشاعر الأبى « الشريف الرضى » والمتوفى سنة ٤٣٦ هـ . كانت تحت يديه وهو يؤلف كتابه « الشهاب فى الشيب والشباب » مجموعة من الرسائل والمؤلفات التى ألفت قبله فى موضوع الشيب والشباب وخاصة تلك الرسائل التى تجمع ما قاله الشعراء . حتى عصره فى ذلك المجال ويظهر أن تلك المجموعات الشعرية لم تكن تحوى دائما أحسن ما قيل فى موضوع الشيب والشباب كما هو الشأن دائما فى كتب المنتخبات الشعرية التى تتفاوت خسة وارتفاع بحسب أذواق جامعيها ومقدار تذوقهم الأدبى. كما يظهر ذلك جليا فى الفرق بين الحماستين : حماسة أبى تمام وحماسة البحترى ؛ فقد كان أبو تمام فى اختياره أرق ذوقا . وألطف حسا وألطف ميزانا ، وأصفى اختياراً من تلميذه البحترى

ومن حسن الحظ أن الأيام أبقت لنا من كتب الشيب والشباب كتاب « الشهاب » للشريف المرتضى ، كأنها أرادت ألا تكون المكتبة العربية عاطلة من كتاب فى هذا الميدان ، ولا شك أن الفضل فى صدوره سنة ١٨٨٥ م يرجع إلى العلامة اللغوى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » ومطبعتها الشهيرة بالقسطنطينية ؛ التى كان لها فضل أى فضل على الكتاب العربى القديم . بأخراج مجموعة من كتب التراث وإبرازها إلى عالم النور بعد أن ظلت قرونا متعاقبة حبيسة فى ظلام الخزائن و بطون المكاتب .

لا تتناولها يد ولا تطلع عليها عين لا يفيد منها قارىء ولا يرجع إليها باحث.

لقد قدم فارس الشدياق هذا الكتاب إلى المطبعة العربية لأول مرة سنة ١٨٦٥ م وقد مرت على تلك الطبعة سبعة وتسعون عاماً فلم يفكر أديب عربي محقق بأن يعيد إلى هذا الكتاب الشائع شبابه بأن يعيد طبعه وتحقيقه على أحدث أصول العلم والتحقيق والمقابلة والتخريج ، ليجد فيه أدباء اليوم ، وشباب العصر : أدبا سيظل جديداً لا تبلى جدته ، ولا تذهب بشاشته .

وعلى الرغم مما أطنب به شعراء ما قبل عصر « المرتضى » من شعر في الشيب والشباب والخضاب ؛ فأن التجويد لم يتفق لهم جميعاً ؛ والأحسان في معالجة الموضوع لم يكن لأكثرهم بل لأقلهم ومن هذه القلة الشاعران الطائيان أبو تمام والبحتري وابن الرومي والشريف الرضي — شقيق مؤلف الشهاب

هؤلاء هم الشعراء الأربعة المحدثون بالنسبة إلى عصر المرتضى — الذين رآهم صاحبنا أكثر الشعراء تجويداً في موضوع « الشيب والشباب » ؛ وأكثرهم غوصا على المعاني ، وإدارة لها ولطفا في استخراجها وبلاغة في التعبير عنها

ولم يكن الشريف المرتضى الشاعر العالم المتواضع من أهل الدعوى والغرور والإعجاب بالنفس حتى يضفي على نفسه من الفضل ما ليس به خليقا ، ولكنه تلفت فوجد نفسه من أكثر الشعراء إطالة في موضوع الشيب والشباب ومتابعة له ونظما فيه ، سواء في مضامين المدح ، والتهنئة ، والفخر ، والحماسة : والرثاء والغزل أم في القصائد والمقطعات المفردة الخاصة بالشيب ، فأضاف نفسه إلى شعراء الشيب والشباب ، وأتى بشعره

مع شعرهم ، وضم أزهاره فى هذا المجال إلى باقتهم . فاجتمع من ذلك كله مصدر شعرى أنيق لشعر الشيب والشباب والخضاب فى الأدب العربى حتى سنة ٤٣٦ هـ والحق أن هؤلاء الشعراء الخمسة لم يمتازوا فى هذا الباب بكثرة ما قالوه فيه وأداروه عليه وحسب ، ولكنهم يمتازون — مع الأطناب والأكثار — بالتجويد والتلطف فى المعانى التى يمكن أن ترد على الخواطر السماحة الذكية فى هذا المقام وإلا فأن هناك أبياتا مفردة ، وفقرات متناثرة لأمثال ابن حازم الباهلى القائل عن كل إنسان

ويسلبه الشيب شرخ الشبـاب فليس يعزيه خلق عليـه

ومسلم بن الوليد القائل

الشيب كره وكره أن يفارقنى أعجب بشىء على البغضاء مردود
يمضى الشباب ويأتى بعده خلف والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وعلى بن جبلة القائل فى استثقال حلول المشيب

ألقـى عصـاه وأرخـى مـن عمامتـه
وقال ضيف فقلت الشيب ؟ قال أجل !
فقلت أخطأت دار الغير ! قال ولـم
مضـت لك الأربعون الوفر ثم نـزل !
فما شجيت بشـىء ما شجيت بـه
كأنما اعتم منـه مفرقـى بجبـل !

أليست هذه صورة طريفة لتصوير ضيف نازل ثقيل ؟

لقد سجل « الشريف المرتضى » هذه الأبيات المفردة فى كتابه ، ولكنه جعل أولئك الشعراء الخمسة بيت القصيد فى كتابه فساق لأبى تمام فى « الشيب والشباب » تسعة وثلاثين بيتا وللبحترى مائة وأربعين بيتا .

ولابن الرومي بضعة وأربعين بيتا ، وللشريف الرضي مائتين ونيفا وسبعين بيتا ، كما ساق لنفسه ما يزيد على ثلاثمائة بيت

والحق أن تناول الشريف المرتضى للشيب والشباب في ديوانه الضخم يشكل ظاهرة تلفت النظر ، حتى لقد بلغت قصائد الشيب ومقطعاته في الجزء الأول فقط من ديوانه اثنتين وعشرين قطعة ، ومن هنا كان على حق حين نظم نفسه في سلك شعراء « الشيب والشباب »

ويلتقي شعراء كتاب « الشهاب » في معان ويفترقون في أخرى . ولم يرتب « الشريف المرتضى » كتابه حسب هذه المعاني المتعاورة أو المتغايرة ، ولكنه رتب الشعراء الخمسة واحداً بعد واحد ، وجمع لكل واحد أجود ما وقع له . ومن هنا كان الكتاب جمعا لما قيل ، ولكن المرتضى لم يكتف بالجمع ، بل غلبته طبيعة العالم فشرح ما قد يكون غامضا ، وفصل بالتعليق ما قد يكون مجملا ثم استعمل حقه وذوقه في النقد والموازنة بين معنى ومعنى ، وبين قائل وقائل ، ثم أفاد من نقد « الآمدي » حينا في الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وعلق عليه ،واستدرك حينا آخر ، وبهذا كان كتابه « الشهاب » لونا من كتب النقد الأدبي في نطاق محدود ، بالإضافة إلى كونه كتابا جامعا لما قيل في الشيب والشباب من شعر

و « الشباب » عند شعراء « الشهاب » يمثل شيئاً جميلا نضيراً في الحياة ، فهو يجمع بيض الأيام ونعيمها كما يقول « الشريف الرضي » متحسراً عليه

ألا أين ذاك الشباب الرطيب   أم أين لي بيض أيامه ؟
مشى الدهر بيني وبين النعيم   ظلما وغيَّر من حاليه

و « الشباب » يمثل جديد العيش كما أن « الشيب » يمثل العيش الخلق البالي كما قال البحتري

خَلَقٌ العيش في المشيب وإن كا
ن نضيراً وفي الشباب جديده

الشباب قصير العمر على غضارة حسنه وجماله كما يقول البحتري أيضاً:

وأرى الشباب على غضارة حسنه وجماله عدداً من الأعداد

والشباب تنقضي معه البشاشة واللهو وهو حين يفارق لا يعود كما قال الشريف المرتضى

لا تطلبي مني الشباب فما عندي شباب والشيب قد وفدا
أين شبابي وقد أنفت على الستين سناً وجزتها عددا
فمن بقي عندي البشاشة واللهو وبعض النشاط ما وجدا
وقد مضى من يدي وفارقني ما لا أراه براجع أبدا

وتلح فكرة عدم رجعة الشباب على الشريف المرتضى أكثر من مرة فيقول

ولا تطلبي شرخ الشباب وقد مضى فذلك شيء ما أراه يؤوب

ويسبق البحتري إلى هذه الفكرة فيقول

نضوت الصبا نضو الرداء وساءني
مضى أخي أنس مني عض لا يجي

والمرء بعد الشباب يغدو كأنه ربع موحش أو واد مجدب كما يقول المرتضى

كأني ربع بعده غير آهل وواد جفاه القطر غير خصيب

ومن هنا يتحسر عليه الشريف الرضي وعلى الغض من ورقه الناضر قائلا

واهاً على عهد الشباب وطيبه والغض من ورق الشباب الناضر!

ويديم الشريف الرضي التحسر عليه قائلا من قصيدة أخرى

لهفي لأيام الشباب على نـــدى ... أطرافهن وظلهن الأبرد !
أيام أنفض للمراح ذوائـبي ... وأروح بين معذِّل ومفند

ويتذكر «المرتضى» زمن الشبيبة فيحييه، ويدعو له بالسقيا والمطر ويصف أيامه قائلا

زمن الشبيبة ! لا عدتك تحيـة ... وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا
فلطالما أضحى ردائي ساحبـا ... في ظلك الوافي، وعودي أخضرا !
أيام يرمقني الغزال إذا رنـا ... شغفا ويطرقني الخيال إذا سرى

وفي الشباب يكون الفتى آمرا ناهيا في حبه وتكون قلوب الحسان في أسره، ويظل في ليل سواده الفاحم ساريا في متاعه كما يقول «المرتضى»

سقى الله أيام الشبيبة ريهـا ... ورعيا لعصر بان عني من عصر !
ليالي لا يعدو جمالي منيـتي ... ولم تردد الحسناء نهيي ولا أمري
وليل شبابي غارب النجم فاحـم ... ترى العين تسري فيه دهرا بلا فجر
وإذ أنا في حب القلوب محكـم ... وأفئدة البيض الكواعب في أسري !

ولكن مع الأسف تتحول حلاوة أيام الشباب إلى مرارة أوقات المشيب، متى استحالت الشعرات السود إلى شعرات بيض، فتحول عن وصله الحبيب؛ كما يقول البحتري

شعرات سود، إذا حلن بيضا ... حال عن وصله المحب الحبيب
مر بعد الشباب ما كان يحلـو ... مجتناه من عيشنا ويطيـب

والشباب لا يعرف قدره، ولا يرى حق رؤيته إلا في زمن المشيب، وهكذا كل شيء لا يعرف إلا بعد فقده وعند عدمه كالشمس لا يعرف

فضلها إلا حين تمتلىء الأرض بالظلام ، ومن هنا وجب البكاء على عهد الشبيبة بالدموع ، ويعبر ابن الرومى عن هذا بقوله

لا تلح من يبكى شبيبته ... إلا إذا لم يبكها بدم
عيب الشبيبة غول سكرتها ... مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها ... إلا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها ... حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شىء لا يبينه ... وجدانه إلا مع العدم

ولم يطل الشعراء فى الحديث عن الشباب مثل ما أطالوا الحديث عن الشيب ولعل الفرحة بالشباب والمتاع بنضارته تغنى عن الحديث فيه ، أما التحسر على الشباب فى زمن المشيب فيقتضى إسرافا دائما فى الحديث عن المشيب ومن هنا كان شعر الشيب فى كتاب « الشهاب » أوفر عددا وأكثر تنوعا من شعر الشباب

وليس من الضرورى أن يكون بياض المشيب نتيجة لكبر السن وتطاول العمر فقد يأتى الشيب من كثرة الهم وإلى هذا يشير أبو تمام بقوله

نال رأسى من ثغرة الهم لما ... لم ينله من ثغرة الميلاد

وقد لوحظ أن الشعر الأبيض يتكاثر وينمو بسرعة ، وكل شعرة بيضاء تعدى أختها فوصف البحترى ذلك وشبه تكاثره ونموه بنمو السر حين لا يصبر صاحبه على كتمانه أو حين يضيق به صدر مذيعه . فقال وأحسن

مشيب كبث السر عى خمسه ... محدثه ، أو ضاق صدر مذيعه
تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه ... لحث الليالى قبل أتى سريعه !

وهذا الشريف المرتضى يجعل أوائل المشيب أواخر العمر فيقول

أجرر خيل الصبا جامحـــا بلا آمر وبلا زاجـــر
إلى أن بدا الشيب فى مفرقـــى فكانت أوائله آخـــرى

ويعود إلى هذا المعنى مرة ثانية فى مقطوعة أخرى فيقول

وما الشيب إلا توءم الموت للفتى وعيش امرىء بعد المشيب جهاد

وأيا ما كان الأمر فقد جعل الشيب نظيراً للموت لأنه مؤذن به، ومدن إليه: فالشريف الرضى يذم طلوع الشيب لأنه قرب الطلوع إلى المنية

ولم أذمم طلوعك بى لشـــىء سوى قرب الطلوع إلى شعوب

ويراه مرة أخرى يسوق صاحبه سوقا عنيفا نحو الموت. فيقول

كان الشباب دجنة فتمزقت عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول فخلفه روحات سوق للمنون عنيف

ويراه مرة ثالثة وهو يحل بالهموم ويرحل بأنباء الأجل، فيقول

يجىء بالهم، ويمضى بالأجل فأوه إن حل، وواها إن رحل!

ويراه مرة رابعة، بعد سواد الشباب، وقد صار رائداً للأجل فيقول:

وروضة من سواد الرأس حالية كان المشيب إليها رائد الأجل

أما أخوه الشريف المرتضى - مؤلف كتاب الشهاب - فيرى الشيب مدنيا من الموت فى قوله

أليس الشيب يدنى من مماتـــى ويطمع من قلانى فى رواحى؟

ويعاود المعنى مرة أخرى فى قوله من مقطوعة أخرى مفردة فى الشيب:

يقولون لى لم أنت للشيب كاره فقلت طريق الموت عند مشيبى

وقد نظر البحترى إلى هذا المعنى نظراً خفيا لماحا فى قوله

يعيب الغانيات علىّ شيـــبى ومن لى أن أمتع بالمعيب؟
ووجدى بالشباب وإن تقضى حميدا دون وجدى بالمشيب

وإنما جعل البحترى وجده بالشباب أقل من وجده بالمشيب لأنه

يفارق الشباب بالشيب وصاحب الشيب باق فى الحياة على كل حال ، والشيب لا يفارق إلا بالموت

ومن لطائف الشاعر الشريف المرتضى أنه هون نزول الشيب بجعله بدلا من المنية وفداء من الموت فالشيب على كرهه وبشاعته أخف كثيراً من الهلاك ويقول فى هذا

وقائل لى الدهر لما بغيت أما المشيب أو المهلك !
فقولى وأنت تعيبيني لأى طريقيهما أسلك ؟

ولا شك أن الحبيبة هنا وفى هذا المأزق الحرج تؤثر شيب صاحبها على مماته ! وقد صرح « المرتضى » فى مقطوعة له أخرى بهذا الخيار بين أمرين أحلاهما مر فقال

وإن أنت يوما تخيرت لسمى فشيبى أصلح من ميتتى !
فلا تعضبى من صنيع الزمان فما لك شىء سوى الغضبة !

ويبدو أن بعض الشعراء لما وجدوا الشيب خطراً لا بد منه ، وقضاء — لمن امتد عمره — لا محيد عنه فأنهم حاولوا أن يهونوا من شأنه ، ويخففوا من وقعه على النفوس وأن يسلوا النفس عن مكروهه بأضفاء بعض المحاسن إليه وخلع بعض المزايا عليه . وبالطبع هذه مغالطة مكشوفة فهذا الشاعر أبو تمام يقول أن التماع بياض المشيب فى الرأس هو بسمة الرأى والأدب

فلا يؤرقك إيماض القتير به فأن ذاك ابتسام الرأى والأدب

أما الشاعر البحترى فيحسن بياض المشيب بأنه ليس عاراً ، ولكنه جلاء الشباب فيقول

عيرتنى المشيب وهى رمته فى عذارى بالصد والاجتناب
لا تريه عاراً فما هو بالشيب ولكنه جلاء الشباب !

ويعود البحترى فيهدىء من ارتياع المحبوبة حين رأت الشعر الأبيض يلم به، فيزين لها بياض المشيب بأنه أنيق أناقة الأقاحى البيض فى الرياض، وبأن بياض المشيب يكمل سواد الشباب، كما يكمل بياض العين سوادها. فيقول

ورأت لمة ألم بها الشيب فريعت من ظلمة فى شروق
ولعمرى لولا الأقاحى لأبصر ت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يكمل ببياض ما كان بالموموق

وقول البحترى هنا شبيه بقول الشاعر القديم «أبى عبد الله الأصبهانى» وقد رواه الشريف المرتضى غير منسوب لقائل ولكننا حققنا الرواية عن أبى هلال العسكرى فى كتابه «ديوان المعانى» حيث يقول

لا يرعك المشيب يا ابنة عبد الله فالشيب زينة ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت فى خلالها الأنوار!

وينصف الشريف المرتضى «الشيب» بأن «الشباب» على عنفوانه وريعانه لا يحمى صاحبه من الموت، فكيف تنتظر من المشيب حماية لنا من الموت؟ فإذا كان لابد من جزع فإنه يكون فى جميع الأحوال أى فى الشيب والشباب، ويقول فى هذا الخاطر

وأراك من خطر المشيب تو جعى علمى بأن ليس الشباب بمعقلى
فلئن جزعت فكل شىء مجزعى ولئن أمنت فشيمة المسترسل

والحق أن «الشريف المرتضى» أخذ مسألة الشيب ببساطة فلم يرتع لها كما ارتاع غيره من أعداء الشعرات البيض... وحاول أن يقنع نفسه بأن الشيب ما هو إلا تبديل لون بلون ورداء برداء... وأن الشيب لم يضعف منه قوة، ولم ينقص منه بأسا أطال به على العداة وأعرض... فقال وأجاد

لم ينتقص مني أوان نزولـه بأسا أطال على العداة وأعرضا
فكأنما كنت امرأ مستبدلا أثوابه كره السواد فبيضا !

وعاد فكرر هذا المعنى في مقطوعة أخرى حيث يقول

فلا تنكري لونا تبدلت غيره كمستبدل بعد الرداء رداء

ويلتقي الشريف المرتضى في هذا المعنى المتكرر مع شاعر آخر لم يذكر لنا اسمه ، يقول

لم ينتقص مني المشيب قلامة الآن حين بدا ألب وأكيس (١)

وواضح أن الشريف المرتضى كان مخلوع الفؤاد أمام المشيب ! ولكنه كان يستر فزعه بالتجلد ، ويخفي مخاوفه تحت ستار التشجع . فإذا علل نفسه يوما بأن الشيب طريق إلى الحلم والحجى ، فإنه لا يلبث أن يعود إلى الحقيقة المؤلمة فيتساءل ساخرا : ما قيمة الحلم إذا كانت نتيجته الموت الوشيك ؟ ثم يقرر — ساخرا أيضاً — بأنه كفاه ما قبل المشيب من الحلم

وقالوا أتاه الشيب بالحلم والحجى فقلت : بما يبري ويعرق من لحمي
وما سرني حلم يفيء إلى الردى كفاني ما قبل المشيب من الحلم !

ثم يتنبه مرة أخرى إلى أنه حين يضفي المحاسن على المشيب فإنما يخادع نفسه . . فإذا قيل له — على سبيل التسلية والتعزية — إن المشيب نباهة ، تمنى أن يبقى عليه خمول الشباب ، فما جدوى نباهة تدني من نهاية العمر ؟ :

قالـوا المشيب نباهـة ، وأود أن يبقى على من الشباب خمولـه !
والفضل في الشعر البياض ، وليته لم يشجني بفراقه مفضولـه !

و « المرتضى » في ثاني البيتين يقول إذا كان البياض في الشعر فضلا — كما يقول المغالطون — فياليت سواد شعر الشباب المفضول لم يحزنه

---

(١) أي أكثر لبا وأشد كياسة .

بفراقه. ويا ليت هذا الشعر الأسود ظل باقيا ولم يفسح الطريق لبياض المشيب

والحق أن بياض المشيب قد أخذ من شعراء الشيب والشباب اهتماما كثيراً فإذا كان بياض الشيب ناصعا فى العين والنظر ؛ فأنه أسود فاحم فى القلب . وقد عبر عن هذا الشاعر أبو تمام بقوله

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع

وقد أكثر أبو تمام من التبرم بهذا الأبيض المظلم، وهذه الغرة البيضاء المرة ، وقال أنه كان أغر أيام أن كان شعره أسود ؛ فالسواد غرة ، أما البياض فليس غرة إلا فى ظاهرة اللون ، وهذه الشعلة البيضاء فى المفارق لا تخلف فى القلب إلا الشكل

شعلة فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثكلا صميما
غرة مرة ألا إنما كنت أغرا أيام كنت بهيما (١)

وقد تابع « الشريف المرتضى » شاعرنا أبا تمام فى الحملة على «بياض» المشيب ؛ ووصفه بأنه هو السواد الحالك بعينه ، فيقول فى قطعة مفردة خاصة بالشيب

شعر ناصع ووجه كئيب إن هذا من الزمان عجيب

يا بياض المشيب لونك لو أنصفت رائيك حالك غربيب
ثم يقول فى قصيدة
لا مرحباً بالشيب ! أظلم باطنى لما تجلاني ، وأشرق ظاهرى!

ويقول فى قصيدة أخرى

---

(١) اى اسود الشعر كالليل البهيم .

لا مرحباً ببياض رأسي زائراً أعيا عليَّ حلوله ورحيله !

وقد تنبه أبو تمام فى لمحة ذكية إلى أن الأبرار يعودون فى الجنة شباناً لا شيباً ، فلو كان فى الشيب فضل لجاور الأبرار ربهم فى الخلد شيباً لا شباناً وما أظرفه وهو يقول

لو رأى الله أن فى الشيب فضلا جاورته الأبرار فى الخلد شيبا !

وقد التمس ابن الرومى الأعذار للحسان إذا أعرضن عن أصحاب الشيب وانصرفن عنهم . فأن بياض الشعر قبيح فى ذاته وإذا نظر الشيخ إلى مرآة ورأى فيها بياض شعره استقبح شكله ، واستفظع منظره . فما الشأن بالغوانى إذا رأينه ؟ وإذا كرهت عين الفتى وجه نفسه ، فأن عين غيره أجدر بالكراهية. وهنا أجاد ابن الرومى معنى وتعبيراً حيث قال

إذا ما رأتك البيض صدّت وربما
غدوت وطرف البيض نحوك أصور (١)
وما ظلمتك الغانيات بصدها
وإن كان من أحكامها ما يجور
أعر طرفك المرآة وانظر فأن نبا
بعينك عنك الشيب فالبيض أعذر !
إذا شنئت عين الفتى وجه نفسه
فعين سواه بالشناءة أجدر ! !

والبياض لون محبوب لأنه يشبه — أو يشبه به — الضوء ، والنور ، والشمس ، والأقاحى ، والنهار ، والنوار إلا بياض المشيب وضوءه وقبسه ونوره فأنه عند « الشريف الرضى » ضوء لا يستضاء به ولا يستصبح ، حيث يقول مخاطبا المشيب فى ظرف ولطف وعتاب

---

(١) أصور : مائل إليك .

إن أشك فعلك فى فراق أحبتى · · · فلسوء فعلك فى عذارى أقبح
ضوء تشعشع فى سواد ذوائبى · · · لا أستضىء به ولا أستصبح !

بل هو عند الشريف الرضى أيضاً تسير المنية على هداه إلى صاحب الشيب ، أما سواد شعر الشباب فلا تهتدى المنايا فيه... وهكذا كل شعرة بيضاء نابتة فهى ضوء تعشو المنايا إليه ، وتسير على هداه إلى ذى الشعر الأبيض :

وأرى المنايا إن رأت بك شيبة · · · جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب وتهتدى · · · وتضل فى ليل الشباب الغابر

والحق أن « الشريف الرضى » لم يكن ابن بجدة هذا المعنى الطريف وقد كشفه أخوه « الشريف المرتضى » مؤلف الكتاب الذى نعرضه هنا ، فدل على أنه مسبوق إليه وأن السابق إليه هو ابن الرومى كما يقوى فى ظنه ، وهى لفتة من الشريف المرتضى تدل على أن الحق عنده فوق كل اعتبار ، ولو كان اعتبار الأخوة وقد أورد المرتضى أبيات ابن الرومى هكذا

كفى بسراج الشيب فى الرأس هاديا · · · إلى من أضلته المنايا لياليا
أمن بعد إبداء المشيب مقاتلى · · · لرامى المنايا تحسبينى ناجيا ؟
غدا الدهر يرمينى فتدنو سهامه · · · لشخصى وأخلق أن يصبن سواديا
وكان كرامى الليل يرمى ولا يرى · · · فلما أضاء الشيب شخصى رمانيا

وعلق عليها تعليقاً أدبياً جميلا وخاصة على البيت الأخير حيث قال (ولقد أحسن -- يعنى ابن الرومى -- فى البيت الأخير كل الإحسان ، لأن المعنى الذى قصده تكامل فيه ، وانتهى إلى الغاية عنده وساعده اللفظ وحسن العبارة فلم يبق عذر فى قبول القلوب له وعلوقها به ، ومن شأن ابن الرومى أن يورد المعنى ثم يأخذ فى شرحه فى بيت آخر

وإيضاحه وتشعيبه وتفريعه فربما أخفق وأكدى . وربما أصاب فأصمى ، لأن الشعر إنما تحمد فيه الإشارة والاختصار والإيماء إلى الأغراض وحذف فضول القول وفي هذه الأبيات قد اتفق له أنه لما كرر المعنى وأعاده وأبدأه خلص في البيت الأخير . وصفا ، وعذب مذاقه)

وهذا النقد يمثل لنا المذهب الغالب في نقد الشعر عند العرب الذين لم تعجبهم طريقة ابن الرومي في تحليل المعنى وتشقيقه وتقصيه إلى درجة استهلاكه

والطريف عند الشريف المرتضى أنه لم يكشف عن أخذ معنى ابن الرومي عند أخيه الشريف الرضي وحسب بل كشف عن أخذه هو نفسه هذا المعنى بعينه حيث يقول

ولاح بمفرقي قبس منير يدل على مقاتلي المنونا

ولم يكتف « المرتضى » بأخذ معنى ابن الرومي مرة واحدة ، وكأنه استحلاه فأخذه مرة أخرى في قطعة مفردة في ذم الشيب حيث يقول

وزارني لم أرد منه زيارته شيب . ولم يغن أعواني ولا حرسي
يضيء بعد سواد في مطالعه لفاغر من ردى الأيام مفترس

وإذا كان بياض المشيب قد شبه بتشبيهات كثيرة . فأن تشبيه بغبار حروب الزمان ومعارك الأيام هو من التشبيهات العجيبة المصيبة الموفقة وقد حلل الشريف المرتضى أبيات أخيه الشريف الرضي التي يقول فيها

وما شبت من طول السنين وإنما غبار حروب الدهر غطى سواديا

ولكن طبيعة العالم الناقد لم تفته فقال إن هذا التشبيه شبيه بقول ابن المعتز

قالت «كبرت وشبت» قلت لها هذا غبار وقائع الدهـــر !

فدل فى أدب ناعم على أن أخاه « الرضى » مسبوق إلى هذا المعنى ، وأنه أخذه من ابن بجدته ابن المعتز

وتحضرنا بهذه المناسبة حول هذا المعنى نكتة يسوقها المقام ويقتضيها ، فقد توهم العماد الأصفهانى فى « الخريدة » حين روى بيت « الغزى »

مسحت عارضى وما ذاك إلا أنها ظنت المشيب غبـــاراً

توهم أنه كان يظن أنه مبتكر هذا المعنى فى قوله

ليل الشباب تولـــــــى والشيب صبح تألـــق
ما الشيب إلا غبـــــار من ركض عمرى تعلـــق

ولم تفت هذه الدعوى من العماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ على « الشهاب الخفاجى المصرى » صاحب « ريحانة الألبا » والمتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ، فأنكر على العماد أن يتوهم أنه مبتكر هذا المعنى (مع قول ابن المعتز قالت كبرت الخ ، وهو مسطور فى ديوانه ، وقد تابعه عليه كثير من الشعراء ، وتطفل عليهم العماد ، لكنه طفيلى !) فانظر كيف لا يسكت الشعراء عن هتك المستور ، ونبش المطمور ، ولو بعد بضعة من العصور !

و « الشيب » — على جملته — ذنب لا عذر منه عند الحسان ، ولا يدرى شاعر كالبحترى كيف يحمل عند محبوبه ذنب المشيب ، حتى كأنه هو الذى ابتدعه ، مع أنه لا يد له فيه ، فيقول

وحُمِّلت عندك ذنب المشيب حتى كأنى ابتدعت المشيبا

بل هو عند الشريف الرضي من شر الذنوب عند البيض الحسان. حيث يقول

ما لقائي من عدوى   كلقائي من مشيبي
موقد ناراً أضاءت   فوق فوديّ عيوبي
وبياض ، وهو عند البيـ   ـض من شر ذنوبي

ويشترك الشريف المرتضى مع البحتري في توهمه - أو توهم الحسان على الأصح - أنه هو الذي جنى المشيب ، فيقول مقلداً البحتري

وبيض راعهن البيض (١) مني   فقطعن العلائق من حبالي
جعلن الذنب لي حتى كأني   جنيت أنا المشيب على جمالي !
وليس الشيب من جهتي فأخشى   ولا رد الشبيبة في احتيالي !

وكأن (المرتضى) استحلى هذا المعنى المسبوق إليه . فكرره غير مرة في مثل قوله

وبيض لواهن المشيب عن الهوى
فأزررن (٢) من وصلي وأوسعن من هجري
وألزمني ذنب المشيب كأنما
جنته يداي عامداً آخر الدهر !

ويضاف إلى كراهة الشيب وبغضة شكله ومساءة نفره ثقل محمله وما صور شاعر من شعراء « الشباب » هذه الناحية كما صورها الشريف الرضي حيث يقول

---

(١) البيض الاولى هي الحسان ، والثانية هي وصف للشعرات البيض
(٢) أزررن من وصلي أي جعلنه نزراً قليلا

واللمة البيضاء أهون حـــادث ... فى الدهر لو أن الردى لا يعجل
ولقد حملت شبابها ومشيبهـــا ... فأذا المشيب على الذوائب أثقل(١)

ولم يكن سائغا أن يتحدث كتاب عن « الشيب والشباب » دون الطروق إلى حديث « الخضاب » ومهما كان فى الخضاب من إحسان بأخفاء لون البياض المكروه فإن الشعراء على كل حال لم يقبلوه ولم يرضوا بخداعه ، وكيف يخدع المرء نفسه ؟ فوجدنا أكثرهم يذمه. حتى ليقول فيه « المرتضى »

ولو كنت يوما بالخضاب موكلا ... خضبت لمن يخفى عليه خضابى
فأن تعطنى أولى الخضاب شبيبة ... فأن له أخرى بغير شباب
وأى انتفاع لى بلون شبيبـــــة ... ولون إهاب الشيب لون إهابى؟

ومعنى البيت الأخـــير كيف أدلس بيـــاض شعرى بتسويده بالخضاب مع أن لون جلدى المتغضن المتشنج من أثر الشيخوخة لا يليق بالشباب ؟ وكان « المرتضى » — باعترافه — يظن أنه متفرد بهذا المعنى حتى وجد لابن الرومى من قبله قوله

رأيت خضاب المرء عند مشيبه ... حداداً على شرخ الشبيبة يلبس
وإلا فما يغزو امرؤ بخضابـــه ... أيطمع أن يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب ... وكل ثلاث صبحه يتنفس ؟
وهبه يوارى شيبه . أين مـــاؤه ... وأين أديم للشبيبة أملس ؟

ومع كراهة الشعراء للشيب ، فأنهم تمنوا لو بقى لتبقى معه الحياة وهذا شاعرنا البحترى يقول

فهل الحادثات يا ابن عويـــف ... تاركاتى ولبس هذا البياض ؟

ثم يكرر المعنى فى قصيدة أخرى فيقول

يعيب الغانيات على شيـــبى ... ومن لى أن أمتع بالمشيب؟

وقانا الله جميعا الحادثات فى سواد الشباب وبياض الشيب على السواء ! !

---

(١) الضمير فى شبابها ومشيبها يعود على اللمة

استلهام الشعر والكتابة بغرائب العادات والحالات

لوحظ أن الكثرة الكاثرة من أصحاب الفنون الشعرية والكتابية يلجأون فى عملية الإبداع الفنى إلى وسائل يراها الشخص العادى متسمة بسمة الغرابة بل قد يراها مطبوعة بطابع الشذوذ. وكثيراً ما تصاحب عمليات الخلق الفنى عادات وحالات لا تفسير لها فى إجادة العمل الفنى ذاته ولا دخل لها فى كيانه. ولكن الفنان يجد فيها راحة وعونا على إنجاز الأثر الفنى المراد فى سهولة ويسر

وكما أن هناك عادات فى نظم الشعر والكتابة يلتزمها أهل الفن من الشعراء والكتاب فأن هناك عادات غريبة فى القراءة. وهى عملية عقلية ليس فيها خلق ولا إبداع كما فى حالتى الشعر والكتابة فقد كان من عادة الشاعر الإنجليزى «شيلى» أن يقرأ وهو واقف. وقلما شوهد وهو يقرأ جالسا إلى منضدة، أو مستلقيا على مقعد أو على فراش. وقد شهد صديقه «تريلونى» أنه رآه واقفاً ثمانى ساعات متتابعة وهو يقرأ بجوار مدفأة غرفة مكتبه. دون أن يغادر مكانه أو يجلس أو يتبلغ بلقمة من طعام

ويختلف الشعراء والكتاب فى الأوقات التى يرونها أكثر ملاءمة لإجادة إنتاجهم فنرى البلاغى «بشر ابن المعتمر» يوصى فى «الصحيفة» التى كتبها لطلاب البيان بأن يتخيروا للعمل الفنى ساعة الفراغ وفراغ البال، حين تكون النفس أكثر استجابة. وأسرع أجابة. ولم يحدد لنا «بشر» ساعة زمنية لهذا الفراغ فقد تكون فى أى وقت من الليل والنهار وإذ كان «ابن قتيبة» قد جعل للشعر أوقاتا يسرع

فيها أتيه ، ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء على أن الشاعر « أبا تمام » قد رجع بصدر النهار إلى وقت السحر فليس يفتح المغلق من محار الخواطر مثل مباكرة الأعمال بالأسحار عند الهبوب من النوم ، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها فى أسباب اللهو والمعيشة ، ولكونها مقدمة على مواجهة العمل بعد نوم مريح ، ولأن السحر ألطف هواء وأعدل ميزانا بين الليل والنهار . أما العشى فتكون النفس فيه كالَّة مريضة من تعب النهار . وتكون مقبلة على النوم لا خارجة منه كما فى السحر

ومن الشعراء الذين لم يتقيدوا بوقت ولا مكان فى عملية الخلق الفنى الشاعر أحمد شوقى . ويقول عنه صديقه ورصيفه خليل مطران إنه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم فى المركبة ، وفى السكة الحديدية ، وفى المجتمع الرسمى ، وحين يشاء وحيث يشاء.....
وكذلك يفعل صديقنا الشاعر المهجرى المرحوم « إلياس فرحات » ، فهو يقول عن نفسه فى كتابه « قال الراوى » الذى ترجم فيه حياته الذاتية :
(وأنا لا أجلس إلى مكتبة لأنظم ، ولكنى أنظم شعرى ماشيا فى السوق ، أو مسافرا فى الحافلة ، أو فى القطار أو نائما فى الفراش) . على أن هذا معناه أن الشاعر فرحات لا يتقيد بالهدوء من حوله . ويكتفى بأن يكون هو فى نفسه هادئا ، على حين نجد الصديق المرحوم الشاعر « محمد مصطفى الماحى » يصرح بأن خير الأوقات عنده لصوغ الشعر هو عند هدوء البال وراحة النفس ، وفى هدأة الليل أو يقظة الفجر ، وحين يخلو إلى الرياض ، أو ينظر إلى البحر الفسيح العميق . أما المرحوم « أحمد رامى » فأحسن الأوقات التى ينظم فيها الشعر هو وقت الغسق وحينما يشعر أنه مستيقظ والناس نيام على حين نجد شاعراً مثل الصديق المرحوم الأستاذ على الجندى العميد السابق لكلية دار العلوم ليس له وقت خاص للنظم . ولكنه يفضل وقت السحر والأصيل فيبدأ

فيهما عملية الإبداع ولكنه لا يهمه بعد ذلك متى ينتهى من النظم مادام قد بدأ فيه ويصرح لنا الصديق الشاعر محمد الأسمر -رحمه الله- بأنه ليس لنظم الشعر عنده وقت خاص ولا مكان خاص (فأنه حينما تحضر شياطينه أو ملائكته يأخذ علىَّ كل وقتى حيثما كنت فأقول وأنا فى المنزل وأقول وأنا فى الطريق وأقول وأنا وحدى . وأقول وأنا مع الناس كل ذلك وأنا فى شبه غيبوبة)

ويقصد بعض الشعراء بالعزلة فى أثناء عملية الإبداع الانقطاع التام عن رؤية الناس والبعد عن مخالطتهم على حين يقصد بعضهم الانقطاع فقط عن مشاركتهم فيما هم فيه من أمور الحياة فهم ينظمون الشعر فى المقهى . وفى السيارة الحافلة وعلى المائدة دون التفات إلى ضجيج الناس وزحمة الدنيا بالأحياء . فهم يستغرقون فى خيالاتهم وتصوراتهم الشعرية دون أن ينصرفوا إلى مشاركة الناس أو الخوض معهم فيما يخوضون فيه ونستطيع أن نضم إلى هذا الفريق أيضاً الشاعر السورى «محمد مجذوب» الذى يعبر عن ذلك بدقة ووضوح لبعض سائليه من أهل التحقيق العلمى ومن الذين لم يشغلهم الالتقاء بالناس عن الكتابة والتحرير الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) ومحرره. والمرحوم داود بركات رئيس تحرير الأهرام، وأنطون الجميل. فقد رأيتهما لا ينشغلان برواد مكتبهما عن إنجاز المقال الافتتاحى للأهرام ويذكرنا هذا بما كان يفعله « ويلز » الكاتب المفكر الإنجليزى المشهور . كان يستطيع أن يكتب أعمق البحوث متى شاء وأين شاء . فى مكتبه . أو فى القطار . أو تحت مظلة واسعة على رمال شواطىء البحر المتوسط

وليس من الضرورى أن يجلس الشاعر أو الكاتب إلى مكتب ليدون قصائده أو خطراته فأن بعض الشعراء والأدباء والروائيين كانوا ينفرون من الجلوس إلى منضدة أو مكتب . ويتحاشون ذلك جهد

طاقتهم ومن هؤلاء الكاتب الروائي الشهير « الكسندر دوماس » الأب فما عرف عنه أنه جلس يوما إلى نضد لتأليف رواية ، بل كان يستلقي على مقعد مريح ، ويسند كتفه إلى إحدى الطنافس الوثيرة ! وهذا الاستلقاء قد عرفه أدباء العرب من قديم وأشاروا إليه وأشادوا بقيمته في استحضار الإنتاج وسهولة جمعه فهذا « ابن رشيق القيرواني » الأديب الشاعر الناقد وصاحب كتاب « العمدة ، في صناعة الشعر ونقده » يؤكد لنا أنه مما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظهره

ولا بأس من بعض العادات السوية غير الشاذة التي تعين الشاعر على النظم ، وتساعد الكاتب على الكتابة ، فأن انبساط النفس وراحتها بمنظر جميل أو سماع لحن رقيق أو راحة عقب حمام مثلا مما يعين القريحة على الأجادة ، والذهن على الصفاء ، والخيلة على التوهم ، والتخيل وحسن التصور وقد سأل ابن رشيق القيرواني شيخا من شيوخ الصناعة والحذق في الشعر عما يعينه على الإجادة في النظم ، فقال زهرة البستان ، وراحة الجمال والحق أن هذه المعينات لا حصر لها بل هي كل ما يبهج النفس ، ويسر الخاطر ، ويريح الذهن ويرخي الجسد من التوتر وقد تكون مشهدا حسنا ، أو غناء رقيقا ، أو طعاما طيبا ، أو شرابا هنيئا ويروى في هذا المقام أن قريشا حين أرادت معارضة القرآن لجأ فصحاؤهم إلى أمثال هذه المعينات على صفاء الطبع ، وجودة القريحة فعكفوا على لباب البر ، وسلاف الخمر ، ولحوم الضأن والخلوة ، إلى أن بلغوا مجهودهم فلما سمعوا قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي . وقيل بعدا للقوم الظالمين) يئسوا من الذي كانوا يطمعون فيه . وعلموا أنه ليس بكلام

مخلوق وتؤكد لنا هذه الرواية أن الخلوة والابتعاد التام عن مخالطة الناس هى واحد من المعينات التى كان يلجأ إليها أهل الفنون والشعر من زمان بعيد

وقد لجأ بعض الشعراء إلى استدعاء الشعر العصى بكل وسيلة توهموا تذل له مقادته وتجعله يأتيه طوعا وكثيراً ما كان يلجأ الشاعر (كثير) صاحب عزة إلى تطويع الشعر وتيسيره بوسائله الخاصة وقد سئل يوما ماذا تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة . فيسهل على أرصنه، ويسرع إلى أحسنه ! على أن للأصمعى الراوية الأديب رأيا فى هذا الاستدعاء فهو يقول (ما استدعى شارد بمثل الماء الجارى والشرف العالى . والمكان الخالى — أو الحالى) — والشرف هنا هو ما ارتفع من الأرض والحق أن المرتفعات تثير فى النفس ما لاتثيره الأرض الوطيئة المنخفضة وقد شوهد « الشاعر عبد الكريم » من أهل شمالى أفريقية وهو على سطح برج عال هنالك ، وقد كشف الدنيا من عل فسأله بعضهم ما تصنع ههنا ؟ قال ألقح خاطرى ، وأجلو ناظرى ! فقال له السائل وهل نتج لك شىء ؟ فقال ما تقر به عينى وعينك إن شاء الله ، وأنشد سائله شعراً يدخل مسام القلوب رقة ! فسأله أهذا اختيار منك اخترعته ؟ قال بل برأى الأصمعى !

وكثيراً ما كان الشاعر « الفرزدق » إذا ما صعب عليه عمل الشعر يركب ناقته ويطوف خاليا منفرداً وحده فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده ويسلس له مقادته وليس من الضرورى فى خطرات الشعر أن لا يشغل الشاعر نفسه بما عداها من أعمال فقد جمع الشاعر بين عملية النظم وبين عمل آخر يمارسه فى وقت واحد دون أن يصرفه العمل عن النظم :

ويحدثنا الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي - رحمه الله - أنه كثيراً ما كان ينظم الشعر في الأوقات التي يعالج فيها مرضاه والمترددين على عيادته ، بل كثيراً ما كان يثب إلى ذهنه معنى شعري وهو يفحص مريضاً . فلا يجد عندها مفرا من قطع عملية الفحص الطبي بتدوين الشعر الذي خطر له !

ورفع الصوت بالغناء في خلال عملية الإبداع الشعري جائز ولا اعتراض عليه ، وخاصة إذا كان التغني بالشعر نفسه الذي ينظمه لتوه . ومن هنا قالوا إن مقود الشعر هو الغناء به . وقد كان أبو الطيب المتنبي يفعل هذا ولا يجد فيه حرجا ولا صرفا عن عملية النظم . فقد ذكر بعض الرواة أن متشرفا تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التي مطلعها

جللا كما بي فليك التبريح أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح ؟

وهو يتغنى ويصنع ، فإذا توقف بعض التوقف رجع بالأنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها

ومن أهل الشعر وأصحاب الكتابة من كان يحب الكتابة في وضح الشمس ونورها الغامر . لا يحب أن تحجب عنه بحجاب أو ستر . وكثيراً ما كان « جان جاك روسو » لا يستطيع أن يؤلف شيئاً جديراً يحمل اسمه إلا إذا غمرت الشمس الفضاء بأشعتها ، وانسكب ضوؤها الدافىء على رأسه . وهو في هذا على الضد من الكاتب الروائي الفرنسي « أميل زولا » الذي كان شديد الحرص على إغلاق نوافذ مكتبه . وإسدال الستائر عليها ، لأن أشعة الشمس ووميضها كثيراً ما كانت تعوقه عن الكتابة . ومن شعرائنا المعاصرين الذين لا يواتيهم النظم في ضوء الشمس ونورها ، الشاعر

السورى « رضا صافى » ، فقد كان يعمد فى النهار إلى حجب نور النوافذ بأرسال ستائرها

ولبعض الشعراء والكتاب لوازم فى اختيار الأقلام التى يدونون بها ، والأوراق التى يكتبون عليها فالشاعر الساخر « فولتير » كان لا يبدأ الكتابة فى موضوع إلا عندما يضع أمامه مجموعة من أقلام الرصاص لا يقل عددها عن اثنى عشر قلما وبعد أن ينتهى من الكتابة يكسر هذه الأقلام ثم يلفها بالورقة التى كان يكتب عليها ، ويضعها تحت وسادته عندما يذهب إلى النوم ! والكاتب الروائى « ألكسندر دوماس » الأب كان شديد العناية بانتقاء الورق وألوانه واختيار الأقلام التى يكتب بها ولا يستعمل القلم الذى يكتب به القصص فى كتابة القصائد ! وقد خص الشعر بالورق الأصفر ، والروايات بالورق الأزرق أما مقالاته الصحفية فكان يكتبها على الورق الوردى وما خلط بين لون ولون . ولا حاد عن هذه الطريقة منذ ما بدأ الكتابة . والشاعر السورى « محمد مجذوب » - وقد سعدت بلقائه فى المدينة المنورة - يفضل الكتابة بالحبر على حين أن الشاعر « رضا صافى » لا يكتب إلا بالقلم الرصاص الأسود ، أما الصديق الشاعر المرحوم « أحمد رامى » فلا ينظم الشعر إلا ومعه قلم صغير قصير ، وبصحبته قطعة من الورق مستطيلة

وبالطبع كان الشعراء والكتاب العرب قبل دخول الدخان - أو الطباق - إلى بلاد الشرق العربى سنة ٩٩٩ هـ لا يعرفون عادة التدخين ولا يلجأون إلى الدخان فى استلهام الكتابة والشعر ولهذا لا نجدهم أسرى هذه العادة . أما بعد هذا التاريخ فقد أخذ أصحاب الفنون القولية يدخنون اللفائف والسيجار فى أثناء عملية الخلق الفنى ويستعينون بها على استنزال الوحى فالشاعر « محمد الأسمر » يعترف بأنه فى خلال النظم يحرق من السجائر ما شاء الله أن يحرق ،

والشاعر « رضا صافى » يصرح قائلا (إنى كثير التدخين أثناء النظم ، حتى لأستطيع أن أقول إننى أشعل لفافة التبغ من أختها دون أن أكون مبالغا فى هذا القول) ، والشاعر « على الجندى » -المصرى- يشعل لفافة بعد عملية انخاض الشعرى ويشرب قدحين من القهوة ، ولو أنه قليل التدخين ومهما كان هؤلاء الأدباء المدخنون فلن يبلغوا مبلغ « مارك توين » الأديب الأمريكى الشهير الذى كان (السيجار) لا يفارق شفتيه

وهناك بعض لوازم لبعض الشعراء والكتاب فى خلال عملية الإبداع الفنى ، فالقصاص « تشارلز ديكنز » كان لا يستطيع الكتابة ما لم يلوح بيده بسلسلة ذهبية يديرها فى الفضاء على شكل دائرة ، والشاعر الألمانى « شيلر » كان لا يستطيع الكتابة والنظم إلا إذا وضع قدميه على لوح من الثلج واستنشق ريح تفاحة عطبة . ! والروائى النرويجى « هنريك أبسن » كان يستلهم مجموعة من الدمى والتماثيل الصغيرة يضعها فوق مكتبه فى أوضاع خاصة مختلفة ويتخذ منها أشخاص الرواية التى يكتبها كما يحوك حوادثها من أوضاعها

أما الحالات الغريبة التى تعترى بعض الشعراء والكتاب فى خلال الإبداع الفنى فتختلف باختلاف الرجال وأمزجتهم وأحوالهم النفسية ، فقد روى لنا خليل مطران أن الشاعر « أحمد شوقى » كان جليسه لا يعرف أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادىء بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم يرى ناظريه وقد برقا وتوارت فيهما حركة المحجرين ، ثم يبصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة والشاعر « محمد الأسمر » يصف لنا ما يعتريه من حالة خلال النظم قائلا (ثم

يأخذنى التيار الجارف ، فيربد وجهى وأظل ذابل البصر غائبا بعض الغياب عما حولى ، وأحيانا أذرع الغرفة التى أنا بها أو المكان الذى أنا فيه ذهابا وأيابا مهمهما ومشيراً بيدى ...) والشاعر «على الجندى» - المصرى - (يسبح فى غمرة من التفكير ذاهلا عما حوله لا يكاد يبصر ولا يسمع ؛ وتراه يصعد نظره ويصوبه ؛ ويفتح فمه مرة ، ويزم بأنفه أخرى ، ويزوى حاجبيه ، ويعض شفته السفلى ويبتسم لغير داع ، وقد يسرع نبضه وترتفع حرارته .) .

وهى كلها حالات تتنوع بتنوع النماذج من أهل الفنون ولكنها تلتقى فى الغرابة التى ينتج منها فن جميل .

شاعرة الرثاء وأدوار الغنـــاء

عائشة التيمورية

تمثل عائشة التيمورية الشاعرة المصرية العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فقد ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢ ومن عجب أنها تفردت بالشعر النسوى فى مصر ، فلم يكن هناك شاعرة مصرية أخرى تزاحمها فى ذلك المجال كما تفردت « مريانا مراش » فى حلب ، وتفردت « وردة اليازجى » و « وردة الترك » فى لبنان أما « زينب فواز العاملى » الأديبة الشاعرة ، وصاحبة « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » التى ولدت بعد عائشة التيمورية بست سنوات ، فكانت لبنانية المولد والشباب . مصرية السكن والإقامة . وكانت صديقة لعائشة ، ودارت بينهما مراسلات ومحاورات

ولم تذهب عائشة التيمورية إلى المدرسة وهل كان فى ذلك العصر الذى ولدت فيه عائشة التيمورية مدرسة لتعليم البنات حتى يرسل بها إليها ؟ لم يكن هناك إلا مدرسة القوابل والممرضات التى أنشئت فى عصر محمد على ، وهى للطالبات الفقيرات الراغبات فى وظيفة متواضعة ، أما المدارس العامة للبنات فلم تنشأ إلا بعد ذلك ببضع عشرات من السنين وأولاها مدرسة السيوفية التى أنشئت فى عصر إسماعيل سنة ١٨٧٣ ، وعرفت بعد ذلك باسم « المدرسة السنية للبنات »

صحيح أنه كان هناك مدرستان أو ثلاث أنشأتها الجاليات الأجنبية فى مصر ، كمدرسة راهبات الراعى الصالح التى أنشئت فى شبرا سنة ١٨٤٤ ، ومدرسة الأمريكان التى أسست سنة ١٨٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الإيطالية التى أنشئت سنة ١٨٥٩ ، ولكن الأسر الكبيرة لم

تجازف بإرسال بناتها إلى هذه المدارس الأجنبية لاعتبارات رآتها فى ذلك الحين.

ولقد تعلمت عائشة التيمورية فى بيت أبيها ، حيث أحضر لها المعلمين من الرجال ولعله اختار لها الرجال فى التعليم لأنهم أقدر فى التدريس ، وأقوى فى المادة وإلا فقد كان يمكن أن يحضر لها معلمات من النساء كما فعلت هى بنفسها لنفسها بعد وفاة أبيها وتذكر لنا الباحثة زينب فواز العاملى اسم معلميها الأولين : كما يذكره شقيقها العلامة أحمد تيمور « باشا » فيما كتبه عنها أما أولهما فهو إبراهيم مؤنس ، وكان يعلمها القرآن ، والخط ،والفقه الإسلامى ، وأما ثانيهما فهو خليل رجائى ، وكان يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية

ومن عجب أنه قام فى بيت عائشة التيمورية خلاف حول تعليمها وحول قراءتها للكتب فأمها تريدها على أن تكون ربه بيت ، وأن تنفق وقتها فى التطريز الذى أحضرت له الأم آلات التعليم وألا تضيع وقتها فى قراءة كتاب وأبوها يعارض الأم ، ويقول لها « دعيها فأن ميلها إلى القراءة أقرب »

ونستمع إلى عائشة نفسها — لا إلى مترجمة حياتها زينب فواز — حين تروى فى مقدمة ديوانها التركى والفارسى حكاية هذا الخلاف بقولها « وبالرغم مما كان متأصلا فى نفسى من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة ، والحصول على رضا والدى من جهة أخرى . فأن نفسى ما برحت نافرة من المشاغل النسوية وكان من دأبى أن أخرج دائما إلى قاعة منزلنا — السلاملك — فأمر عن يوجد هناك من الكتاب لأصغى إلى نغماتهم المطربة ولكن أمى — أقرها الله فى رياض الفراديس — كانت تتأذى من عملى هذا ، فتقابلنى عليه بالتعنيف والتهديد ، والأنذار والوعيد ، وتجنح أحيانا إلى الوعود اللطيفة والترغيب بالحلى والحلل الطريفة أما أبى — رحمه الله — فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركى

إن القلب لا يهتدى بالقوة إلى الطريق المطلوب
فلا تجعل النفس معذبة فى يد اقتـــــــــدارك

« فاحذرى من أن تكسرى قلب هذه الصغيرة، وأن تثلمى بالعنف طهره وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفى فى سبيل ميلها ورغبتها وتعالى نتقاسم بنتينا فخذى « عفت » وأعطيى « عصمت » ! وإذا كانت لى من « عصمت » كاتبة وشاعرة . فسيكون ذلك مجلبة الرحمة بعد مماتى »

ولم تكن « عائشة عصمت تيمور » الفتاة المصرية الوحيدة التى كانت تتلقى التعليم فى منزلها لقد كان هناك مئات ومئات مهن . ولكن لم تستطع واحدة منهن أن تبلغ ما بلغته عائشة وليست المسألة مسألة دروس تعطى ، وتعليم يقدم ولكنه الاستعداد الفطرى ولو لم تكن عائشة التيمورية مستعدة بفطرتها . ما استطاع عشرات من المعلمين الخصوصيين أن يخلقوا منها شاعرة

وقد يكون لميراث الأبناء من الآباء دخل فى أدب عائشة وميلها للشعر فقد كان أبوها إسماعيل تيمور « باشا » — كما يروى ابنه العلامة أحمد تيمور — (يرى أسعد أوقاته الساعة التى يقضيها فى قراءة كتاب ، أو تحقيق مسألة ، مع المغالاة فى اقتناء الكتب النفيسة شراء واستنساخا والإقبال عليها بالمطالعة حتى روى أنه كان يقول « إنى لأستحى أن يقع فى يدى كتاب ولا أطالعه » هذا مع ما هو مشغول به من أمور الدولة ومشاقها) (١) على أن هذا لم يكن قصارى جهد والد عائشة التيمورية ووالد أخيها ، فقد ألف كتابا على نمط كتاب « سفينة الراغب » الذى ألفه الصدر الأعظم محمد راغب باشا المتوفى سنة ١٧٦٢ م ، كما وضع باللغة

---

(١) لعب العرب لأحمد تيمور باشا ص ٨٤

التركية تاريخاً لأسرة تيمور وكان فى نية ابنته عائشة أن تنقله إلى العربية لولا أن صرفتها شواغل الحياة والحزن عن ذلك

ويبدو أن عائشة التيمورية كانت متعطشة إلى العلم والتعلم طول حياتها. فلم يكفها ما أخذته من دروس فى عهد شبابها المبكر على يدى المعلمين مؤنس وخليل رجائى حتى وجدت بعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ ووفاة زوجها « محمد توفيق » سنة ١٨٨٥ ميلا إلى استئناف حياة التعلم وخاصة بعد أن صارت مالكة زمام أمرها ومستقلة بأمر نفسها فأحضرت إلى قصرها اثنتين من المعلمات المتخصصات ممن لهن إلمام بالنحو والصرف والعروض إحداهما تدعى « فاطمة الأزهرية » ، والثانية « ستيتة الطبلاوية » فوسعتا من دائرة علمها بالعروض والنحو وإن كان ذلك لا ينكر فضل البداية التى بدأها معها اثنان من الرجال فقد كانت قبل حضور هاتين المعلمتين تنظم الشعر وتتقن عروضه وقوافيه وتقيم الكلام على أحسن نظام.

وظهر أثر المعلمتين فى شعر عائشة واتجاهاتها بعد ذلك فصارت كما يقول شقيقها العلامة أحمد تيمور — (تأخذ عليهما النحو والعروض. حتى برعت وأتقنت بحوره. وأحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطولة والأزجال المنوعة والموشحات البديعة التى لم يسبقها أحد على معانيها)(٢) ولعل تسرب الأزجال والموشحات والأدوار والمواليا إلى شعر عائشة تيمور هو أثر من آثار معلمتيها المصريتين فاطمة وستيتة فقد كانتا تسمحان بذلك الضرب من النظم على حين أن مؤنس ورجائى — وهما من الأتراك — ما كانا ليسمحا لها بمثل هذا اللون من الكلام

---

(١) لعب الصرب — لأحمد تيمور ص ٨٧ . والدر المنثور ص ٣٠٢

ولعل من المفيد أن نعرف كيف بدأت براعم الشاعرية الرقيقة تتفتح عند « عائشة عصمت تيمور » وندعها تتحدث هي عن ذلك بأسلوبها الطريف البسيط الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، في مقدمة ديوانها التركي والفارسي الذي ترجمه إلى العربية عن التركية المرحوم « محب الدين الخطيب » استجابة لرجاء من الأديبة النابغة « الآنسة مي » التي ألقت سلسلة من المحاضرات عن عائشة ، على أعضاء جمعية « فتاة مصر الفتاة » في الجامعة المصرية القديمة ، ثم نشرت بعد ذلك في مجلة المقتطف من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٦

وعائشة التيمورية من النماذج النسوية الشاعرة القليلة في الأدب العربي وهي في أحزانها ومراثيها لابنتها العروس « توحيدة » ، ورثائها لوالدها وزوجها وأصدقائها من أعلام الرجال في عصرنا تعبر عن شعر المرأة الحزين وتجويدها له وتذكرنا في هذا المجال بالخنساء الشاعرة العربية النادبة التي ما برحت حياتها كلها تبكي أخاها « صخرا » وبقية أخوتها ولعل الخنساء لم تجود في أغراض الشعر كما جودت في الرثاء والبكاء. إلا أن عائشة التيمورية جودت في شعر الدين والضراعة والأخلاق ، كما جودت في أشعار الغناء عن طريق المواليا والأدوار وهي بهذا تجمع بين النقيضين . فأين من البكاء والرثاء أشعار الطرب والغناء ؟

هل نقول أنها أرادت بذلك أن تعوض عن دموعها بإدخال الفرحة والطرب على قلوب الآخرين ؟ هل نقول أنها ملت الدموع وذرفها — وخاصة بعد أن رمدت عيناها من أثر البكاء على ابنتها «توحيدة» سنوات طوالا — فأرادت أن تضحك قليلا للحياة لعل الحياة تضحك لها كثيراً ؟ هل نقول أن نفسها المعذبة بالألم ، المطوية على الشجن الخائبة الأمل في الناس وفي صدق مودتهم وإخلاص حبهم قد حملتها أن تغنى في الوقت الذي كانت فيه تعبر عن أوجاعها من الناس وظلمهم ، في مثل قولها

وكم حليفة سعى إذ تعنفنى تقول سعيك مذموم النهايات
فأخفض الطرف من حزن أكابده وأهمل الدمع من تلك المقالات

وفى مثل قولها

ومذ أتت عذلى تبغى مصادرتى ظلما، منحتهمو أسنى الكرامات
وكلما عددوا ذنبا رميت به بسطت للعفو راحات اعترافاتى
وكلما حرروا منشور مظلمتى وأظهروا فى الورى غدرا جناياتى
أظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى وكان ما كان من فرط التهاباتى

فهنا إنسانة شاعرة ترى الرياء والغدر والنفاق والحقد والحسد من حولها ثم تحاول فى صبر الحليم أن تتغاضى عن الإساءة وتتجافى عن الشر وتجزيه بالخير

وإذا قسنا عائشة التيمورية بمن كان يعاصرها من الشواعر العربيات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدناها أكثرهن شاعرية وأرقهن عبارة وأحسنهن نظما بل أن شعرها ليفوق شعر كثير من الرجال الذين سبقوها بعشرات من السنين من أمثال الشيخ على الليثى والسيد على أبو النصر وغيرهم ولا نجد بدا من أن ندعم هذا الرأى بما رآه المرحوم عباس محمود العقاد وهو يتحدث عن عائشة قائلا (حتى درست من هذه الفنون خير ما كان يدرسه أبناء ذلك الجيل وضارعت فى النظم أحسن من نظموا فيه فإذا استثنينا البارودى أولا والساعاتى ثانيا فشعر السيدة عائشة يعلو إلى أرفع طبقة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر فى أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العرابية(١) .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - لعباس العقاد - ص ١٥٠

وإذا كان للعقاد رأى خاص فى الشعر عند المرأة عامة فأنه استطاع بهذا الحكم العام أن ينصف عائشة التيمورية من زمانها .ورأى العقاد - رحمه الله- معروف مشهور أداره فى غير موضع ، وأظهره فى أكثر من مقام فهو يرى (أن المرأة قد تحسن كتابة القصص وقد تحسن التمثيل ، وقد تحسن الرقص الفنى من ضروب الفنون الجميلة، ولكنها لا تحسن الشعر ولم يشتمل تاريخ الدنيا كله بعد على شاعرة عظيمة لأن الأنوثة - من حيث هى أنوثة - ليست معبرة عن عواطفها ولا هى غلابة تستولى على الشخصية الأخرى التى تقابلها، بل هى أدنى إلى كتمان العاطفة وإخفائها وأدنى إلى تسليم وجودها لمن يستولى عليه من زوج أو حبيب ومتى فقدت « الشخصية » صدق التعبير ، وصدق الرغبة فى التوسع والامتداد واشتمال الكائنات كلها ، فالذى يبقى لها من عظمة الشاعرية قليل (١) .)

واستثنى العقاد من عدم إحسان المرأة للشعر إحسانها التعبير عن أحزانها شعراً ، فهنا تجود الشاعرية وبجود الشعر الحزين أما ما عدا ذلك من أغراض الشعر فلم تبدع فيه المرأة حتى « صافو » أشعر الشواعر الغزلات أبدعت فى شعر الغزل الذى عالجته ولكنها لم تكن معبرة عن طبيعة الأنثى

وإذا كانت عائشة التيمورية رائدة بشعرها التقليدى. وبطابعها الذى حافظت فيه على القديم بحكم ما كان يحيط بها من ملابسات عصرها وأحكامه فأنها حين انتقلت إلى رحاب الله سنة ١٩٠٢ تركت مكان الشعر النسوى خالياً لعشرات من السنين ، إلا ما كان من شعر السيدة

---

(١) المصدر السابق - ص ١٥١

« أمينة نجيب » وهي تحتاج إلى دراسة منصفة. ثم أخذ فيض الشواعر العربيات يتوالى بظهور رباب الكاظمي ، وجميلة العلايلي وماري عجمي ومنيرة توفيق. وأم نزار الملائكة. وعزيزة هارون وطلعت الرفاعي. وفدوى طوقان. ونازك الملائكة. والدكتورة عاتكة الخزرجي. ولميعة عباس عمارة وجليلة رضا وملك عبد العزيز وروحية القليني وغيرهن ولعل في هؤلاء من تستطيع أن تغير حكم المرحوم عباس محمود العقاد على المرأة الشاعرة ! فإن لا يكن ، فنحن نستطيع أن نجد في هؤلاء الشواعر أنفاساً طيبة من الشعر الجيد الجديد ، الذي تحرر من القديم في اعتدال عند بعضهن. وفي انطلاق عند بعضهن ، وهما تياران كان لا بد منهما في حركة التطور والتجديد في الشعر العربي جملة. عند الرجال والنساء على حد سواء

ولقد رزق ديوان « حلية الطراز » لعائشة التيمورية التوفيق والحظ الجميل على غير ما يكون عادة في دواوين الشعر التي ما يكاد الدهر يسمح بنشرها مرة حتى تأخذ طريقها إلى الخفاء. لقد طبع ديوان التيمورية مراراً في مصر وكانت القصائد في طبعاته القديمة غير مرتبة ولا مبوبة : مما جعل الآنسة « مي » تجعل ذلك عيبا فيه كما تجعل عدم التأريخ للقصائد عيبا آخر لا يمكن الباحث من متابعة تطور الشاعرة وشعرها على مدار الزمن. ولكن القدر السعيد أتاح لهذا الديوان « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » التي أسلمته إلى الدكتورة سهير القلماوي لترتبه وتبوبه وقد فعلت سهير ما طلب منها . وخرج الديوان في سنة ١٩٥٢ مع مقدمات ودراسات للآنسة « مي » . وخليل ثابت. ومحمود تيمور. وأحمد كمال زادة حفيد عائشة التيمورية والدكتورة سهير القلماوي . والدكتورة بنت الشاطئ وقد احتوى الديوان في هذه الطبعة على قصائد وأشعار لم تكن في الطبعات

السابقة تركتها الشاعرة ضمن أوراقها مخطوطة بيدها محتاجة إلى من يجمعها ، ويقيم أودها ، ويضبط كلماتها ، ويعلق عليها. فنهض زميلنا المجمعي الأستاذ اللغوى الثبت محمد شوقى أمين — العضو بمجمع اللغة العربية — بهذا العبء ، على خير الوجوه

ولم تستطع عائشة عصمت تيمور أن تسبق زمنها بالتجديد فى الشعر الذى كان غارقا فى سبات القديم ، فجرت فى أغراضها على ما كان يجرى عليه الشعراء فى ذلك الزمان ولعلها لم تتأثر كثيراً بحركة الإحياء والبعث التى نفض بها محمود سامى البارودى الغبار عن الشعر العربى وأعاد إليه رونقه وديباجته وعلو نفسه بعد ما انحدر إلى غاية يرثى لها ولا شك أنها كانت تقرأ شعر البارودى وهى معاصرة له ، كما كانت تقرأ شعر عبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ؛ ولكنها ظلت محبوسة فى إطار القديم بحكم نشأتها وبيئتها. ومع هذا فقد كانت ديباجتها السهلة الرقيقة ، وألفاظها السمحة ، وعباراتها البسيطة أكثر صدقا وأحسن تعبيراً عن مشاعرها وأحاسيسها الصادقة من شعر كثير من شعراء عصرها

والسهولة والرقة والبساطة هى دائما طابع الشعر النسائى ، على الرغم مما عند المرأة من ميل إلى التحسين والتجميل وهو تحسين لا تغرب به المرأة فى ألفاظها ولا فى عباراتها ولا فى معانيها التى لا تتعمق كثيراً فى الغوص عليها ، لأنها تكتفى بما دون السطح عما هو قريب من الأغوار. ونلاحظ ذلك فى شعر « الخنساء » ورقته وسلاسته بالنسبة إلى عصرها فى الجاهلية والإسلام. فقد كان معجمها الشعرى سهلا بسيطاً لا إغراب فيه ، وكذلك كانت عائشة التيمورية ، فما لاحظنا فى معجمها اللغوى الشعرى لفظة جاسية أو جافية ، أو خشنة وكانت وهى تعبر عن

عواطفها تختار لها من الألفاظ ما لان وما رق مع الاحتفاظ بمستوى اللغة الفصحى فلا تتدنى إلى عامية أو ما يشبهها ، ولا تنزل إلى ركاكة أو ضعف ولكنها تحاول دائما أن تكون الشاعرة السهلة الرقيقة البسيطة التعبير

ولعل أهم أغراض الشعر عند عائشة التيمورية هو شعر (الرثاء) . وما أحرى أن نسميه شعر النواح والبكاء وما أحرى التيمورية أن نسميها شاعرة المراثى والدموع ولعل نكبتها الأليمة فى ابنتها العروس « توحيدة » التى زفت إلى الموت بدلا من أن تزف إلى عريسها . هى أروع ما فى مراثيها وأصدقها تعبيراً عن المواجد والأحزان ولم تطل عائشة قصائد البكاء على توحيدة » . ولعلها اكتفت من ذلك بالقصيدة الرائية المشهورة التى تقول فى مطلعها

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور

ولا تغنى الكثرة من شعر البكاء والنحيب فى أن تجعل الشاعرة خليقة بلقب شاعرة الدموع والمراثى فأن قصيدة واحدة مثل هذه الرائية قد جعلت من شاعرتنا شاعرة الدموع والأحزان ونحن هنا على الضد من الخنساء التى أطالت قصائد الرثاء فى أخيها « صخر » الذى تقول فيه :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولـــى على إخوانهم لقتلت نفسى

فالشاعرة عائشة التيمورية لم يبلغنا من رثائها لابنتها « توحيدة » إلا قصيدة واحدة . ولكنها كانت كافية . بما أودعته فيها من صدق الشعور ، وصدق التجربة لأن تجعلها شاعرة عربية مرموقة فى الرثاء

ولقد اختطف الموت « توحيدة » وهى فى عمر الزهور – حين أتمت الثامنة عشرة من عمرها – لا الثانية عشرة كما جاء خطأ فى صفحة ١٨ من ديوان حلية الطراز . وقد جاء هذا الخطأ صحيحاً فى الدر المنثور ص ٣١٤ ، وفى الديوان نفسه ص ٢٩

وكانت شاعرتنا متعلقة بابنتها إلى أبعد الحدود . وقد وجدت فيها ما لم تجده هى فى نفسها من الميل إلى تدبير المنزل وأشغال الأبرة والتطريز ، وهى الفنون التى كانت أم عائشة تريدها عليها ، لولا انصراف الشاعرة الناشئة عنها من ناحية ، وميل الأب إلى صفها من ناحية أخرى. فكأن شاعرتنا القارئة المنصرفة عن أشغال المنزل وجدت فى ابنتها « توحيدة » تعويضاً لها عما فاتها بمحض اختيارها

وندع عائشة التيمورية تتحدث عن ابنتها بقولها فى مقدمة ديوانها التركى والفارسى : (وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادى – وهى « توحيدة » – نفحة من نفسى وروح أنسى قد بلغت التاسعة من عمرها . فكنت أتمتع برؤيتها تقضى يومها من الصباح إلى الظهر بين المحابر والأقلام ، وتشتغل بقية يومها إلى المساء بأبرتها فتنسج بها بدائع الصنائع ! فأدعو لها بالتوفيق ، شاعرة بحزنى على ما فرط منى يوم كنت فى سنها من النفرة من مثل هذا العمل . ولما بلغت ابنتى الثانية عشرة من عمرها عمدت إلى خدمة أمها وأبيها ، فضلا عن مباشرتها إدارة المنزل ومن فيه من الخدم والأتباع . فتسنى لى أن أنصرف إلى زوايا الراحة)

لقد كان حب عائشة التيمورية لابنتها « توحيدة » استجابة لطبيعة الأمومة الصادقة ومشاعرها . ولكن يضاف إلى هذا عامل دعم من هذه الاستجابة . لقد كانت « توحيدة » المولودة البكر لأمها. ولم تجئها عقب

الزواج مباشرة . ولكنها جاءتها بعد شوق طويل إلى الإنجاب والإثمار
لقد جاءتها بعد عشر سنوات كوامل فهذا كان مجيئها عزيزاً غالياً ،
وكان حبها كذلك

لقد وفد على بيت الشاعرة بعض النساء ويبدو أنهن جئن لخطبة الفتاة على نحو ما كان سارياً فى ذلك الزمان وكانت عائشة التيمورية فى شغل ببعض أمور بيتها فنابت عنها ابنتها « توحيدة » فى استقبالهن والجلوس معهن حتى تفرغ أمها من شئونها . ووجهت الفتاة التحية إلى الضيوف الوافدات قائلة على عادة ذلك الزمان « أوحشتونا » إلا أن لثغة خفيفة لطيفة فى لسانها جعلتها تقلب الشين المنقوطة سينا غير منقوطة فصارت الكلمة أوحستونا ! وهنا دخلت الأم الشاعرة وسمعت اللفظة على تحريفها . وعلى ما قد توحى به من معنى لم تقصده الفتاة ولم يدر فى خلدها البرىء ! وهنا كان تندر وكانت فكاهات ، انتهزتها الأم الشاعرة السماحة لتشرح ذلك العيب اللسانى وتعلل له بهذا التعليل اللطيف . قائلة فى شعر على البديهة

قال العواذل مذ قالت مؤانسة	« أوحستنا » ، أنها تجفو وذاك غلطْ
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطــاً	بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط !

ولا شك أن هذا حسن تعليل جيد موفق من أم تدافع عن عيوب ابنتها الصغيرة بكل ما يمكنها من وسائل الدفاع ولا شك أنها أضافت إلى محاسن ابنتها الصغيرة حسنة ضيق فمها بل ضيق ثغرها الذى لا يستطيع أن يتسع حتى لثلاث نقط من حرف الشين !

ولا شك أيضاً أن شاعرتنا قد أفادت فى إيراد هذا التعليل مما وقع لها فى قراءتها الشعرية والبلاغية والبيانية من حسن التعليل عند كثير من الشعراء

وقد ظهر هذا التعلق واضحاً فى فترة المرض التى عانتها « توحيدة » قبل وفاتها وحين أدركت الفتاة العروس أنها ملتحقة بالرفيق الأعلى ، وأن محاولات الأطباء ما هى إلا مغالطات لما لا تجدى فيه الحيلة ، أخذت تنذر أمها المهدمة بقولها (عبثا تدفعك الشفقة يا أماه إلى معالجة أمراضى ، فأنه قد آن الأوان ، ولا مناص من تلبية نداء المنادى «كل من عليها فان» ، وأنى أضرع إلى الله أن يلهمك صبر أيوب ، وأن يمنحنى نعمة رضاك ، فيكون ذلك سبب الرحمة لى ، والتجاوز عن سيئاتى ، وأن يصون شقيقى وأخواتى)

وفى شعرها الغزلى نلاحظ أنها نظمت فيه عدداً من القصائد والمقطعات ولا يبعد أن تكون قد قالته على سبيل محاكاة القدماء وتقليدهم إثباتا منها أنها تجيد النظم فى كل أغراض الشعر وقد كان محمود سامى البارودى يفعل ذلك ويقول أنه « يروض القول » ! فهو من باب الرياضة لا من باب الوحى الحقيقى الذى يوحى به الحب الصادق وقد فعلت عائشة التيمورية ذلك فى شعرها الغزلى وقدمت له بهذه العبارة « وقالت متغزلة فى غير إنسان والقصد تمرين اللسان » فرياضة القول عند البارودى ، وتمرين اللسان عند عائشة عصمت تيمورهما تعبيران يفصحان بأجلى بيان عن شعر بلا وجدان

ويلاحظ فى شعر الغزل عند عائشة التيمورية أنها تتخذ موقف الرجل لا موقف المرأة ، وكأنها يحجزها الحياء عن أن تتحدث بلسان الأنثى حتى لا يبتذل تصونها وهى هنا تستتر وراء الرجل ، وتتخذ منه دريئة لحيائها وخجلها إلا أن غزلها التقليدى هذا يحمل لواعج شوق كمين ، وحب دفين ولو كانت مقطوعاتها وقصائدها مؤرخة لعرفنا إن كانت هذه الأغزال قبل وفاة زوجها ، أم بعده ؟ وقبل زواجها من محمد توفيق زاده أم بعد ذلك حين انفردت وصارت وحيدة فتسلت عما تحمله الوحدة

والوحشة لهذه المقطعات ؟ ولا نعدم ان تصادفنا فى بعض مقطعاتها الغزلية أبيات جيدة معبرة عن لوعة الحب كقولها

يا بغية الصب رفقا بالفؤاد ! فقد	أشجاه ما بك من تيه ومن ميل
بالصد ألهبت قلبا أنت ساكنــه	هلا عطفت على سكناك يا أملى؟
قابلت طيفك ليلا كى أعانقـــه	وقمت ألثم ثغراً شيب بالعســل
فأغمض الطرف عنى معرضاً ونأى	بجانب التيه مذ ولى على عجــل
فهجتى أحرقت من حرها وجدت	ومقلتى أغرقت فى دمعها الهطل

على أنها وهى فى معرض التغزل . وهى حال تدعو إلى الاستغراق فى المحبوب . لم تتورع أن تجرى على منهج البديعيين من الأغراق فى التحلية والوشى البديعى والمحسنات

ولم تخل أغراض الشعر عند عائشة التيمورية من الشعر الأخلاقى الحكمى . وهو باب على قلته فى ديوانها لا يخلو من المعانى الكريمة التى تدل عليه . وما زالت كتب المحفوظات . ومجموعات الشعر والنثر المقررة فى المدارس والمعاهد إلى عهد غير بعيد تحمل قصيدتها البائية التى تقول فيها

بيد العفاف أصون عز حجابــى	وبعصمتى أسمو على أترابـــى
وبفكرة وقادة وقريحـــــــة	نقادة قد كملت آدابـــــــى
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر	قبلى ذوات الخدر والأحساب
ما قلته إلا فكاهة ناطــــــق	يهوى بلاغة منطق وكتــــاب

إلى أن تقول

ما ضرنى أدبى وحسن تعلمـى	إلا بكونى زهرة الألبــــاب
ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى	وطراز ثوبى واعتزاز رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ولا	سدل الخمار بلمتى ونقابـــى

عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتي فى راحتي ، وتفرسي ... فى حسن ما أسعى لخير مآب

أما حكمتها فقد جاءت متناثرة فى باب الأخلاق من الديوان ، ومنها

إن الدهاة وأن أبدوا بشاشتهم ... فلا تقل بغرور فاتنى الغضب
فكم تحلو شراب سم مقتلة ... والأسد تبسم إذ يبدو لها العطب

ومنها قولها

الناس شتى فى الصفات فلا تكن ... ممن يقيس الدر يوماً بالبرد
إن قست فظا بالرقيق فلا تلم ... من يعد نفسك فى الورى أبداً أحد

أما شعرها الديني فقد تجلى فى ابتهالاتها وتضرعاتها الشعرية ، وهي مبثوثة فى الديوان لا تخطئها عين قارىء . ومن ضراعاتها الرقيقة قولها

قصدت حماك تستر قبح عيبي ... بسر المصطفى إني دخيل
فحاشى أن تخيب فيك ظني ... وأنت لعبدك الراجي كفيل
فإن يك جرم عبدك ليس يحصى ... فحسن رضاك ليس له عديل
فمن لى إن طردت وأي باب ... أأم دون بابك يا جليل ؟

ولعل من أجمل شعرها الديني قصيدتها الميمية التي عارضت بها « بردة البوصيري » ومطلعها

أعن وميض سرى فى حندس الظلم ... أم نسمة هاجت الأشواق من لأضم

وعلى الرغم من الروح الدينية المتغلغلة فى شعر عائشة التيمورية ، فقد كانت لها ناحية فى الشعر المطرب الذى يتغنى به فى المحافل والأفراح ، وهو شعر أجادته بما أتيح لها من عاطفة رقيقة ، ولغة سهلة ، وألفاظ عذبة تدخل الآذان بلا استئذان كما يقولون .

وكثير من أدوار الغناء التي سادت في أخريات القرن الماضي ، وأوائل القرن الحالي كان من عمل عائشة التيمورية. وتروى لنا الأديبة الآنسة « مي » كيف أنها في العقد الأول من القرن الذي نحن فيه كانت في عرس بفلسطين وإذا المنشد ينقر على العود بدور غنائي يقول

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن　　　جفن من السحر أم سحر من الأجفان
خال بخديك أم صنع من الديـــان　　　توهت فكر الأنام في الجفن والخالان
تبارك الله ما أحلاك من إنســـان

ولم تكن تدري الآنسة « مي » يومئذ من هو ناظم عقد هذا الدور الغنائي ، إلى أن أتيح لها أن تقرأ ديوان « حلية الطراز » لعائشة التيمورية سنة ١٩٢٣ : فتجد فيه ذلك الدور وغيره من أدوار الغناء التي استجادها المطربون والمنشدون من شعر شاعرة الدموع والرثاء

مجالى الطبيعة
فى شعر خليل مطران

ليس عسيراً أن نبحث عن مجالى الطبيعة فى شعر خليل مطران فعلى الرغم من احتفاله فى الأجزاء الأربعة من ديوانه الضخم بالمناسبات التى كان خاضعاً لها بحكم علاقاته الاجتماعية الكثيرة مع الناس فى العالم العربى كله فأن الطبيعة كان لها عنده محل لا يدانيه محل ، وكنت ترى — حتى فى أشعار المناسبات التى كان مرتبطاً بها كل يوم — مجالا يفتحه بلباقة للتحدث عن الطبيعة والحديث إليها

وفى قصيدته الرائية التى عنوانها (شروق شمس فى مصر) يتألق احتفال مطران بالطبيعة وإقراره بأنها مصدر كل فن وانبهاره « بالتنويع » الفنى الدائم فى الطبيعة ، واعترافه بأنه هو سر الجمال والإبداع فيها

استمع إليه وهو يقول

كل هذى الآيات مبعث وحى ... للنظيم المجاد أو للنثـــير
كل هذى الآيات تؤخذ عنها ... رائعات التمثيل والتصوير
كل هذى الآيات يجمع منها ... نغم الحزن ، أو نشيد السرور
معجزات فى كل آن تراهـا ... باهرات التنويع والتغييـر

ولا يكتفى خليل مطران بهذا الحكم العام الذى يتعارض مع دقة متابعته للأفكار والآراء التى يراها ، فينتقل إلى عرض مثال مصغر للتنويع الفنى الدائم فى الطبيعة قائلا

إن تلك التي تراها صباحا نبتة كالزمرد الموشور
سترها وقد تبدت عليهــا هنة شبه درة في المجسير
وترى في الأصيل ياقوتة قا نئة اللون آذنت بالظهور
وترى كلما رجعت إليها عجبا من جديدها المنظور

فالطبيعة ليست في ثباتها ودوامها على حال واحدة قد تمل النفس ولكن في تغيرها الدائم وتطورها المستمر الذي تتفتح العين معه كل حين على مشهد جديد ! !

وقد نظر خليل مطران إلى « الطبيعة » وكأنها أم بارة تهب الكون كل لحظة بأطيب موهوباتها ولا تفرق في العطاء بين نجد وغور لأنها وهوب لا تبخل بعطاء ، ولا تضن بسخاء ففي قصيدته « جزين » — وهو المصيف اللبناني المشهور بشلالاته المتدفقة — يصور « الخليل » كل مجالي الطبيعة في هذا المكان الرائع ولا يملك إلا أن يدعوك معه إلى تسريح الطرف حيث لا تقع العين إلا على ما فوق البيان

مرح بحيث تشاء طرفك لا يقع إلا على ما فوق كل بيــان
أترى الطبيعة وهي أم أقبلت بثديها وبها أبر لبــان ؟
تسقي مدارجها ، وتلقي درها عفوا على الأغوار والقيعان
فإذا سموت إلى الذرا ترنو إلى ما دونها من مرتمى العقبان
أخذتك بالتقوى ، ولست بمتق وعرفت سر صوامع الرهبان !

والطبيعة — كما يراها خليل مطران — تخطط تخطيط الحكيم المدبر ، وتفعل فعل الصانع المتأنق ، فهي — على بساطة الفطرة فيها — لا يفوتها تأنق الرجل الصناع وكأن لها من فطرتها إلهاما يعينها على خلق النماذج الكاملة التي لا تأتي عفو الخاطر . ولقد أتيح له في سنة ١٩٢٥ أن يزور

« بكفيا » المصطاف اللبناني الجديد فلم يستطع أن يسكت عن شكر الذين كرموه هناك بقوله

سباك جمال « بكفيا » عسق وفيه كل ما يهوى الفؤاد
تأنقت الطبيعة فيه حتى ليعدو كل وصف أو يكاد
جمال إن أشدت به ففيه ضروب حلى بذكراها يشاد

وقد يفوت « الطبيعة » — على عبقريتها في التجميل والتكميل — أن تستكمل بعض مظاهر الجمال والحسن . وأن تستوفى كل نواحي الصورة ، لا لعجز فيها ، ولكن لازدحام في اللوحات . وهنا ترى الصناعة تستكمل ما فات الطبيعة ، ولا عيب في ذلك ولا نقصان فقد زار الشاعر مرة أسوان ولم يفته بالطبع أن يقصد إلى خزان أسوان ليرى فيه إحدى قدرات الإنسان وهنا لم يملك الشاعر نفسه أن قال

انظر إلى ذاك الجدار الحاجب ما السد فيما حدثوا عن (مارب)
هو في الحديث من البناء غريبة زان القديم وجودها بغرائب
إحدى العجائب في بلاد لم تزل من مبدأ الدنيا بلاد عجائب
حسن الطبيعة أكملته صناعة للنفع فيها بينات مآرب
شطر العقيق ففائض في جانب مجرى الحياة ، وغائض في جانب

وسر اهتمام خليل مطران (بالطبيعة) لا يرجع إلى أنها ظاهرة مادية محسوسة أمامنا ، ملموسة بأيدينا وحسب ولكن (الطبيعة) هي مجلى المشاعر الإنسانية ومجتلاها وما من حادث في الطبيعة إلا يقابله حادث في أنفسنا وذواتنا ومن هنا كان قوله الصادق إلى أديب بلغ الستين من عمره

من فحمات الليل تجلو الضحى وظلمات الريب تجلو اليقين

ومن هنا — أيضاً — كانت مناجاته الجميلة الرقيقة لكل مظهر من مظاهر الطبيعة في مواقد الحب الغامر والهوى المتمكن

وإذا كان كثير من الشعراء قد أطالوا تقليب وجوههم في السماء ليلا لكي يبثوا الشكوى إلى القمر الساهر ، أو النجم الساهد فأن خليل مطران استطاع بحق أن يكون في مساهرته للنجم وفي تشكيه له واحداً من شعراء العشق القلائل الذين عقدوا بينهم وبين آفاق السماء ألفة دائمة ما أرق شاعرنا وهو يناجي النجم في قصيدة له عاطفية يقول فيها مخاطبا النجم

فيالك من صامت ناطــــق	ويا لك من معجم معــــرب
أنيس على ما به من أســـى	شجي التبسم مستعـــــذب
مشوق إلى الشمس طلابهـا	مجد على شقة المطلــــب
إذا كل جهداً فأغضى بـدت	وأن هب برقيبا تختـــــبي
وبي مثل ما بك من شاغـل	ولي مثل ما لك من مـــأرب
فتاة كصوغ الضياء إليهـــا	تناهت منى قلبي الموصـــب
من الحور دان فؤادي بهـا	ووحدها الحب في مذهـــبي
فأن كنت يا نجم طالعهـــا	وقد سفرت لك في مرقـــب
فأنت إذن في الهوى عاذري	ولست لسهدي بمستغـــرب

فوصف الشاعر هنا للنجم الثاقب في السماء ليس غرضا أصليا، ولا هو محاولة لتصوير لوحة من لوحات الطبيعة ولكنه في خلال تأملاته ومشاهداته الغرامية رأى في « النجم » — وهو ظاهرة طبيعية سماوية — مجالا للتعبير عن مواجده في الحب ، ورأى عنصر (المشاركة) قد يكون عونا له على تخفيف مواجعه

والطبيعة عند خليل مطران معرض واسع من معارض الحب والغزل :

وفيها مشاركة يحس فيها الإنسان أنه يجلس إلى شخص آخر يناجيه ويشاكيه. فتزول عنه الوحدة التي يكابدها وتذهب عنه الوحشة التي يعانيها ففي ملاقاة له مع حبيبة يجد في الهواء حنينا وزفيرا . ويسمع في خرير المياه أنينا تذوب الصخور منه ويرى في النسيم حديثاً يدور على المروج ، بل يرى للأزاهر فكراً يرويه عنها العبير اسمعه وهو يقول

لم أنس حين التقينا	والروض زاه نضير
إذ العيون نيام	والليل راه حسير
نشكو الغرام دعاباً	ورب شاك شكور
وفي الهواء حنين	من الهوى وزفير
وللمياه أنين	تذوب منه الصخور
وللنسيم حديث	على المروج يدور
وللأزاهر فكر	يرويه عنها العبير

وفي الطبيعة صور وصفات يتمنى الشاعر خليل مطران أن يكون عند الناس مثلها فشموخ الجبال صفة لو كانت في الإنسان لأعلت مكانته ، ورفعت رأسه وفي الورد عزة ، وفي البنفسج اتضاع حبذا لو تجمل بهما إنسان ولم ينس شاعرنا وقد أهدى باقة من الأزهار إلى إحدى السيدات الغربيات اللائي تضوع عطرهن في الشرق ، أن يرفع إليها مع الباقة من الزهر هذه الباقة من الشعر

هذه تحفة الرياض إلى من	فاح في الشرق طيبها وتأرج
هي بين الحسان زهرة أنس	حسنها بالحياء منها مسيّج
وعجيب جمع المهيمن فيها	عزة الورد، واتضاع البنفسج

وأما ثبات (الأرز) في لبنان وتواشج أعضاده فهي صفة طالما

تمنى خليل مطران أن تكون من صفات الإنسان . وقد انتزع الشاعر هذه اللمحة فى مناسبة تقتضيها ، حيث أقيم فى القاهرة حفل للتأليف بين القلوب شهدته الجالية السورية واللبنانية ، فقال الخليل من قصيدة طويلة :

« لبنان » هل للراسيات كأرزه	تاج ينضرها على الآباد ؟
يا ليت ذاك الأرز كان شعارنا	بثباته وتواشج الأعضاد !
بسقت بواسقه على قدر ، فما	جهلت وما كانت من المراد
لو أمعنت صعدا ، لما ضلعت ولا	رجحت ، ولا جلدت لرد زناد
إن تدهها حمر الصواعق تبتسم	فيها النضارة عن لظى وقاد
وترى الغصون كأن كل مفضل	منها تباعث منه ورى زناد

وإذا كان « الخليل » كثير الأشادة فى غير موضع من شعره بجمال لبنان وثبات أرزه على أحداث الدهور ، فأنه أيضاً كثير الأشادة بقمم لبنان ورءوس جباله ، وهو فى ذلك ليس بدعا من أى شاعر لبنانى كثير التغنى بمفاخر بلاده ، إلا أن « مطران » — مع طول ما أتيح له من البقاء فى مصر والإقامة فيها حتى أدركته منيته — لم ينس أن يردد أصداء الطبيعة اللبنانية وهو مستظل فى ذرى الأهرام ، ففى قصيدة له يودع فيها مصر فى مستهل زورة له إلى لبنان ، لا يفوته أن يعرج على قمم لبنان الشم قائلا فى تهلل :

هذى رءوس القمم الشماء	نواهضا بالقبة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء	روائع المناطق الخضراء
يا حسن هذى الرملة الوعساء	وهذه الأودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء	راقية معارج العلاء
وهذه الخطوط فى البيداء	كأنها أسرة الغبراء
وذلك التدبيج فى الصحراء	من كل رسم باهر للرائى

وهذه المياه فى الصفـــاء آناً وفى الإزباد والإرغاء
تنساب فى الروض على التواء خفية ظاهرة الـــلألاء
وتَسَنّم قواتل للــــداء يشفين كل فاقد الشفـــاء

وفى قصيدته التى نظمها بمناسبة زيارته لجزين المشهورة بشلالها يقول

انظر بأيمنه إلى الرأس الذى يزهى بروعة تاجه الرومانى
تكسو جلالته الصباح ، وقد بدا يزدان بالأنوار والألـــوان
وانظر بأيسره إلى الطود الذى فيه من الإبداع فن ثانـــى
تجد الأصيل مشققاً ونضاره بين الجذوع يسيل والأغصان

وفى قصيدته الجزلة الرصينة التى نظمها وهو يصطاف فى « حمدون » لا يفوته — وهو ينشد فى حفل أقيم للتبرع لمرضى السل — أن يصف الوادى البديع ، متنقلا ما بين السفوح والذرى والقمم الشم ، قائلا

مدارج من أدنى السفوح إلى الذرى يرود حلاها الناظر المتنســـم
جيوب بها من كل غال وفاخــر نفائس تغزوها اللحاظ فتغـــم
إلى قمم شم ذواهب فى العـــلا يؤخرها حسن ، وحسن يقدم
تفيض على الأغوار در ثديهـــا فترضع خضراء الرياض وترأم
إذا ما تغنى ماؤها متحــــدرا شجانا ، ولم يفهم لغاه مترجم
جبال ترامت فى الفضاء خطوطها يرققها رسامها ، ويضخـــم

وإذا كان بعض شعراء العرب القدامى والمحدثين قد التفتوا إلى الشمس كظاهرة طبيعية تطلع ثم تغيب كل يوم ، كما تحدث إليها بعض شعراء عصرنا مثل شوقى الذى استوقفها لتحدثه أحاديث القرون الغابرة فأن الشاعر خليل مطران ألمّ بالشمس مشرقة ، وغاربة ، وشبه بها وهى تتألق

عقب المطر وضاءة اللألاء ووصف ساعات غروبها بأرق ما وصفها شاعر ووصف في معنى رائع بكر لم يسبق إليه كيف أنها تهدى المبصرين ولكنها نفسها لا تبصر

فهو يصف في قصيدته (فاجعة في هزء) نسوة يضحكن ملء أفواههن وهن أشباه الشمس تألقت غب المطر . فيقول

يضحكن أشباه الشموس تألقت عقب الحيا . وضاءة اللألاء

وفي قصيدته (جواب) التي يداعب بها صديقاً داعبه يصف فتاة فيشبهها بأنها كالشمس تبدو والوقت بعد الغروب فيقول

أدماء كالشمس تبدو والوقت بعد الغروب
مليكة ذات وجه سمح وطرف مذيب
بالنور تنزل آيا ت حكمها المرهوب

وفي مرثيته الرائعة للشاعر محمود سامي البارودي يتحفنا بهذا البيت الذي ليس له ضريب في معناه في ديوان الشعر العربي حيث يقول

على الشمس أن تهدى المبصرين وليس على الشمس أن تبصرا

فالشاعر خليل مطران متنبه دائماً إلى الشمس في شروقها وغروبها وفيما بين ذلك من ساعات النهار وقد بلغ من غرامه بالشمس أنه حين دعا المرحوم « محمود أبو النصر » المحامي جماعة من علماء مصر وأدبائها وعظمائها إلى حفل في داره . لم يجد خليل مطران غير موضوع شروق الشمس أكثر ملاءمة لمطلع قصيدته الطويلة التي أدارها عنهم في الحفل . ولعله بذلك كان يرى في الشرق العربي مطالع نهضة بازغة تستحق التسجيل وما أجمل أبياته في شروق الشمس حيث يقول

هذه الشمس آذنت بالسفور بعد سبق الآيات بالتبشير

فتلقى ظهورَها كل حي ... بنشيد التهليل والتكبير
هي بكر الوجود لا يتملى ... مجتلاها إلا شهود البكور
أرأيت الصباح يكشف عنها ... كلة الليل من حيال السرير ؟
فتهاوى ستر الدجى . وتوارى ... ما عليه من لؤلؤ منثور
حيَّيْتَ الكون حين لاحت فأحييت ... كل عود لها جديد نشور
حيثما طالعت مظنة خصب ... أسفر الترب عن نبات نضير
وانجلى لحظها عن الزهر الغض ... وعذب الجنى ، وطيب العبير
وعوالى النخيل خضر الأكاليل ... ، زواهى المرجان حول النحور

وإذا كان خليل مطران مفتوناً بشروق الشمس وخاصة فى ريف مصر الذى أتيح له أن يكثر التجوال فيه مصبحا وممسيا فأن افتتانه بالغروب قد تجلى فى غير قصيدة من شعره وقد أتاح له عمله فى « الجمعية الزراعية » ، وصلاته الاجتماعية الكثيرة بكثير من الرجال من كل الطبقات ، أن يتعرف إلى ريف مصر وأن يألف به وأن يحب الفلاح الكادّ الطيب القلب ونجد فى الجزء الثانى من ديوانه قصيدة عنوانها « مغرب شمس فى ريف مصر » يصور فيها الغروب بقوله

طوينا الخفوق سراع المسير ... على متن متصل كالسبب
نمر بخضراء فتانة ... لها من زمردها منتقب
إلى مرتمى العين مبسوطة ... تموج بأشجارها عن حسب
وأنهارها تحت نور الزوال ... تفيض بطاء مثل الضرب
وللشمس فى المنتهى مغرب ... رأينا به آية من عجب
رأينا من الغيم طودا رسا ... على أفقها . وسما . واشرأب
بجسم ظلام وقمة تبر ... وسفح تعارجه من لهب
كأن الأشعة أثناءه ... مغاور فى منجم من ذهب
وراع نواظرنا أيّل ... مضى قرنه صعدا وانشعب

تلفت يرنو بياقوتتـــين ... وسال دما صلبه والذنـــب
وكم من جنان، وكم من قرى ... وكم من صروح، وكم من قبب
تصاوير يصنعها ماهـــر ... من الغيب يبدعها ما أحـب
يظل ينوع أشكالهـــا ... دراكا ولا يعتريه نصب

والحق أن هذه اللوحة التى رسمها خليل مطران لمغرب الشمس فى ريف مصر هى نقل حسى للطبيعة فليس فيها من امتزاج الأحاسيس ووصف الأثر النفسى للمنظر ما نجده فى رائعته « المساء » التى يرسم فيها الغروب بما يحتويه من وصف للطبيعة ووصف لمشاعر الإنسان و « الانفصال » بين الشاعر وبين المشهد الطبيعى الذى يصوره هو أشد ما يصاب به فى شعره ونجد هذا الانفصال فى قصيدة (مغرب شمس فى ريف مصر) . أما قصيدة « المساء » فنجد فيها (الاستغراق) الكامل بين الشاعر وبين الطبيعة . إنه ليس منعزلا عن الوجود ولا منسلخا عن الكون بل هو مندمج فى الكون كله فى وحدة شاملة كاملة ومن هنا كانت قصيدة (المساء) من روائع شعر الطبيعة فى الأدب العربى كله استمع إلى شاعرنا وهو يقول فى فكرة فلسفية حزينة تناسب أحزان الغروب

يا للغروب وما به من عبرة ... للمستهام وعبرة للرائـــى !
أو ليس نزعاً للنهار وصرعة ... للشمس بين مآتم الأضـواء ؟
أو ليس طمسا لليقين ومبعثا ... للشك بين غلائل الظلمـــاء ؟
أو ليس محوا للوجود إلى مدى ... وإبادة لمعالم الأشيــــاء ؟
حتى يكون النور تجديداً لها ... ويكون شبه البعث عود ذُكاء

ولا يكتفى الخليل من مآسى الغروب بهذه الخواطر الحزينة بل يختم قصيدة المساء بمقطع يخاطب فيه الحبيبة قائلا

ولقد ذكرتك والنهار مودع ... والقلب بين مهابة ورجـاء

وخواطرى تبدو تجاه نواظرى ... كَلْمَى كدامية السحاب إزائى
والدمع من جفنى يسيل مشعشعا ... بسنا الشعاع الغارب المترائى
والشمس فى شفق يسيل نضاره ... فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خــلال غمامتين تحدرا ... وتقطرت كالدمعــة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد ... مزجت بآخر أدمعى لرثائى
وكأننى آنست يومى زائــلا ... فرأيت فى المرآة كيف مسائى

والحق أن المزج بين مشاهد الطبيعة ومشاعر الإنسان وأحاسيسه هو سر النجاح الذى يصيب الشاعر حين يصف الطبيعة أو حتى حين يلم بها إلماما خفيفاً فما قيمة هذه الأوصاف والتشبيهات الجامدة فى منظر طبيعى إن لم تؤججها انفعالات الأحاسيس ، وتناعلات المشاعر وإلا كانت وصفا مرصوفا حسيا لا حياة به ولا عاطفة فيه

ولقد وفق الخليلى فى هذا (المزج) بما وهبه من رقة الحس وبعد الخيال . وسرعة التأثر وكل نظراته إلى الطبيعة من هذا الدرب الحى المتحرك المتموج بتدفق الشعور فقد وصف مرة فتاة تختال فى حديقة الجيزة ، فقال

فإذا دنت فى سيرها من زهرة ... همت بأخذ ذيولها وبلثمهــا
أو جاورت فرعا رطيا لينا ... ألوى بعطفه ، ومال لضمها

ولا شك أنك تلمح هنا المزج بين الطبيعة والمشاعر دون أن تحس جمودا فى الوصف . وفى قصيدة (النرجسة) تجد هذا المزج قوياً حين غرست « أمينة » بصحن دارها زهرة نرجس لتكون سلوتها إلى أن يرجع حبيبها المسافر فى دواعى الجهاد ولابد أن تقرأ الأبيات كلها لترى قوة هذا المزج وصداه الأخير

غرست بصحن الدار زهرة نرجس ... لتكون سلوتها إلى أن يرجعــا
كانت تبالغ فى رعايتها كمــا ... ترعى عيون الأم طفلا مرضعا

حتى إذا ما جاءها عن بعلها نبأ أصم المسمعين ، وروعا
شقت مرارتها عليه ، وأوشكت من هول ذاك الخطب أن تتصدعا
وكأن ذاك الرزء قبل وقوعه مما شجاها لم يكن متوقعا
فتفقدت صبحا أليفتها التي كانت سلتها حسرة وتوجعا
فإذا نضارتها ذوت وكأنها عين أسال الحزن منها مدمعا

وفى مرثية خليل مطران لفتاة توفيت غريبة عن وطنها فى الثانية عشرة من عمرها ، يبدو هذا المزج بين الطبيعة وبين مشاعر الحزن على الفقيدة فى قوله

هل كان هذا البين فى الفجر فتلوت كوكبه على الأثر ؟
أم فى الضحى فنفحت آخر ما نفحته ذابلة من الزهر ؟
أم فى الهجيرة فانحللت كما شرب الضرام وحيدة القطر ؟
أم فى الزوال فغربان معا للشمس فى الدنيا وفى خدر ؟
أم فى الظلام فزاده حلكا سر رقيت به إلى سر ؟
أم فى تجلى البدر ممتزجا منك انسجى بكآبة البدر ؟

إن هذه الأبيات من قصيدة فى الرثاء ، ولكن الشاعر أدمج فيها من مواقف الطبيعة ومشاهدها ما يوائم بين المشهد وبين الإحساس بفجيعة الشباب

وكذلك صنع خليل مطران فى قصيدته (يا مصر) التى قالها بعد وقوع حوادث مؤسفة فى أثناء ثورة سنة ١٩١٩ فقد جلب فيها من طبيعة مصر ما يلائم الحالة التى يصورها ، ومزج بين الاثنين مزجا فنيا رائعا حين يقول

مصر التى ليست منابتها خلسا ، وما فى مائها أسن

مصر التي أبداً حدائقهـــا غناء لا يعرى بها غصـــن
مصر التي أخلاق أمتهـــا زهر سقاه العارض الهتن
مصر التي أخلاقها حفـــل ويدر منها الشهد واللـــبن

وكثيراً ما كان يتخذ خليل مطران « الطبيعة » في شعره سبباً إلى بلوغ هدف يحققه ، أو مطلب يريده ففي قصيدته (في الغابة) لا يصور في الحقيقة غابة أمام عينيه . ولا يمسك القلم ليرسم أشجار غابة عرضت له ، ولكنه يرسم صورة خيالية لشاعر يتنقل في غابة مرتفعة ، باحثا عن زهرة غير موجودة فالطبيعة هنا — وهي الغابة — هي حلم رمزى لنشدان الكمال المفقود وقصيدته (غصن من زهرة المشمش) هي حلم رمزى لتمنيات الشاعر العليلة بالشفاء ، حيث يقول

هو الربيع عائـــــداً بحسنـــه المزدهـــر
أجمل ما يرى كبـــير الحسن في مصغـــر
وفوق ما يبلغـــه تصـــور المصـــور
ينقع غلة النفـــو س بالرفيف الخضـــر
قد ملأ الغرفة بهجـــة وحســـن منظـــر
وقد نفى بصفوه الصـــ ح كل كـــدر
فاستقبلى الصفحة فـــى لقائـــه واستبشرى

وقصيدته (بنفسجة في عروة) هي ليست في أصلها وصفا طبيعياً لزهرة البنفسج . ولكنها حلم رمزى للتعبير عن حب مكتوم

وما ترك الخليل شيئاً من مظاهر الطبيعة إلا صوره ومزج فيه بين الحس والوصف لقد وصف الليل ، وكوكب الزهر ، والبدر ، والبحر ، والأنهار . والأزهار والنبات حتى زهرة القطن ببياضه الناصع . وفي وصفه للبحر قد يجنح إلى العاطفة حينا ، وإلى أمجاد التاريخ حينا . وإلى

اتخاذ البحر مشبها به بعض الحين فمن وصفه العاطفي الوجداني للبحر قوله من قصيدة « المساء »

شاك إلى البحر اضطراب خواطري … فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لي … قلبا كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي … ويفتها كالسقم في أعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق … كمداً كصدري ساعة الإمساء

أما وصفه للبحر الذي عرج فيه على أمجاد لبنان وتاريخه القديم فيتجلى في قصيدته التي نظمها لتأليف القلوب المتنافرة ، وألقاها في النادي الشرقي بالقاهرة وفيها يقول

والبحر ما أسناه في صفو وما … أبهاه في الإرغاء والإزباد
صالت على الدنيا به «فينيقيا» … قدما ونعم الفخر للأجداد
إذ لم يكن في الناس ملاح ، ولم … يك فوق لج رائح أو غادي
فتحت به للعلم فتحا باهراً … ووقت به الأسواق كل كساد
واستدنت البلد القصي فلم تدع … لليأس معنى في مجال بعاد
يا بحر يا مرآة فخر خالد … أبقوه في الأبصار والأخلاد
هل تعذر الحفداء فيما ضيعوا … من مفخرات أولئك الأجداد

أما استعمال البحر في مجال التشبيه فيتجلى في مثل قول خليل مطران من قصيدته التي استقبل بها الشاعر أحمد شوقي يوم عودته من منفاه بالأندلس

ما زال خلاقا لكل خريدة … تصبي الحليم بروعة وبهاء
كالبحر يهدي كل يوم درة … أزهى سنا من أختها الحسناء

ولقد وصف الخليل الأنهار لا للوصف الطبيعي في ذاته ... ولكن

توصلا إلى غرض من الأغراض التي غلفها بغلاف الوصف . ففي قصيدته الدالية التي نظمها للتأليف بين القلوب يعرج على دمشق كما يعرج على بيروت وصولا إلى هدفه من التأليف ، وفي تعريجه على دمشق لا يفوته أن يعرج على نهر بردى وأن يصفه بقوله

بردى ونضر غياضه ورياضه ... نعم الحياة تجمعت في واد
ماذا يريكم من روائع حسنها ... تصويرها ببراعة وسداد
كم في الحزون وفي السهول وراءها ... عجب يروع نواظر الأشهاد
آيات تدبيج يتم رواؤها ... بتلمع الأنهار في الأرآد
ويكاد بحر الآل في أطرافها ... يشجو السماع بموجه الهداد

وفي قصيدته (هل تذكرين) التي نظمها في ابنة عمه « نجلا صباغ » التي زارت مصر بعد هجرة طويلة إلى نيويورك. يذكرها شاعرنا بأيام الصبا في زحلة ، ومعالمها وبدائع الجمال فيها ، ولا ينسى أن يذكرها بالنهر هناك قائلا

والنهر هل هو لا يزال كما ... كنا لذلك العهد نألفه
يسقي الغياض زلاله الشبما ... ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخبا على الصخر ... ويسير معتدلا ومنعرجا
يطغى حيال السد أو جسر ... متضايقا آنا ومنفرجا
متخللا خضر البساتين ... متهللا لتحية الشجر
متضاحكا ضحك المحانين ... لملاعب النسمات والزهر
واها لذاك النهر خلف لي ... عطشا مذيبا بعد مصدره
يا طالما أوردته أملي ... وسقيت وهي من تصوره

وفي قصيدته (من غريب إلى عصفورة مغتربة) التي نظمها في جنيف بقرب تمثال جان جاك روسو ، حين رأى على شجرة هناك

طائراً يشبه أن يكون مصرياً ، يخاطب شاعرنا هذه العصفورة المغتربة قائلا

بنت الكنانة ما رمــــــــى	بك بين هذى الأربـــع ؟
فيم اغتربت وكنت فــــى	ذاك الأمان الأمنـــع ؟
أحملت محمل سلعــــــــة	جلبا بغير تطـــــوع ؟
ففررت من قفص الكفيـــل	إلى الفضاء الأوســـع ؟

وفى قصيدته التى يبكى فيها على مائتى غريق فى النيل يخاطب فيها النهر الخالد قائلا

مائتى هالك أصبت رجـــالا	ونساء أصبت غنما عظيما
أيها النيل ما جنيت عليهـــم	بل جنى جهلهم ، ولست مليما
طالما مارسوك سهلا عليهـــم	من حنان وداعبوك حليما
واستدروا منك العطاء وفيرا	وأصابوا منك الوفاء عميمـا

وبعد ! فهذا هو الشاعر خليل مطران الذى ظل يصور الطبيعة ويناجيها زمانا طويلا فلم ترد عليه وها نحن أولاء نذكره ونناديه بعد أن نقل جثمانه إلى وطنه الأول لبنان ، فهل يرد علينا النداء من عالمه البعيد ؟

رحم الله هذا الشاعر العظيم !

نفحات الحب ولفحات العشق

فى ادب المهجر

لم يكن أدباء العرب فى المهجر الأمريكى إلا ناسا من الناس ، يحبون ويعشقون ، ويجرى على أكثرهم قول الشاعر القديم

إذا أنت لم تعشق ولم تلك ذا هـــوى
فكن حجرا من جامد الصخر جلمدا

غير أن منهم من كتم هواه وستر حبه فلم يصرح به فى شعر ، ولم يعالن به فى نثر ولم يجعل منه شعراً يروى أو قصة تحكى ، أو ترانيم يتغنى بها العاشقون من أمثاله ومنهم من لجأ إلى الشعر أو النثر يودع فيهما قصة غرامه . وحكاية هيامه ويجعل منهما معرضاً لصباباته وأشواقه ومواجده ومواجعه

ولقد نظر بعض شعراء المهجر إلى « الحب » على أنه الجنة التى يبترد بنعيمها ، وأن « عدم الحب » هو الخواء الذى تلاقى به النفوس عذابها الأعظم . وأن الدنيا بغير « الحب » هى جهنم بلظاها وسعيرها بل هى الزمهرير القارس والقاسى بظلامه الدامس وجوه العابس وأن القلب بغير المحبة ، هو المنزل المتردم والربع المتهدم فالمحبة مرهم للجراح ، وسلم للسعادة ، وتألق فى النجوم وترنم فى الحياة وأنفس للعشاق تتبسم فى غسق الدجى وقد ألم بهذه المعانى الشاعر « إيليا أبو ماضى » حيث يقول

بالأمس بادرنى صديـــق حائــر يستفهــم
أجهنم نار كما زعـــم الهـــداة وعلمـــوا

أم زمهرير قارس قاس وكـــون مظلـــم

فأجبته ما الزمهرير وما اللظى المتضرم

بجهنم ! لكنما أن لا نُحسب جهـــنمُ

يا صاحبي إن الخواء هو العذاب الأعظم

القلب — إلا بالمحبة — منزل مـــتردم

هي (١) للجراحة مرهم. هي للسعادة بلسم

هي في النجوم تألق هي في الحياة ترنمُ

هي أنفس العشاق في غسق الدجى تتبسم

وقد نلاحظ على « أيليا أبو ماضي » أنه لم يتناول « الحب » في شعره عن تجربة ولم يعالج العشق عن خبرة ذاتية وإنما تناولهما عن حكمة نظرية ، وفلسفة غير عملية كما نلاحظ عليه أنه نظر إلى « الحب » بمعناه الإنساني الرحب ، لا بمعناه الخاص بين الرجل والمرأة فأن النفس التي لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها ، والحب يوصل الإنسان إلى معرفة نفسه وإلى معرفة الله وما أصدقه وهو يقول

قال قوم إن المحبة إثـــــم	ويح بعض النفوس ما أغباها !
إن نفسا لم يشرق الحب فيها	هي نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي	وبالحب قد عرفـــت الله

وقد أباح أبو ماضي « العشق » لكل إنسان استناداً إلى فلسفة التناظر بين جميع الكائنات . فإذا كان للجدول أن يجري ، وللزهرة أن تفوح بالعبير ، وللطيور أن تشتاق الربيع وألوانه فهل حرام على القلب أن يهوى وأن يعشق ؟

---

(١) الضمير يعود على المحبة

دع اللاحي وما صنف والقالسي وبهتانه
أللجدول أن يجري وللزهرة أن تعبق
وللأطيار أن تشتاق «آبار» (١) وألوانه
وماللقلب — وهو القلب — أن يهوى وأن يعشق؟

ومن المؤسف أن «إيليا أبو ماضي» الشاعر الذي فلسف العشق والحب وتغنى بالحكمة فيهما، لم يخلف لنا في سيرة حياته تجربة للعشق تحكي لنا مواجده، ولعله كان مشغولا بفلسفة العشق عن العشق ذاته. وهو في هذا ليس مثل الشاعر المهجري «إلياس فرحات» الذي فضحته قصيدة «خصلة الشعر» منذ أكثر من سبعين عاما والذي كشفته بعض قصائد من الغزل الحسي بالمرأة تعد لوحات فاتنة في متحف العشق لجمال المرأة.. ولقد ظل حبه العارم لفتاته وقريبته (أنيسة) مكتوما عنا عشرات من السنين إلى أن أزاح هو الستار عنه وهو يتحدث في كتابه الممتع: (قال الراوي) عن ذكرياته ومذكراته في لبنان قبل الهجرة إلى العالم الجديد سنة ١٩١٠، وفي البرازيل بعدها. ولقد غزا الحب قلب هذا الفتى الملتهب العاطفة في سن مبكرة، ويصور هو هذه الغزوة الغرامية بأنها كانت وحشية جنونية، ملأت أوساط قلبه وحواشيه، ولم تترك فيه مغرز إبرة خالياً وقد جمع بينها وبينه النسب والقرابة، وكان يتدفق سحر الأنوثة من عينيها السوداوين الواسعتين وكانت أصغر منه في السن بقليل إلا أنها كانت تكبره في المعرفة، وكان أبوها من المهاجرين العائدين إلى الوطن وعلى شيء من اليسار النسبي، كما كان من مشتركي (الهلال) وقرائه الدائمين، فانتقلت عادة القراءة إلى ابنته التي كانت تجلس مع الشاعر إلياس فرحات يقرآن معا مجلة (الهلال) وروايات الهلال لجرجي زيدان، ويقرآن كل ما يقع في أيديهما من كتب، وكثيراً ما كانا يتخذان من نفسيهما بطلين

---

(١) آبار هو من شهور السنة الرومية ويقابل شهر مايو الذي تتفتح فيه الازهار

لأحدى روايات الهلال ويصور لنا «فرحات» كيف كان يحتال على الراهبة ليلتقي مع حبيبته في مدرسة الراهبات ببلدة (برج البراجنة)

واشتهر إلياس فرحات الغلام النامي يومئذ بحب (أنيسة) . كما شهرت هي به وتواعدا على الزواج حتى بعد هجرته إلى البرازيل . ولكن السنين مرت عقداً عقداً . ولم يتم زواج العاشقين كما كانا يحلمان فتزوجت «أنيسة» وصارت أم أولاد ، وتزوج إلياس فرحات وصار رب أسرة ولم يبق من ذلك العشق العنيف إلا ذكريات وصفها شاعرنا — مستعيراً قول طرفة بن العبد الجاهلي — بأنها « تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد »

ولم تنس الأيام والسنون ، والبنون صاحبة إلياس فرحات صاحبها .. فبعثت إليه بعد عقود من السنين رسالة تذكره فيها بعهد صباهما وهواهما الفائت . فما كان من الشاعر إلا أن استجاب لهذه الرسالة بالأبيات التالية :

تذكرني عهد الصبابة من لهـا	على القلب من عهد الصبابة سلطان
وقد جهلت أن البياض الذي طمى	على الشعر فيه للصبابة أكفان
حنانيك ! إن الذكريات لذائذ	عواقبها في خيبة القلب أشجان
دعيني أعيش اليوم فالأمس قد مضى	وما لغد في دفتر العقل حسبان ..

ولعلنا لا نكون واهمين إذا استنتجنا أن (أنيسة) هذه هي صاحبة خصلة الشعر ، التي يقول فيها فرحات

خصلة الشعر التي أعطيتنيهـا	عندما البين دعاني بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيهـا	وسأتلوها إلى اليوم الأخير

على أن الأيام التي فرقت بين العاشقين المولهين وألقت بكل منهما في طريق مغاير : قد شاءت لشاعرنا فرحات أن تنتهي أيام عزوبته كما

انتهت أيام محبته ، فتزوج بأم ولديه : خالد ، وعصام . في سنة ١٩٢١ بعد أن منته صاحبة « خصلة الشعر » بالزواج عشر سنين وقد استقبل فرحات عروسه الجديدة بقصيدة يودع فيها العزوبة قائلا

يا ليل لا تعتب ولا تغضب فما أنا بالغضوب
إن كنت قد أذنبت فالآتي غداً يمحو الذنوب
فغداً تزف إلى ناصعة الملابس والجبين
عذراء طاهرة بشكل حمامة الروح الأمين
وغداً ينادمني الصحاب من الصباح إلى المغيب
فإذا تفرقت الجموع فلا نديم سوى الحبيب

وهكذا لمع في سماء الشاعر « فرحات » نجم حب جديد ، هو الحب الذي وثقه الزواج ، والذي بدأ ينزع من قلبه كل علاقة للحب القديم وقد كان أيسر الظن بالشاعر إلياس فرحات ألا نجده في ركب شعراء التشبيب والغزل الحسي ، ما دام قد آواه الزواج إلى عش دفيء ولكن صديقنا « فرحات » زائغ البصر دائما ، متقلب الطرف ففي قصيدته (هل تشترين ؟) نجد لوحة رائعة لأنثى يتوسل إليها قائلا :

خداك في صحنيهما جمعا	ورد الرياض الغض والفلا
أيلام طرف فيهما رتعا !	لا : فالمحرم في الهوى حلا
عيناك غازلتان ما غزلت	عين الغزالة في الربيع ضحى
فأقا خيوط سناهما نزلت	كست القلوب فصفقت فرحا
أذناك زنبقتان رابهما	شعر يحوم كطالب الشم
أو بتلتا فل أصابهما	ماء فحلهما عن الأم
نهداك — وادهشي وقد ظهرا	في الحلم لي — فرخان في عش
خلف الدمقس اللين استترا	لا خلف قاسي الطين والقش
هل ترفقين بشاعر صب	دنف شمرة فيك ينتعش ؟

هل تشترين بقبلة قلبي أواه ! كاد يمتني العطش !

على أن الشاعر إلياس فرحات معذور حين نراه مولها بالجمال ومفاتن الحسن وقد أغرق فى نظرته إلى الجمال الأنثوى فقال مغالياً

وجمال النساء رب له الحمـ ـد وفى كل هيكل معبود
لو خلت جنة الأله من الحو ر لما مات فى الجهاد شهيد !

ومن هنا نجد له هذه العين « الزائغة » التى يرسلها ترتاد كل أنثى جميلة . ولو لم يقم بينهما حب أو عشق إلا أثر النظرة إلى « الجميل »

ويذكرنا « إلياس فرحات » فى مجال هذا الغزل الحسى والتشبيب بالأنثى الجميلة بالشاعر « جورج صيدح » الذى أقام بباريس بعد هجرة طويلة إلى أمريكا الجنوبية وقد بلغ من ولوع صديقنا « صيدح » بمتابعة الأنثى الجميلة أنه لا يتورع أن يتبع الجارات ريبة طرفه !

ألا يصارحنا الشاعر ويقول متغزلا فى جارته

أنت لو كنت شعرت بأسى الجار الغريب
ربما كنت سررت تحت شاكى القريب
أنت لو كنت فهمت سر قلبي من عيونى
ربما كنت ابتسمت بسمة الأخت الحنون
أنت لو كنت عرفت أننى فى الدار وحدى
ربما كنت وقفت عند بابى دون قصد !

وأية جارة هذه التى لو علم أهلها بنوايا الشاعر صيدح لغضبوا لها غضبة مضرية ؟ هى جارة كانت لشاعرنا فى القاهرة سنة ١٩١١ قبل هجرته إلى العالم الجديد ويبدو أن جورج صيدح كان قد وضع نفسه فى حل

من معاكسة الجارات ! ففي القاهرة أيضاً وفي سنة ١٩١٩ يعابث في غزله جارة له — ولعلها غير الجارة الأولى فيقول لها

لي في جوارك مـــنزل	يا ربة القصر المشيـــد
راقبت من شرفاتـــه	أستار خدرك والبنـــود
بيني وبينك حاجبـــان	فما حواجبنا تفيـــد ؟
بعد السلام والابتســـام	ألا نزول ولا صعود ؟

وإذا كانت القاهرة وأحياؤها وأرباضها من مثل الفجالة . والظاهر ، والجزيرة وباب الحديد ، قد شهدت مغامرات الشاعر « صيدح » الغرامية وسجلها في شعره ، فأن باريس ، وغابة بولونيا ، وسويسرة وبحيراتها وجنيف وغيرها قد شهدت نزواته الكثيرة مع الحسان ففي (ليلة البحيرة) تحتويه هو وعشيقته قارب واحد ؛ ثم يطلب إليها أن يحتويهما معطف واحد ، فيقول

جدّفي « جانين » قد طاب السُّرى	ونسيم البحيرة الشافي سرى
فإذا أذبل جفنيك الكـــرى	فاتركي المجذاف للماء الأمين

وتعالـــي شاطريـــني معطفي

وفي باريس يهاتف محبوبته بالمسرة مهاتفة فيها خبث الغرض عن طريق الوعيد بالقطيعة ، فيسقط الهاتف من يديها وتسرع إلى مأواه

سقط الهاتف من كف الصبية	وأطاعتني بعصيان الوصية
فهمتني مرة يا للذكية !	أقبلت من فورها تعدو إليّا

وطوانا الليل بالأستار طيـــا !

ويبدو أن للشيخوخة حكمها ... ففي بيروت سنة ١٩٥٤ — وقد تخطى الشاعر « صيدح » الستين — كان في ليلة راقصة ، ولكن الهوى لم يمل

به كما كان يفعل من قبل ... فرقص — كما يقول فى قصيدة « رقصة » — (رقص مهذب مترفع عما يجول بخاطر الجلاس) وأكد ذلك قوله

إنى امرؤ صعب المراس على الهوى	لا تفتح الشهوات حصن مراسى
إن كان للشعراء شيطان ، فلى	ملك ينزهنى عن الأدناس

ومهما يكن من تشبيب أخينا « صيدح » وجريه وراء دواعى الهوى والشباب قبل زواجه ، فأنه قد وجد فى الزواج الحصن والحصانة من كل المعابث والمباذل . فودع عهد العزوبة — كما ودعه من قبل إلياس فرحات — بقصيدة يقول فيها مشيراً إلى قرينته الفاضلة الأجنبية جنسية ولسانا

أبصرته على الطريق المعوج	ودعته إلى السوى فعرج
النقيضان عنصراً ولسانا	أصبحا كالسلاف بالماء تمزج
يا فؤادى ! أما مللت التصابى	أنت للحب — صادق الحب — أحوج
فتدثر بالفجر ثوباً نقيا	واخلع الليل بالمعاصى تضرج
وضح الأفق بعد تيه الليالى	آن أن أستبين للسير منهج

ولعل أعجب شعراء المهجر فى أمر عشقه وحكايات حبه الشاعر القروى « رشيد سليم الخورى » فقد بدأ بالحب فى لبنان شاعراً عفيفا عذرى الهوى فهو يذكرنا فى هذه الناحية بشعراء بنى عذرة وخاصة فى العصر الأموى ولقد كانت النظرة البريئة إلى عين من يهوى تشبعه وترويه فلا يسىء بعدها الظن ولا يتطلع إلى فاكهة محرمة

وما أشبهه فى هذا ببلديه الشاعر « إلياس فرحات » وما كان له من حب عفيف عنيف مع نسيبته « أنيسة » صاحبة « خصلة الشعر » . ولكن سرعان ما غادر الشاعر القروى لبنان إلى مهاجره فى البرازيل فاستحال الحب عنده إلى غزل حسى صارخ وفتن الشاعر القروى بجسد المرأة . وجمال الأنثى حتى بتنا نجد له فى التشبيب مثل هذا الشعر

جرأة الحلمتين خلف الصدار | علمتنا في الحب خلع العذار
خبئي هذه المفاتن عنـــا | إنما الصدر مخبأ الأســرار
كيف لا تطمع الأكف بكنز | دافع نفسه إلى النظـــار ؟

ومن شعراء المهجر الذين نكث أحبابهم معهم عهودهم الشاعر « إلياس قنصل » ، ويبدو أنه كانت له تجربة من الإخفاق في الحب بعد أن صدت عنه حبيبته ، فاستسلم إلى حزن وتعس وضح أثرهما في بعض شعره . ففي قصيدة « هل تذكرين » يذكر حبيبته بسالف عهدهما في الحب والود ويسائلها إن كانت لا تزال تطالع قصائده أم تعرض عنها إمعانا في صدها ، ويذكرها كذلك بالقسم الذي كانت أقسمته بأنها ستظل وفية له مدى الحياة ، ثم يمعن في التذكير فيثير فيها كوامن ذكريات سعيدة قضياها معاً في نعيم من القبل ، فيقول في خضوع وانكسار

أتطالعـين قصائـدي أم تعرضـــــين
عنهـا وقـد طوقتهـا بتوجعـــي ؟
وسكـبت بـين سطورهـا قلـبي الكئيب
ومزجتهـــا بتنهـــدي وتفجعـــي
وأزحـت فيها الستر عن حزني الغريـب
أتطالعـين قصائـدي ؟ أتطالعـين ؟

لـو تعلمـين تعاستي لـو تعلمـين
مـا أكابـد من حنـين والتيـاع
لعراك – رغم صدودك – الأسف الشديد
وذكرت ماضي عهدنا قبل الـوداع

وعرفت أنى ما أزال على العهـــــود

لو تعلمين تعاستى لو تعلمـــــين

أنسيت كم أسمعتنى ذاك اليمـــين

والليل داج والخلائـق نائمـــات

والكون هاد والكواكب فى وجـوم

« قسما برنى لن أخون مدى الحيـــاة

عهد الهوى ، وليشهد الليل البهيم »

أنسيت كم أقسمت ؟ أم هل تذكرين ؟

ويردد الشاعر « إلياس قنصل » فى شعره الإشارة إلى ما فعلته معه حبيبته من التنكث بالعهود ، مما يدل على أن الصدمة كانت أليمة عليه . وأنها كانت غير متوقعة وخاصة بعد أن أقسمت له يمين الوفاء ثم تركته وحيداً يغمر الحياة .وقد كان على وشك أن يجازى حبيبته الهاجرة صدوداً بصدود ، وأن يقطع حبل الأمل منها إلى غير رجعة ولكن أشياء جميلة فى الطبيعة كانت تذكره بها وتدعوه إلى نسيان إساءتها. ففى قصيدته « لوعة الذكرى » يقول

هجرت الصحاب وعفت الديار لعل السلو يساور قلبى

وسرت إلى دوحة طالما بـــــدت عن ضلوعى حزنى وكربى

وخلت بأنى سأنسى هواهـــا هناك وأهجر وجدى وحبى

ولكن وقد بسم الزهر قربى تذكرتهــــــــــا

فقلت لنفسى إلى كم يطـــول عذابى ؟ وحتام أذرى الدموع ؟

ألست بعهد الشباب ؟ أليــــس الشباب بعرف الأنام ربيع ؟

سأعرض عنها كما فعلت بـى وحسبى انقيادا . وحسبى خنوع ؟

ولكن وقد غرد الطير قربــــى تذكرتهـــــــــا !

ولا نستطيع أن نمر بموكب العشاق من أدباء المهجر دون أن نلم بأديبين مفكرين شاعرين أولهما جبران خليل جبران صاحب « النبي » و « الأجنحة المتكسرة » و « رمل وزبد » و « التائه » و « دمعة وابتسامة » و « المواكب » وغيرها ، وثانيهما ميخائيل نعيمة صاحب « المراحل » و « الغربال » و « الآباء والبنون » و « زاد المعاد » و « كرم على درب » و « لقاء » و « مذكرات الأرقش » وديوان « همس الجفون » و « مرداد » وغيرها

ولقد حدثنا ميخائيل نعيمة فى كتابه العظيم أو رحلة عمره « سبعون » عن بعض مغامراته فى الحب والعشق ونحن مصدقوه حين يحدثنا عن نفسه يوم كان فى الروسيا قائلا (لقد هامت بى أكثر من فتاة فى ذلك الصيف ، إلا أننى لم أفتح قلبى ولا استسلمت لإغراء أية واحدة منهن ولو شئت أن أمثل دور « دون جوان » لمثلته بسهولة لكن فى مزاجى وذوقى وخلقى وطبيعتى ما يتقزز من أمثال « دون جوان » ، ومن العبث بعواطف النساء إرضاء لشهوة عابرة حتى لأحسبها جريمة إذا أنا أخلصت لامرأة وأدخلتها قلبى أن أشرك سواها فى عاطفتى) ومن هنا لم يكن ميخائيل نعيمة زير نساء ، ولا كثير التنقل فى لذات الهوى وكانت كبرياؤه تعصمه أن يتبذل فى البحث عن علاقات مع بنات حواء . وإن كان ذلك لم يمنعه أن يستجيب لنداء غرام عنيف جاءه من ناحية فتاة روسية اسمها « فاريا » وكانت فاريا هذه متزوجة . ولكنها أحبت ميخائيل نعيمة حبا نسيت معه كل شىء ، كما نسيت فارق السن بينها وبين الفتى العربى .

وكان هو حريصا على ألا يحطم القلب الذى منحه الحب ، أولا يجرحه جرحا بالغا ، وما كاد نعيمة يتخلص من نزوات « فاريا » حتى وقع فى حب جديد مع « ليدا » ابنة أستاذه فى الأدب ويصفها بأنها (فتاة لطيفة ناعمة جميلة ، ولكن تربيتها البيتية جعلت منها عصفورة فى قفص ..) .

وفى أثناء زيارة قصيرة لعم الفتاة « ليدا » فى قريتها الصغيرة ، وقع طرف شاعرنا على ابنة العم « ماروسيا » ، فتعلقت الفتاة الريفية الساذجة به ونستمع إليه وهو يروى لنا حكاية حبه الجديد قائلا « وكنت أباداها الحب لولا أنها لا تزال طفلة بمداركها إنها تقطر عذوبة وطهارة وجمالا وقد طلبت إلى أن أدون لها فى « الألبوم » أبياتا للذكرى . ففعلت » ولم يقل لنا ميخائيل نعيمة ما هذه الأبيات التى دونها ولن تجدها فى ديوانه « همس الجفون » لأن الحكمة التى ألهمته هذا الديوان لاتتدنى إلى مثل هذا الغرام العابر السريع

وتظهر « فاريا » ثانية فى حياة ميخائيل نعيمة حيث احتوتهما سماء « بولتافا » من جديد ويصرح لنا أديبنا العربى عن صلته الجديدة بفاريا قائلا (إن علاقتى بفاريا أخذت تتوثق وتتعقد . إلى حد أنه بات من المتعذر على توجيهها أو حصرها ضمن نطاق الممكن والمعقول تلك العلاقة ابتدأت من جانبي شفقة . ثم تحولت بالتدريج ألفة فعطفا ولكنها لم تكن فى يوم من الأيام ذلك الحب الذى لا يهنأ له عيش إلا بجانب المحبوب)

وما هام ميخائيل نعيمة بحب أنثى كما هام بحب « بيلا » فى نيويورك ، التى جعلها دار هجرته مع النازحين من أبناء العروبة إلى العالم الجديد لقد كانت « بيلا » متزوجة كذلك مثل « فاريا » التى لقيها فى روسيا وقد أصبحت « بيلا » رفيقة لقلب ميخائيل نعيمة وأصبح أديبنا منذ ذلك اليوم ينصح لكل من خلا قلبه من الحب أن يفتش لقلبه عن رفيق وبات ينادى ويدعو إلى ذلك قائلا

أسفى عليك فلا الذهـــاب سهل لديك ولا الإيـــاب
ستظل تخبط فى ضبــــاب حتى ينير لك الطريـــق
قلب يكون لقلبك الواهى رفيــــق

ومنذ ذلك الحين أصبح لعشق نعيمة « ليلا » مكان فى ديوانه « همس الجفون » وبتنا نجد فيه قصيدة إليها يقول فيها

أنا النسر الذى استترا	بروحك منذ ما خطرا
ببال الكائن الأعلى	خيال العالم الأدنى
فصور من ثرى بشراً	فهات يداً وهاك يدى
على رغد ، على نكد	وقولى للألى جهلوا
معا كنا من الأزل	معا نبقى إلى الأبد

ونختم هذه الندوة الغرامية مع أدباء المهجر بالشاعر المفكر . والكاتب المتحرر جبران خليل جبران لقد شهدت ربوع قرية « بشرى » فى لبنان حبا قوياً بين جبران وبين الفتاة « حلا الظاهر » التى غضب أخوها لذلك الحب ، حتى حرم عليها أن ترد التحية على ذلك الفتى الفقير الذى لا يدانيها ثراء ونسباً وهاجر جبران إلى أمريكا يحمل حبه « لحلا » ويعجب لماذا لا تبادله الرسائل ، وكانا ساعة التوديع يتبادلان الهدايا التذكارية . فهى تهدى إليه أشغالا يدوية أنيقة تأنقت أناملها فى صنعها له على سبيل التذكار وهو يهدى إليها خاتماً وقارورة صغيرة من قوارير العطر ملأها بقطرات من دموعه وكثيراً ما كان صاحبنا يشغل نفسه فى مرسمه الخاص بنيويورك برسم صورة لفتاته « حلا » بعد أن أعياه الحصول على صورة فوتوغرافية لها بوساطة صديقة لها لبنانية . ولا تزال هذه الصورة محفوظة فى متحف جبران تذكاراً لحكاية حب قديم

ولا شك أن رواية « الأجنحة المتكسرة » التى أصدرها جبران سنة ١٩١٢ كانت حكاية حبه الذى لم تدعه الأقدار إلى مداه ولكنه تصرف فى الأحداث الجانبية للقصة مما يبعد الشبهة عن أن يعرف منها القارىء أنها حكاية عشقه ...

وتصادفنا فى حياة جبران خليل جبران الغرامية قصته مع الفنانة « أميلى ميشيل » الشهيرة فى المدرسة باسم « ميشلين ». كما تصادفنا قصته مع « مارى هسكل » التى كانت كالسنديانة — كما ينعتها تلميذاتها يستأنس الضعيف بقوتها ، والمسافر بظلها ، والعين بطهارتها أما الجائع فيرتد عنها جائعا والعطشان عطشان — كما يقول عنها ميخائيل نعيمة فى كتابه عن جبران ومن أجل هذا فكر جبران جديا فى الزواج بها لولا كلمة منها جرحته جرحا بالغا فتبخرت أحلامه

ولقد اعترضت الكاتبة النابغة الأديبة « مى زيادة » حياة جبران خليل جبران العاطفية وكانت بينهما رسائل تدل على حب كبير ، وغرام عظيم : على الرغم مما بينهما من ألوف الأميال

أبو العلاء المعرى
والاشعار المكتوبة عليه

سمعت من رئيس تحرير الهلال من مواد عدد مارس سنة ١٩٧٢م– القصيدة القافية الرصينة . المشرقة بنور الإيمان والتي يرد بها ناظمها الفاضل على بيت قيل أنه لأبى العلاء المعرى . وقد جرى شاعرنا المعاصر الحسن الاعتقاد . على طريقة المعارضة في الشعر . من النظم على الوزن والقافية ، ثم زادت المعارضة توكيداً بكونها على طرف النقيض من فكرة المعرى المبنية على الشك الدال على الحيرة والبلبلة واضطراب الفكر

والبيت المنسوب إلى أبي العلاء المعرى والذى بنى عليه الشاعر الاواء الدكتور عبد الله قلندر ، محافظ الخرطوم . فكرته في المعارضة والمناقضة هو

تحـيرت لا أدرى أمام الحقائـــق
أأنى خلقت الله أم هو خالقــــى ؟ (١)

وعلى كثرة ما قاله المعرى أو نسب إليه – بلا تحقيق – من شعر يوهم بالإلحاد وفساد العقيدة فأن هذه الأشعار توحى بالشك فى مسائل كثيرة كانت تشغل بال فيلسوف المعرة ، وتقض عليه مضجعه وتجعله كثير التساؤل . والعودة من التساؤل بدون جواب يشفى غلته أو يضمئن من نزوعه إلى المعرفة وتحرقه إليها كمسألة المعاد للأجساد ، واختلاف

---

(١) هذا البيت للزهاوى الشــاعر من ديوانه (النزغات) وليس للمعرى – انظر مقال يوسف عز الدين بالهلال – عدد سبتمبر ١٩٧٢ فانظر الى غرائب الكذب على ابى العلاء فى العصر الحديث

الديانات . ومقالات الرسل . والحظ الذى يعلى واحداً ويخفض آخر مع التساوى فى الظروف والملابسات وحرمان العقلاء من الحظوظ والأرزاق وجدة (١) الحمقى والمجانين وعذاب الأطفال الأبرياء بالعلل المضنية والآلام المنهكة . وغيرها من المسائل التى لا يعدم أى إنسان الخوض فيها والحيرة منها . ما لم يعصمه من الله عاصم . وما لم يثبته باليقين إيمان

أما القضية التى يحملها هذا البيت المنسوب إلى أبى العلاء . فلا ندرى كيف نردها إلى مسألة من مسائل الفلسفة الغيبية ؟ ولا ندرى كيف يستقيم فى العقل الصحيح أن يكون (الأله) الخالق مخلوقا للإنسان ؟ هل يريد قائل هذا البيت — سواء أكان أبا العلاء أم غيره — أن يردنا إلى فكرة وحدة الوجود أو فكرة الحلول ؟ وإذا كان هذا هو المراد فهل هذه هى طريقة التعبير عنها ؟ كما عبر عنها أصحاب مذهب « الحلول » من أمثال « الحلاج » الذى كان سابقاً على أبى العلاء . و « محي الدين بن عربى » الذى جاء بعده بأكثر من قرن ؟

نحن لا نحاول هنا أن نرد على هذا البيت الذى كفانا الشاعر الدكتور « عبد الله قلندر » مؤونة الرد عليه فقد ربح ديوان الشعر العربى الحديث قصيدة عقائدية قوية ما أحوج عصرنا المهزوز إلى عشرات مثلها ولكننا نحاول أن نعرف النسب الصحيح لهذا البيت الذى قيل أنه لأبى العلاء

لقد قلبت ديوانى الشعر الكبيرين « سقط الزند » و « لزوم ما لا يلزم » فى أحدث وأوثق طبعاتهما وقلبت ما طبع من مؤلفات

---

(١) الجدة بكسر الجيم وفتح الدال المخففة وجود الشىء وهو مصدر من الفعل وجد

أبى العلاء ، وآخرها « زجر النابح » الذى أصدره مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور أمجد الطرابلسى . وقلبت أكثر من ثلاثمائة مصدر ومرجع فى دراسة المعرى بين قديم وحديث ، فلم أجد هذا البيت مذكوراً لأبى العلاء المعرى ولا معزوا إليه ومن هنا زاد تطلعى إلى معرفة المصدر الذى نقل عنه شاعرنا الدكتور عبد الله قلندر هذا البيت

وبين يدى أكثر المصادر القديمة التى ترجمت للمعرى وتناولت سيرة حياته فى قليل أو كثير من مثل « اليتيمة » للثعالبى ، و « الدمية » للباخرزى ، و « الأنساب » للسمعانى ، و « النزهة » لابن الأنبارى ، و « المنتظم » لابن الجوزى ، و « أنباه الرواة » للقفطى ، و « معجم الأدباء » لياقوت و « الكامل » لابن الأثير و « البداية والنهاية » لابن كثير ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « تاريخ الإسلام » للذهبى ، و « نكت الهميان » للصفدى ، و « النجوم الزاهرة » للأتابكى ، و « بغية الوعاة » للسيوطى و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، و « معاهد التنصيص » للعباسى ، وفصل من « نزهة الجليس » للعباس المكى فلا أجد فيها سيرة لهذا البيت ، ولا إشارة إليه مع كثرة ما روى مؤرخو المعرى من الأبيات العلائية الموهمة بالإلحاد وفساد العقيدة.

فهذا ياقوت الحموى ، وسبط ابن الجوزى ، وأبو الفداء المؤرخ وصاحب « المختصر فى أخبار البشر » والذهبى المحدث المؤرخ ، وابن الجوزى صاحب « المنتظم » ، وابن كثير صاحب « البداية والنهاية » ، وابن حجر المؤرخ المحدث ، والعينى صاحب « عقد الجمان » ، وابن العماد الحنبلى صاحب « شذرات الذهب » يأتون فى كتبهم بنماذج من شعر المعرى المؤذن بالانحلال الدينى كما أسماه بعضهم وبفساد العقيدة كما ذهب إليه آخرون . وبالكفر كما قال صاحب « الشذرات » ومن أشعار أبى العلا الموهمة بالإلحاد قوله

خذ المرآة واستخبر نجومـــــا تمر بمطعم الأرى (١) المشور
تدل على الممات بلاارتيــــاب ولكن لا تدل على النشور ؟

وقوله

هفت الحنيفة. والنصارى ما اهتدت ويهود حارت. والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل لــه

وقوله

أن الشرائع ألقت بيننا إحنـــــا وأورثتنا أفانين العــــداوات
وما أبيحت نساء الروم عن عرض للعرب. إلا بأحكام النبــوات

وقوله الموهم بأنكار البعث

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكــوا
تحطمنا الأيام حتى كأننــــــــا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وقوله وهو يوهم أيضاً بأنكار البعث

زعموا أنني سأبعث حيــــا بعد طول المقام في الأرماس
وأجوز الجنان أرتع فيهـــــا بين حور وولدة أكيـــاس
أى شيء أصاب عقلك يا مســـكين حتى رميت بالوسواس ؟

وهذه النماذج التي سقناها قبلا هي من لزومياته المطبوعة أو المخطوطة .
على أن له أشعارا أخرى موهمة بفساد الاعتقاد ليست في واحد من ديوانيه
المشهورين « سقط الزند » و « لزوم ما لا يلزم » ولكن الرواة

---

(١) الارى بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة . عسل النحل والمشور هو العسل الذى اشتاره النحال من الخلية اى اخرجه

قد تداولوها وتناقلوها من كتاب إلى كتاب ، حتى صارت ألصق بأبى العلاء لأنها أشبه بشعره ومذهبه . ومنها البيتان التاليان

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل   وترزق مجنونا ، وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء   رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا !

فقد روى هذين البيتين علماء ومؤرخون لا يرقى الشك إلى رواياتهم . ومنهم ابن الجوزى ، والقفطى ويا قوت الحموى صاحب معجم الأدباء ، وسبط ابن الجوزى صاحب « مرآة الزمان » ، وابن كثير المؤرخ ، والعينى صاحب « عقد الجمان »

ومن الشعر المنسوب إلى أبى العلاء وليس فى واحد من كتبه ولكن الرواة والمؤرخين حملوه واستشهدوا به على فساد معتقده هذان البيتان

إذا ما ذكرنا آدما وفعالـــــه   وتزويج بنتيه لابنيه (١) فى الدنا
علمنا بأن الخلق من أصل ريبـــة   وأن جميع الناس من عنصر الزنا !

فقد رواهما ياقوت الحموى وسبط ابن الجوزى المؤرخ ، ومحيى الدين العيد روسى المؤرخ صاحب « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » ، والصفدى فى « الوافى بالوفيات » وفى كتابه الآخر « نكت الهميان فى نكت العميان »

ومن هذا الشعر أيضاً الذى يطعن فى رسالات الرسل والأنبياء هذان البيتان

ولا تحسب مقال الرسل حقـــا   ولكن قول زور سطروه

---

(١) بقطع همزة الوصل ، لاستقامة الوزن

وكان الناس فى عيش رغيـد فجاءوا بالمحال فكدروه

وهما أشبه بطريقة أبى العلاء فى التزام ما لا يلزم ولكنهما ليسا فى « اللزوميات » ولا فى « سقط الزند » وإن كان رواهما المؤرخ ابن الجوزى فى « المنتظم » والقفطى فى « أنباه الرواة » وياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » . وسبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » . والذهبى فى « تاريخ الإسلام » . وابن كثير المؤرخ فى « البداية والنهاية » . والعينى فى « عقد الجمان »

وقضية هذا الشعر وأمثاله من الكثير الذى قيل أنه لأبى العلاء المعرى ولكنه لم يرد فى ديوانيه المشهورين — تجرنا إلى سؤال حول صحة نسبة هذا الشعر لأبى العلاء . وتسوقنا إلى التساؤل هل قال أبو العلاء حقا هذه الأشعار ؟

إن جملة واحدة قالها فيلسوف المعرة أبو العلاء ردا على سؤال وجهه إليه معاصره الشاعر أبو النصر أحمد بن يوسف المنازى الأديب المعروف ، تعطينا مفتاح الجواب عن السؤال الذى أثرناه . فقد نقل المؤرخ القفطى هذا الكلام (وحدثنى الوزير فخر الدولة أبو النصر بن جهير ، قال حدثنى المنازى الشاعر . قال اجتمعت بأبى العلاء المعرى بمعرة النعمان ، وقلت له ما هذا الذى يروى عنك ويحكى ؟ فقال حسدنى قوم فكذبوا على ، وأساءوا إلى) فهنا وفى هذا الجواب الذى أجاب به المعرى عن سؤال الشاعر المنازى كلام صريح يدل على أن أبا العلاء كان رجلا محسداً ، مكذوباً عليه ولا نكتفى بهذا بل نؤيده بما قاله ابن الوردى المؤرخ الشاعر الأديب فى كتابه « تتمة المختصر فى أخبار البشر » فقد جاء فيه قوله (وكان يقول — رحمه الله — يعنى المعرى — أنا شيخ مكذوب عليه)

والكاذبون على أبى العلاء المعرى هم أولئك الذين كانوا يضعون الأشعار من عند أنفسهم على لسان ذلك الرجل المفترى عليه ويضمنونها أقوال الزنادقة والملاحدة فتروج وتنتشر. وتتلقفها الأفواه خاصة مخالفتها لمعتقدات الجماهير وأبو العلاء منها براء

ولا نسوق هنا الاتهام بغير دليل ، فهذا « أبو اليسر المعرى » — واسمه شاكر بن عبد الله بن محمد بن أبو المجد المعرى — وكان كاتب الأنشاء لنور الدين محمود زنكي الملقب بالملك العادل — يقول أبو اليسر هذا (وكان — يعنى المعرى — رضى الله عنه . يرمى من أهل الحسد بالتعطيل . ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار . يضمنونها أقاويل الملاحدة . قصدا لهلاكه وإيثاراً لإتلاف نفسه). وقد نقل كثير من المؤرخين كلام « أبى اليسر » هذا ومنهم ياقوت الحموى فى معجمه ، والصفدى فى الوافى بالوفيات « مرة . وفى « نكت الهميان » أخرى ، والعباسى فى « معاهد التنصيص ». وأكثر من هذا أن أبا العلاء كان — كما سبق القول — يبلغه هذا الشعر المكذوب عليه فلا يكتفي بقوله الذى أشرنا إليه آنفا (حسدنى قوم فكذبوا على ، وأساءوا إلى) بل يصور لنا هذا الكذب عليه بقوله

حاول إهوانى قوم فما | واجههم إلا بأهوان
يحرسونى بسعاياتهم | فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى إلى المر | يخ فى الشهب وكيوان !

ولم يتعرض أبو العلاء المعرى لدس الشعر المكذوب عليه ، وتقويله ما لم يقل ؛ وحسب ، ولكنه تعرض لنوع آخر من تحريف شعره فأذا ما قال بيتا صحيحاً مستقيما تناوله المحرفون بما يسىء الظن فى عقيدته ، ونقلوه إلى الأمراء والوزراء ، والخاصة محرفا عن أصله ، حتى يثيروا

عليه سخطهم ويؤلبوهم عليه وتلك جنازة يشتهيها من يفرح فيها بالنظم !
فقد تناول هؤلاء المحرفون بعض الأبيات فى « اللزوميات » فغيروا فيها
وبدلوا على هواهم ولما علم أبو العلاء بأمرهم كتب رسالة إلى الأمير
معز الدولة « ثمال بن صالح » أمير حلب فى وقته وتعرف « برسالة
الضبعين » يشكو فيها بالذات رجلين كانا يؤلبان عليه وقد حرفا
بيتا من ديوان (لزوم ما لا يلزم) فكتب المعرى إلى الأمير ثمال
يقول (وفى حلب — حماها الله نسخ من هذا الكتاب — يعنى
اللزوميات خطوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم أحرار
نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه ،
وإن أحضرت — أى النسخ ظهرت الحجة بما قلت فيه ...)

فالمعرى هنا يصرخ من تحريف المحرفين ، ويستشهد بنسخ وثيقة
صادقة كتبها ثقات من النساخ الذين كانوا ينسخون ما يمليه

ألا يدل هذا على أن تحريفاً كان يحدث فى شعر المعرى فوق نسبة
الأشعار المكذوبة إليه؟ وقد يكون التحريف فى شعر المعرى مقصودا
متعمدا بسوء نية ، قصداً لإيذائه ، والتأليب عليه . كما رأينا قبلا مما ذكره
هو بنفسه فى « رسالة الضبعين » وقد يكون عن جهل وحسن نية .
والشر واقع منه لا محالة لا فرق بينه وبين التحريف المقصود . ومن
التحريفات التى أثبتها بعض المؤرخين لإلصاق سوء العقيدة بأبى العلاء ،
ما رواه أبو الفداء ، والذهبى ، وابن الشحنة من أنه قال

أتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبى بعد هــذا فضل القوم بين غد وأمس

مع أن البيت الثانى فى اللزوميات هو هكذا

وقيل يجيء دين غير هذا فضل القوم بين غد وأمس

والآفة التي أتى بها أبو العلاء في شعره الذي يوهم سوء المعتقد هي متابعة المؤرخين والناقلين عن بعضهم بعضاً بدون تحقيق : ولو حققوا وتأنوا قليلا لسلم المعرى من كثير من الاتهامات

ومن العجب في هذا الباب أن بعض المؤرخين والأدباء القدامى نسبوا إلى المعرى شعر غيره دون تمحيص ولا روية . ومن هؤلاء علماء أعلام ، ولكن لعل عذرهم أن بصرهم بالشعر العربي الجاهلي والإسلامي قليل ، فهم متخصصون في الفقه والطبقات والعلوم الإسلامية . ومن هؤلاء الأمام عبد الوهاب تاج الدين السبكي صاحب (طبقات الشافعية) فأنه في كتابه هذا نسب البيتين الآتيين إلى أبي العلاء

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولم يكتف « السبكي » برواية البيتين ، بل صب جام غضبه على أبي العلاء المظلوم المفترى عليه قائلا « قبحه الله ، ما أجرأه على الله ! » . والبيتان ليسا لأبي العلاء : وما عرف قبل تاج الدين السبكي من نسبهما إلى المعرى ولكن عبد الرحيم العباسي صاحب « معاهد التنصيص » ذكرهما على أنهما الشاهد السادس والعشرون من شواهد كتاب « تلخيص المفتاح » ، وذكر أنهما لابن الراوندي ، وقبلهما هذا البيت

سبحان من وضع الأشياء موضعها وفرق العز والإذلال تفريقاً

وابن الراوندي هذا كان من متكلمي المعتزلة ، ثم فارقهم وصار ملحدا زنديقا كما وصفه المؤرخون فانظر كيف صار كل بيت يوهم فساد المعتقد ينسب إلى أبي العلاء المظلوم ؟ !

وأغرب من هذا في نسبة ما ليس لأبي العلاء إليه ما رواه بعضهم

من أن المعري خرج ليلة إلى بعض مراقب موسى عليه السلام ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال يارب ! كلمني ! فأني أفصح من موسى قال ذلك مراراً . فلم يجبه أحد فأنشد هذين البيتين

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

والبيتان ليسا لأبي العلاء المعري . ولكنهما مما قاله عمرو بن معد يكرب الزبيدي كما ذكره ابن نباتة المصري في كتابه المشهور « سرح العيون ، في شرح رسالة ابن زيدون » وأنشاد المعري هنا للبيتين ليس معناه أنه أنشدهما من نظمه . ولكن من شعر غيره

وأغرب ما رأيناه مما نسب إلى أبي العلاء من شعر غيره ما رواه ياقوت الحموي قائلا في معجمه المشهور وأنشدني لنفسه

لست أدري . ولا المنجم يدري ما يريد القضاء بالإنسان
غير أني أقول قول محق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلته بجميل عواقب الإحسان

فالحق أن هذا الشعر لأبي القاسم بن المعلى ، وقد ترجم له الثعالبي في « تتمة اليتيمة » عقب ترجمته لأبي العلاء المعري مباشرة ويظهر أن نسخة « التتمة » التي نقل عنها ياقوت الحموي قد سقط منها العنوان الفاصل بين الترجمتين ، فتوهم صاحبنا أن الترجمة كلها للمعري وأن الشطر الباقي من ترجمة أبي القاسم هو استمرار لترجمة أبي العلاء . فجاءت الأبيات وكأنها لأبي العلاء

وبعد ! فلم نرد هنا أن ندافع عن أبي العلاء المعري أو نحامي دونه . فلقد كان له شعر كثير يدل على شكه الذي يفضي إلى سوء المعتقد

مما أحفظ عليه كثيراً من الناس فى عصره وفيما تلاه من عصور حتى اليوم... كما كان له شعر كثير يدل على إيمانه وتدينه وتقواه وحسن اعتقاده فى الله كقوله

الله صورنى ولست بعالم | لم ذاك ؟ سبحان القدير الواحد
فلتشهد الساعات والأنفاس لى | أنى برئت من الغوىّ الجاحد

وقوله

أما الحياة فلا أرجو نوافلها | لكننى لإلهى خائف راج

وقوله

حكم تدل على عليم قـــــادر | متفرد فى عزه بكمـــــال

وقوله

إذا آمن الإنسان بالله فليكن | لبيبا ولا يخلط بأيمانه كفراً

بلى ! لم نرد هنا الدفاع عن أبى العلاء ، ولكن البيت الذى عارضه شاعرنا السودانى المعاصر الدكتور « عبد الله قلندر » قد أثار فى النفس أشياء حول دس الشعر المكذوب على أبى العلاء فأردنا أن نتنهز هذه الفرصة لنعالج موضوعاً لا نعلم أن أحداً سبقنا إليه من الباحثين والأدباء

المراثى النبوية وشعراؤها

١

لا شك أن حادث انتقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كان حدثا عظيما تفزعت له قلوب العرب والمسلمين فى شبه الجزيرة العربية وفيما جاورها من البلاد التى ارتبطت بها ببعض الأسباب ولقد أثارت وفاة الرسول الكريم كوامن الأحزان والأشجان عليه من كل من سمع بالخطب فيه . لم يخل من ذلك رجل أو امرأة شاب أو شيخ إلا ما رواه لنا « ابن الكلبى » ونقله عنه الإمام يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى فى « باب الشماتة » من كتابه الممتع (بهجة المجالس ، وأنس المجالس) حيث قال (لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم) شمتت به نساء كندة وحضرموت وخضبن أيديهن وأظهرن السرور لموته وضربن بالدفوف فقال شاعر فيهم

أبلغ أبا بكر إذا ما جئتـــــه أن البغايا رمن شـــر مرام
أظهرن من موت النبى شماتة وخضبن أيديهن بالعنّـام
فاقطع -هديت- أكفهن بصارم كالبرق أومض فى متون غمام

وموضوع مراثى الشعراء للرسول عليه السلام لم أجده مجموعاً فى كتاب ولم أقع عليه بحثاً مستقلا ، أو فصلا قائماً بذاته فى كتب السيرة النبوية ، أو مطولات التاريخ ، أو الأخبار والطرائف والمحاضرات الأدبية : كسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية . وتاريخ الأمم والملوك للطبرى والكامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير والبيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه ولم أجده حتى فى الباب المطول

الذى عقده « النويرى » فى الجزء الخامس من كتابه (نهاية الأرب) تحت عنوان المراثى والنوادب ولكننى لممت أطرافه وجمعت متفرقه من بضعة عشر كتابا سأذكرها فى سياق الحديث ، وفى خلال البحث ، تسهيلا للدارس ، وعونا للباحث

وعجيب جداً أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه القرون الأربعة عشر الطويلة ، وأن تمر على وفاة هاديها وزعيمها محمد بن عبد الله هذا الزمان الممتد المبسوط فلا تجد موضوع « وفاته » وما يتصل بها مضموما ملموما كما تجد موضوع « مولده » وإنما يصادف القارىء عن وفاة النبى وملابساتها نبأً هنا أو مرثية هناك ، حتى أنك لا تجد فى كتاب المؤرخ الطبرى فى التاريخ — على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ — لا تجد فيه بيتاً واحداً من قصيدة رثى بها النبى عليه السلام ولو لم يرد فى تاريخ الطبرى شعر ألبتة ، لقلنا إن مؤرخنا الإسلامى العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر فى كتابه الكبير ولكن تاريخ الطبرى مملوء بأشعار غزار ، جاهلية وإسلامية ، فما باله يغفل المراثى التى قيلت فى رثاء النبى ويسقطها من حسابه ؟

ولقد جرى المؤرخ ابن الأثير صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا الطبرى فى كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة أو مقطوعة قصيرة من الشعر قيلت فى رثاء نبى هذه الأمة

ولعل المؤرخ الوحيد الذى لم يغفل ذكر مراثى الشعراء للرسول من كتابه ، ولم يسقطها من حسابه هو أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب « سيرة النبى » ، والذى يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبى وعن وفاته

إلا أن ابن هشام – لأمر لا نعلمه – لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا « حسان بن ثابت »

والغريب أن « الأبشيهي » صاحب كتاب (المستطرف . في كل فن مستظرف) يروي في كتابه هذا (أن حسان بن ثابت سئل مالك لم ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال (لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه) وهذا الخبر يتعارض مع ما رواه ابن هشام صاحب السيرة من مراثي الشاعر حسان بن ثابت للرسول فكيف غفل الأبشيهي – وهو واسع المعرفة بالأخبار والنوادر والأسمار – عن تلك المراثي الشعرية التي رواها ابن هشام في السيرة؟ ومن أين جاءه الخبر عن سؤال حسان كيف لم يرث الرسول؟ مع أن مراثي حسان للنبي مدونة وثابتة في السيرة النبوية ، وفي ديوانه ؟

ولعل القصائد الأربعة التي رواها المؤرخ ابن هشام في الجزء الأخير من السيرة النبوية تؤكد لنا أن حسان بن ثابت شارك في رثاء النبي عليه السلام بأربع قصائد ثلاث منها دالية القافية ، والرابعة منهن رائية القافية والغريب كذلك أنها جاءت في ديوان حسان كلها فكيف خفيت كلها أو واحدة منها على صاحب المستطرف حين روى في كتابه الخبر الذي ذكرناه عنه

والغريب أيضاً أن واحدة من مراثي حسان بن ثابت التي ذكرها ابن هشام والتي جاءت في ديوانه قد بلغت من الطول ستة وأربعين بيتاً ، فهي ليست قصيرة ولا مقطوعة صغيرة حتى تغفل الإشارة إليها أو تسقط من حساب الأبشيهي . أما الثانية فتبلغ عدة أبياتها سبعة عشر بيتاً وهو قدر ليس باليسير أما القصيدتان الأخريان فواحدة تبلغ عدة أبياتها ثمانية والثانية ستة أبيات

وأطول قصائد حسان بن ثابت في رثاء النبي عليه السلام – وفق رواية المؤرخ ابن هشام هي القصيدة الدالية التي أولها

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد

وقد جاءت هذه المرثية فى سيرة ابن هشام كاملة كما جاءت فى ديوان حسان ، وعدتها ستة وأربعون بيتاً كما سلف القول .

وتبحث فى سيرة ابن هشام عن مرثية نبوية لغير حسان بن ثابت ، فلا تجد إلا تلك المراثى الأربع الحسانية . ولا أدرى لماذا لم يكن ابن هشام المؤرخ راصداً إلا لمراثى حسان بن ثابت فلم يلتفت فى كتابه الجليل لمراثى غيره من الشعراء المعاصرين لذلك الخطب الجليل ؟

ولا شك أن اتصال حسان بن ثابت بالنبى وقربه منه ، وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حيا ، قد أثار فى نفسه كوامن الأسى العميق حين قبض رسول الله إلى ربه ، فأذا شاعرنا العظيم ينفعل أشد الانفعال لهذا الحادث المروع له وللمسلمين والعرب جميعاً ، وإذا شاعرية حسان المتدفقة تنهمر عن عدد من المراثى ، نحس ونحن نقرؤها أثر الفجيعة البالغة فى نفس شاعر الرسول

ولم يكن حسان بن ثابت وهو يرثى رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده أو عن المسلمين بصفة عامة ، ولكنه صور مصيبة الأنصار فى النبى أدق تصوير ، حتى لقد خشى على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام ولم يكن شاعرنا (حسان) فى هذا إلا معبراً عن شعور قومه ، فهو أنصارى ، بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام وما أصدقه وهو يقول فى هذا المعرض

والله أسمع ما بقيت بها لاسـث إلا بكيت على النبى محمـــد
ياويح أنصـار النبى ورهطـــه بعد المغيّب فى سواد الملحـــد
ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا سودا وجوههم كلون الإثمـــد

وما أكثر تفجعه وهو يبكيه بهذه الأبيات الرائية من قصيدة أخرى

نب المساكين أن الخير فارقهم ... مع الرسول تولى عنهم سحرا
من ذا الذى عنده رحلى وراحلتى ... ورزق أهلى إذا لم يؤنسوا المطرا ؟
ذاك الذى ليس تخشاه مجالسه ... إذا الجليس سطا فى القول أو عثرا
كان الضياء وكان النور نتبعه ... وكان بعد الإله السمع والبصرا
فليتنا يوم واروه بلحده ... وغيبوه وألقوا فوقه المدرا
لم يترك الله منا بعده أحداً ... ولم يعش بعده أنثى ولا ذكراً

ورثاء حسان بن ثابت للرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التى تعبر عن شعور شخصى وانفعال ذاتى ؛ وبين شعر الرثاء العام الذى يعبر فيه الشاعر عن عظم المصيبة فى المرثى ، وخسارة الناس بفقده ، وحيرة أمورهم من بعده ونرى حسان بن ثابت يجمع فى المرثية الواحدة للنبي عليه الصلاة والسلام بين هذين الاتجاهين ، فبينا يقول من قصيدة

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبى الأمة الهادى
ولا برى الله خلقاً من بريته ... أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذى كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

إذا به يقول فى القصيدة نفسها عن نفسه ، واصفا وحدته وتفرده بعد موت النبي

يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر ... جار فأصبحت مثل المفرد الصادى !

وبينا يقول فى رثائه عليه السلام من قصيدة

يا بكر « آمنة » المبارك بكرها ... ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدى

إذا به يقول فى القصيدة نفسها واصفا حالته بعد أن غيب النبى فى بقيع الغرقد

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى أصبح ثاويا يا خير من وطئ الحصا لاتبعد
وجهى يقيك الترب : لهفى : ليتنى غيبت قبلك فى بقيع الغرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته فى يوم الاثنين النبى المهتدى !
فظللت بعد وفاته متلددآ ياليتنى صبحت سم الأسود !
أأقيم بعدك فى (المدينة) بينهم يالهف نفسى ليتنى لم أولد !

على أن شاعرنا حسان بن ثابت لم يستسلم فى مراثيه النبوية إلى البكاء والنحيب والتفجع وتمنى الموت - كما فعل فى البيت الذى قبل الأخير حيث تمنى فيه أن يسقى على الصباح سم الحيات حتى يرتاح ويتخلص من آلامه وأحزانه - ولكنه اتخذ من مراثيه للرسول معرضاً يعرض فيه أخلاقه النبوية ، وصفاته الكريمة ، على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين يطويها الفناء - أو يطوى صاحبها - فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا يأرج إلا عطرها

اسمعه يقول من قصيدة أخرى فى وصف الرسول باكيا عليه مفجوعا فيه

إمام لهم ، يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات ، يقبل عذرهم وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينا همُ فى نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم ، لايثنى جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم فى ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فإذا بلغ حسان هذا المبلغ من وصف النبي ، مضى إلى وصف وحشة البلاد من فقده ، وانقطاع الوحي الذى كان ينزل عليه فيؤنس الأرض ويصف حسان هذه البقاع الموحشة الكئيبة لفقد الرسول . إلا بقعة معمورة اللحد ضافها فقيد الإسلام الكريم . وهى البقعة التى ضمت جسده الطاهر ، فهى روضة آنسة بضيافة الرسول ويقوده هذا الوصف لموحش البقاع إلى استئناف البكاء ثانية . فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة قائلا فى نغم باك حزين

فبكّى رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى ... على الناس منها سابغ يتغمد ؟
فجودى عليه بالدموع وأعولى ... لفقد الذى لامثله الدهر يوجد !

ويظل حسان يبكى ويستنزف الدمع عينيه . فإذا ما أعقبه انحدار الدمع راحة . أو شفى شجى بلابله ، عاد إلى وصف الرسول قائلا

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة ... وأقرب منه نائلا لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالد ... إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتا فى البيوت إذا انتمى ... وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات وأثبت فى العلا ... دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعا فى الفروع ومنبتا ... وعودا غذاه المزن ، فالعود أغيد !
ربّاهُ وليدا فاستتم تمامه ... على أكرم الخيرات رب ممجد.

على أن رواية مؤرخ السيرة ابن هشام لمراثى حسان وحده فى الرسول عليه السلام لا تدل على أن شاعرنا قد انفرد وحده من بين

شعراء عصر الرسالة برثاء الرسول فهناك شعراء آخرون من الصحابة وغيرهم ، وشواعر كذلك رثوا النبي ، ولكن مراثيهم جاءت مشتتة ومتفرقة في غير مظان ومن هنا لم يُنبه عليها أو لم يلتفت إليها فقد عقد المؤرخ الموسوعي المصري (النويري) صاحب « نهاية الأرب » في الجزء الثامن عشر من موسوعته الحافلة فصلا عن مراثي الصحابة والشعراء للنبي عليه السلام ، وأثبت لأبي بكر الصديق الخليفة الأول قطعتين في رثاء النبي ، يقول في أولاهما

أيا عين فابكي ولا تسأمي وحق البكاء على السيد
على خير خندف عند البلا ء أمسى يغيب في الملحد
فصلى المليك ولي العباد ورب البلاد على (أحمد)
فكيف الحياة لفقد الحبيب وزين المعاشر في المشهد
فليت الممات لنا كلنا وكنا جميعاً مع المهتدي !

ويقول في الثانية

لما رأيت نبينا متجدلا ضاقت عليّ بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام واله والعظم مني واهن مكسور
ياليتني من قبل مهلك صاحبي غيبت في جدث عليّ صخور
فلتحدثن بدائع من بعده تعيا بهن جوانح وصدور

وروى الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين بن كثير صاحب كتاب (البداية والنهاية) في كتابه هذا مرثيتين في الرسول ، أولاهما دالية حسان بن ثابت التي سبقت الإشارة إليها ، والتي مطلعها

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد

وثانيتهما قصيدة لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم

النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان هذا شاعراً . وقد أسلم يوم فتح مكة بعد أن عادى الرسول زمانا وعرض نفسه على النبي فأذن له النبي بعد تمنع : لما كان يلقاه من عداوته قبل إسلامه فلما أدخل على رسول الله أنشد بين يديه قصيدة يعتذر فيها مما مضى منه ويقول فى أوائلها

لعمـــرك إنـــى يـــوم أحمل راية لتحمل خيل « اللات» خيل محمد

لكالمدلـــج الحـــيران أظلـــم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

فلما مات عليه الصلاة والسلام رثاه بالأبيات التى أوردها ابن كثير فى « البداية والنهاية » : ولم يذكرها أو يشر إليها ابن الأثير . ولا الطبرى . ولا ابن هشام صاحب السيرة كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها فى كتاب متأخر عنوانه (الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام أبى الحسن بن سلام الباهلى : إلا أن روايتها فى « البداية والنهاية » تختلف عن روايتها فى الذخائر » ونحن مثبتون هنا نصها كما جاءت فى تاريخ ابن كثير

أرقت فبات ليلى لا يـــزول وليل أخى المصيبة فيه طول

وأسعد فى البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليـــل

لقد عظمت مصيبتنا : وجلت عشية قيل: قد قبض الرسول

وأضحت أرضنا مما عراهـــا تكاد بنا جوانبها تميل !

فقدنا الوحى والتنزيل فينـــا يروح به ويغدو جبرئيل

وذاك أحق ما سالت عليـــه نفوس الناس أو كربت تسيل

نبى كان يجلو الشك عنـــا بما يوحى إليه وما يقول

ويهدينا فلا نخشى ضـــلالا علينا : والرسول لنا دليل

أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

وأما رواية « الذخائر والأعلاق » ففيها هذه الأبيات الزائدة التى لم ترد فى (البداية والنهاية)

كأن الناس إذ فقدوه عمى ... أضر بلب حازمهم غليل

وفيها فى وصف النبى

يخبرنا بظهر الغيب عما ... يكون ، ولا يحور ، ولا يحول

وفيها خطاباً لفاطمة الزهراء بنت النبى عليهما السلام

فعودى بالعزاء فإن فيه ... ثواب الله والفضل الجزيل

٢

ولا شك أن وفاة النبى عليه الصلاة والسلام كانت حدثا جليلا نزل بالإسلام وتلقاه المسلمون بالدهشة فهذا عمر بن الخطاب قام فى الناس قائلا يوم التحق الرسول بالرفيق الأعلى (إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ، وإن رسول الله مامات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله كما يرجع موسى : فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات !) ولم يفق عمر بن الخطاب من دهشته إلا حين نبهه أبو بكر فى خطبته التى خطبها يوم الوفاة إلى قوله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن ماتَ أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وإلى قوله عز شأنه فى موضع آخر من القرآن الكريم (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فما مبلغ أثر وفاة النبى فى نفوس بقية الشعراء غير حسان بن ثابت

وغير أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبى عليه السلام ؟ وأين كان فى ذلك اليوم المغيرة آفاق سماته عبد الله بن الزبعرى ، وعبد الله بن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، وعلى بن أبى طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة بنت محمد عليهما السلام ، وصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، والخنساء الشاعرة التى رثت قبل ذلك أخويها صخراً ومعاوية كما بكت — بدموعها فقط لا بشعرها — أبناءها الأربعة الذين استشهدوا فى حرب القادسية فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ؟

لقد كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً رثاه بها كعب بن مالك الأنصارى ، وهو فى هذا يشترك مع أخيه فى الإسلام ، وشريكه فى النسب إلى الأنصار حسان بن ثابت

ومقام كعب بن مالك فى الشعر معروف مشهور ، وقصائده فى دفع الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها فى كتب السيرة ، وخاصة ابن هشام . وقد شهد له صاحب كتاب (نكت الهميان ، فى نكت العميان) بقوله (كان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أحداً والمشاهد كلها حاشى تبوك فأنه تخلف عنها)

وقد ترجم له الصفدى فى كتابه نكت الهميان هذا الذى صنعه فى أخبار من فقدوا بصرهم لأنه أصيب بالعمى فى آخر عمره

ولم ترد مرثية كعب بن مالك للرسول فى الطبرى ، وابن الأثير ، وابن كثير ، ولا فى سيرة ابن هشام ولا فى « إمتاع الأسماع » ، للمقريزى ، ولا فى « نهاية الأرب » للنويرى ولا فى « المنتظم » لابن الجوزى ولا فى ابن قتيبة ، ولا فى تاريخ اليعقوبى ، فلم

يذكرها واحد من هذه الكتب التى كانت مظنة ورودها بل لم يشر إليها ولكنها وردت فى كتاب (الذخائر والأعلاق) للباهلى — وهو من رجال القرن التاسع بالأندلس — ولا أدرى عن أى مصادر نقلها ولا نعرف من حياة صاحب الذخائر والأعلاق إلا سطراً أو سطرين عند صاحب (كشف الظنون) وعند يوسف أليان سركيس صاحب (معجم المطبوعات العربية) والأبيات التى أوردها الباهلى خمسة فقط ولعلها منتقاة من قصيدة طويلة وقعت له وهذه هى

وباكية حراء تحزن بالبــكا وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعد النبى محمد ولو علمت لم تبك إلا محمدا
فجعنا بخير الناس حياً وميتاً وأدناه من رب البرية مقعدا
وأفظعهم فقداً على كل مسلم وأعظمهم فى الناس كلهم يداً
لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى فلم تلقه إلا رشيداً ومرشداً

ومن عجائب الروايات فى الشعر العربى أن أبا الفرج الأصبهانى صاحب كتاب (الأغانى) حين ترجم لكعب بن مالك وأورد طرفاً من أخباره وشعره لم يشر مطلقاً إلى رثائه للنبى عليه السلام على حين أنه أشار لمرثيته للشهيد عثمان بن عفان الخليفة الثالث وذكر منها ، أربعة عشر بيتاً فما معنى ذلك ؟ هل معناه أنه لم تصل إلى سمعه مرثية كعب ابن مالك للرسول؟أم أن الأبيات التى أوردها الباهلى صاحب الذخائر ليست له ؟ الحق أننا لانستطيع الجزم بكلمة فى جواب هذا السؤال ولكنا نحمد الله على هذا القدر الذى وصل إلينا من مرثية كعب بن مالك للرسول ، فأن كثيراً من شعره قد ضاع ، لولا ما حققه وحفظه لنا ابن هشام صاحب السيرة النبوية من شعر كعب الذى قل أن نجده فى كتاب سواها

أما عبد الله بن أنيس — بصيغة التصغير — فقد روى له صاحب

(الذخائر والأعلاق) خمسة أبيات لا غير في رثاء الرسول ، فكانت أبياته — من حيث العدد — كأبيات كعب بن مالك ولم أعثر على مصدر آخر لهذه المرثية غير ذخائر الباهلي وابن أنيس هذا من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان من شجعان المسلمين ويذكر ابن هشام صاحب السيرة النبوية أنه كان من الأوائل الذين تسابقوا إلى قتل ابن أبي الحقيق لأنه كان أحد الذين حزبوا الأحزاب على النبي وأصحابه وقد تحامل ابن أنيس على ابن أبي الحقيق بسيفه في بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول قطني ! قطني أى حسبي ! حسبي ! وكان ابن أنيس هذا يجمع بين الشجاعة والشعر وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف بها قتاله لابن سفيان بن نبيح الهذلي ، الذى كان يؤلب الناس على قتال الرسول وقد ظفر ابن أنيس بالهذلي فقتله وقدم على رسول الله يبشره بمقتله فلما رآه النبي قال أفلح الوجه !

وليس من موضوعنا هنا أن نذكر قصيدة عبد الله بن أنيس في قتله لابن نبيح الهذلي ، فهي ليست من باب هذا البحث في المراثي النبوية ، ولكن مرثيته للرسول عليه السلام هي كما ذكرها الباهلي الأشبيلي ، في ذخائره

تطاول ليلي ، واعترتني القوارع وخطب جليل للخلائق جامـع

غداة نعي الناعي إلينا محمـــدا وتلك التي تستك منها المسامع

وقد قبض الله النبيين قبلـــــه وعاد أصيبت قبله والتوابع (١)

فآليت لا آسي على هلك هالك مدى الدهر مارسا ثبير وفارع

فيا لقريش قلدوا الأمر بعضـكم فأن نصير القوم للقوم نافـــع

---

(١) هكذا وردت بمطبوعة (الذخائر والاعلاق) وفيها تصحيف غير قليل ، ولعلها : التبابع جمع تبع .

أما عبد الله بن الزبعرى فلم نقع فى مصدر تاريخى أو أدبى على مرثية له فى الرسول عليه الصلاة والسلام ولقد كان شاعراً فحلا بل كان شاعر قريش فى الجاهلية ومهما كان من أمر شدته على النبى والمسلمين بالأذى بلسانه ، فقد أسلم واعتذر للنبى ومدحه ، فأمر له النبى بحلة ولقد عاش حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعنى أنه أدرك وفاة الرسول ، فما الذى أسكته عن رثائه وصرفه عن بكائه ؟ أو ماالذى أسكت المصادر عن أن توصل إلينا رثاءه للنبى لو كان وقع منه رثاء وشارك مع الباكين من الشعراء على محمد ؟ سؤالان لانستطيع القطع فيهما بجواب إلا إذا ادعينا أننا أحطنا بأخبار ابن الزبعرى كلها ، وبشعره كله ، وبحوادث السيرة النبوية كلها تفصيلا وهيهات ! هيهات !

أما زميله فى الشاعرية عبد الله بن رواحة ، الذى كان أحد شعراء الدعوة الإسلامية وأحد أمرائها البارزين فقد استشهد فى السنة الثامنة من الهجرة فى غزوة مؤتة ، فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع لم يكن له أن يكون فى أصحاب المراثى النبوية

أما ضرار بن الخطاب الصحابى الفارس الشاعر ، فلم نجد له فى أصحاب المراثى النبوية ذكراً ولم نقرأ له شعراً على حين تمتلىء صفحته بالبطولة والفروسية والجهاد فى سبيل الله وقد عاش إلى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فشهد موقعة أجنادين واستشهد فيها وله فى فتح الشام فى عهد عمر بن الخطاب أخبار طوال فأين شعره الذى رثى به الرسول يوم وفاته ؟ ألم تتحرك شاعريته فى ذلك اليوم الرعيب الذى هز عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً عنيفا ؟

على أننا بينما لانجد مراثى شعرية للنبى عليه السلام عند عبد الله ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وهما من شعراء الرسول وألسنة

الدعوة المحمدية . نجد عند الباهلى الأشبيلى صاحب (الذخائر والأعلاق) قصيدتين ، إحداهما لعمر بن الخطاب ، والثانية للأمام على بن أبى طالب وقد انفرد كتاب الذخائر بذكر المرثيتين. أما الأولى فهذا نصها كما جاءت فى كتاب الباهلى

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه وثوى مريضا خائفا أتوجع
شفقا عليه أن يزول مكانـــه عنا فنبقى بعده نتفجع
نفسى فداؤك من لنا فى أمرنا أم من نشاوره إذا نتوجع ؟
وإذا تحل بنا الحوادث من لنـا بالوحى من رب رحيم يسمع ؟
ليت السماء تفطرت أكنافهـــا وتناثرت منها النجوم الطلع
لما رأيت الناس هد جميعهـم صوت ينادى بالنعى فيســمع
وسمعت صوتا قبل ذلك هدنى عباس ينعاه بصوت يفظع
فليبكه أهل المدائن كلهـــــا والمسلمون بكل أرض تجزع (١)

وأما أبيات الإمام على فى رثاء الرسول فهى كما يلى نقلا عن المصدر السابق

ألا طرق الناعى بليل فراعــنى وأرقنى لما استقل مناديـــا
فقلت له لما رأيت الذى أتــى أغير رسول الله إن كنت ناعيا ؟
فحقق ما أشفقت منه . ولم يبل وكان خليلى عزة وجماليـــا
فو الله ما أنساك أحمد ، ما مشت بى العيس فى أرض وجاورت واديا
وكنت متى أهبط من الأرض تلعة أرى أثراً منه جديداً وعافيا

وبعد فهذا شعر الرجال من الشعراء الذى أثر حتى القرن التاسع فى رثاء النبى عليه السلام ، أو على الأقل هذا هو الشعر الذى وصل إلينا

---

(١) روى السهيلى فى كتابه (الروض الانف) أبياتا عينية اخـرى ومن وزن آخر لعمر بن الخطاب جـ ٢ ص ٢٧٧

عن مصادر تاريخية وأدبية قديمة ومتأخرة ، وأحطنا به خبراً فيما بين أيدينا من مراجع ولم ينفرد الرجال وحدهم برثاء النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين ، الطاهرتين فاطمة بنت محمد عليهما السلام وصفية بنت عبد المطلب ابن هاشم عمة النبي .

أما فاطمة الزهراء ، فقد روى لها ابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة) أبياتاً مؤثرة حزينة في رثاء أبيها محمد عليه السلام كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحاق الحصري صاحب كتاب (زهر الآداب) ، ونقلها أيضاً الأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعة (أعلام النساء) حـ ٣ ص ١٢٠٤ والأبيات كما رواها صاحب زهر الآداب هي

اغبر آفاق السماء ، وكورت	شمس النهار ، وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبة	أسفا عليه ، كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربهـا	وليبكه مضر وكل يمانـــي
وليبكه (الطور) المعظم جوه	والبيت ذو الأستار والأركان
ياخاتم الرسل المبارك ضوؤه	صلى عليك منزّل الفرقان

وقد عد ابن رشيق القيرواني هذه المرثية مثلا يحتذى في الرثاء ، وتمنى على شاعر كالكميت أن يقول مثله في رثاء الرسول ، بدلا من قوله في إحدى هاشمياته

وبورك قبر أنت فيه ، وبوركت	به وله أهل بذلك يـــثرب
لقد غيبوا براً ، وحزما ونائلا	عشية واراه الضريح المنصـب

ويذكر صاحب (أعلام النساء) أن فاطمة عليها السلام وقفت على قبر أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها ، وبكت وأنشأت تقول

ماذا على من شم تربة أحمد أن لايشم مدى الزمان غواليا ؟
صبت علىّ مصائب ، لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا !

وقالت على قبره

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب -مذغبت عنا- الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت . وحالت دونك الكثب

وأما صفية عمة النبي عليهما السلام : فقد روت لها الأديبة المرحومة زينب عبد الله فواز صاحبة كتاب (الدر المنثور . في طبقات ربات الخدور) خمسة أبيات في رثاء محمد عليه الصلاة والسلام إلا أن الباهلي الأشبيلي صاحب (الذخائر والأعلاق) روى لها مرثية أخرى تبلغ عدّتها عشرة أبيات ، نذكرها فيما يلي

ألا يا رسول الله ! كنت رجاءنا وكنت بنا برا ، ولم تك جافيا
لعمرك ما أبكى النبي لموته ولكن أمراً بعده كان آتيا
أفاطم ! صلى الله رب محمد على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدا لرسول الله أمي وأسرتي وعمي ، ونفسي ، والجدود ، وخاليا
وكنت لنا حرزاً حصينا نبينا ليبك عليك اليوم من كان باكيا
كأن على قلبي لذكر محمد وما خفت من بعد النبي المكاويا !
أبا حسن أيتمته وتركته يبكي ويدعو جده اليوم نائيا
صبرت ، وبلغت الرسالة صادقاً وقمت صليب الدين ، أبلج ، صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالماً سعدنا ولكن أمره كان ماضياً
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضياً

على أن لها قصيدة يائية أخرى في رثاء النبي عليه السلام ، أورد صاحب معجم (أعلام النساء) بيتاً واحداً منها . أما الأبيات كلها فقد ذكرت كاملة

في (الذخائر والأعلاق) الذي نعده أخصب وأحفل مصادرنا في مراثي الشعراء للنبي . وهذه القصيدة اليائية التي أوردها الباهلي للسيدة صفية هي من أرق مارثي به النبي عليه السلام ، ونحن موردوها هنا كما جاءت في كتاب (الذخائر والأعلاق)

ما لعيني لا تجودان ريا ... إذ فقدنا خير البرية حيا
يوم نادى إلى الصلاة بلال ... فبكينا عند النداء مليا
لم أجد قبلها، ولست بلاق(١) ... بعدها غصة أمر عليا
جلّ يوم أصبحت فيه عليلا ... لا يرد الجواب منك إليا
ليت يومي يكون قبلك يوماً ... أنضج القلب للحرارة كيا
خلقاً عالياً ودينا كريما ... وصراطا يهدى إليه سوياً
وسراجا يجلو الظلام منيراً ... ونبيا مسدداً ، عربياً
حازما، عازما ،حليما، كريما ... عائداً بالنوال ، براً ، تقياً
إن يوماً أتى عليك ليوم ... كورت شمسه وكان جليا
فعليك السلام منا ومن ربك ... بالروح بكرة ، وعشياً !

وقدأخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض النبي عليه السلام خرجت عمته (صفية) تلمح بردائها وهي تقول

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لوكنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم فقد سغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في كتابه (البيان والتبيين) حـ ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق المرحوم حسن السندوبي . ذاكراً لفظة (هنتشة) بنون وتاء وشين معجمة ، بدلا من (هنبثة) بنون وباء ، وثاء فوقية مثلثة ، وهي الأمر الشديد . أما الهنتشة كما ذكرها السندوبي رحمه الله فلا معنى لها

ومن أغرب الروايات أن صاحب (أعلام النساء) قد روى البيتين

---

(١) كان المقتضي أن تكون العبارة هكذا (ولست بلاقية) لان صاحبة الشعر مؤنثة وهذا مما يلقى ظلالا من الشك حول نسبة الابيات الى صفية بنت عبد المطلب !

السابقين منسوبين إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي عليهما السلام — ح ٣ ص ١٢١٣ . وأضاف إليهما بيتاً ثالثاً ، وهو

فليت بعدك كان الموت صادفنا لما قضيت وحالت دونك الكثب.

ويلاحظ القارىء الكريم أن بعض هذه الأبيات الباثية — بالباء التحتية الموحدة — كما رواها صاحب (أعلام النساء) مشترك بين السيدة فاطمة بنت محمد ، والسيدة صفية بنت عبد المطلب .

على أن أغرب ما في مراثي النبي عليه السلام هو ما ذكره الباهلي الأشبيلي منسوباً إلى (هند بنت عبد المطلب) تخاطب فاطمة الزهراء قائلة

أفاطم فاصبري ! فلقد أصابت	مصيبتك التهائم والنجودا
وأهل البر والأبحار طــــــراً	فلم تخطىء مصيبته وحيداً
ألم يك خير من ركب المطايا	وأكرمهم — إذا نسبوا — جدودا؟
وكان المجــد يصــبح في ذراه	سعيد الجد قد ولد السـعودا
فبكي ! إن قــدرت بأن تموتي	فقدت الطيب ، الرجل ، الحميدا
رسول الله ، خير الناس حقــا	فلست أرى له أبداً نديدا

ومهما يكن في هذه الأبيات من رقة وسلاسة وحسن سبك ، فأنك لو بحثت في تاريخ عصر النبوة عن شخصية نسوية تحمل اسم (هند بنت عبد المطلب) لأعياك البحث ، ولن تجد لها وجوداً وإذا كان ظاهر هذا الاسم يوهم أنه لعمة من عمات النبي عليه السلام ولأخت من أخوات صفية بنت عبد المطلب ، فأن المؤرخ الأخباري (ابن قتيبة) يذكر لنا في كتابه (المعارف) أن بنات عبد المطلب وعمات النبي في الوقت نفسه هن عاتكة ، وأميمة ، والبيضاء ، وبرة ، وصفية ، وأروى وكذلك يذكر المؤرخ ابن الجوزي في كتابه (صفة الصفوة) المطبوع بحيدر أباد الدكن (ح ١ — ص ٥٦)

فمن أين هذه « الهند المطلبية » التى جاء بها الباهلى الأشبيلى ؟ ومن أين جاءت تلك الأبيات فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم التى رواها صاحب الأعلاق . أو صاحب (الذخائر والأعلاق) ونسبها إلى المزعومة : هند بنت عبد المطلب ؟

على أننا قرأنا هذه الأبيات الدالية وأخرى غيرها فى (نهاية الأرب) للنويرى ، حـ ١٨ ص ٤٠٠ ، وهى فيه لهند بنت أثاثة بن عباد ، ابن عبد المطلب ، بن عبد مناف . ولعلها (هند بنت عبد المطلب) التى ذكرها الباهلى الأشبيلى اختصاراً ، فأوقعنا فى حيرة من الأمر وحسبنا أنها عمة النبى مباشرة ، ولكنها ليست ابنة عبد المطلب ، وإنما هى واحدة من حفدته ! ونورد هنا بعض ما رواه النويرى - صاحب نهاية الأرب - من هذه المرثية لنرى الفرق الواضح بين الروايتين ، ولنعجب من حيرتنا البالغة مع رواة الشعر

أشاب ذوائبى وأذاب ركنى ... بكاؤك فاطم الميت الفقيدا
فأعطيت العطاء فلم تكـدر ... وأخدمت الولائد والعبيدا
وكنت ملاذنا فى كل لـزب ... إذا هبت شآمية بـروداً
وأنك خير من ركب المطايا ... وأكرمهم إذا نسبوا جديدا
رسول الله فارقنا ، وكنـا ... نرجى أن يكون لنا خلوداً

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب فى هذه الأبيات وفيما نقلناه قبل ذلك من شعر فى رثاء نبى هذه الأمة الكريمة محمد بن عبد الله

ويدعونا ذكر السيدة صفية عمة الرسول فى هذه المناسبة إلى استحضار عمة أخرى للنبى عليه السلام هى (عاتكة بنت عبد المطلب) ، فقد روى لنا النويرى صاحب (نهاية الأرب) - فى الجزء الثامن عشر ، ص ٤٠٠ مرثية فى النبى عليه الصلاة والسلام تقول فيها

يا عين جودى – ما بقيت – بعبرة سحاً على خير البرية (أحمد)
يا عين ! فاحتفلى ، وسحى ، واسحى فابكى على نور النبي (محمد)
أنى – لك الويلات – مثل محمد فى كل نائبة تنوب ومشهد ؟
من ذا يفك عن المغلل غلـــــه بعد المغيَّب فى الضريح الملحد ؟

وقد نسب صاحب (نهاية الأرب) أيضاً مرثية فى النبي قالتها عمته (أروى) بنت عبد المطلب . ومطلعها

ألا يا عين ويحك أسعدينى بدمعك – ما بقيت – وطاوعينى

وأغلب ظنى أن التكلف والانتحال يبدوان على هذا الشعر !

وقبل أن نختم هـــذه الدراسة الأولى فى الأدب العربى عن مراثى الشعراء للنبي عليه السلام لابد من الإشارة إلى أبيات حائية – بالحاء المهملة – ذكر السهيلى صاحب (الروض الأنف) أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلى بكى بها النبي ساعة دفنه وأبو ذؤيب – كما يقول السهيلى – هو خويلد بن خالد ، وقيل ابن محرث

وندع الشاعر أبا ذؤيب نفسه يحدثنا بعبارته واصفا موت النبي عليه السلام ، ودفنه قائلا (بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل ، فاستشعرت حزنا وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها ، فظللت أقاسى طولها حتى إذا كان قرب السحر أغفيت ، فهتف بى هاتف وهو يقول

خطـــب أجلُّ أناخ بالإسلام بين النخيل ، ومعقد الآطام
قبض النبي محمد فعيوننا تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب فوثبت من نومى فزعا فنظرت إلى السماء ،

فلم أر إلا سعد الذابح (١) ، فتفاءلت به ذبحا يقع فى العرب وعلمت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قبض وهو ميت من علته ، فركبت ناقتى ، وسرت . فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به ! فعن لى شيهم – يعنى القنفذ – قد قبض على صل – يعنى الحية – فهى تلتوى عليه ، والشيهم يقضمها حتى أكلها... فزجرت ذلك وقلت : شيهم ، شيء مهم ! والتواء الصل التواء الناس عن الحق على القائم بعد النبى ثم أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر . فحثثت ناقتى ! حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر ، فأخبرنى بوفاته ، ونعب غراب سانح ، فنطق مثل ذلك ! فتعوذت بالله من شر ما عن لى فى طريقى وقدمت المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أحلوا بالإحرام . فقلت : مه ؟ فقالوا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت المسجد فوجدته خاليا ، فأتيت رسول الله ، فأصبت بابه مرتجاً ، وقيل هو مسجى قد خلا به أهله فقلت : أين الناس ؟ فقيل فى سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار ، فجئت إلى السقيفة فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالما ، وجماعة من قريش . ورأيت الأنصار فيهم سعد ابن عبادة ، وفيهم شعراؤهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وملأ منهم ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار ، فأطالوا الخطاب ، وأكثروا الصواب . وتكلم أبو بكر رضى الله عنه . فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ، ويعلم مواضع فصل الخطاب ! ! والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال إليه ثم تكلم عمر رضى الله عنه بعده دون كلامه ! ومد يده فبايعه وبايعوه . ورجع أبو بكر ورجعت معه فشهدت الصلاة على محمد وشهدت دفنه) ثم أنشد أبو ذؤيب يبكى النبى صلى الله عليه وسلم قائلا

---

(١) سعد الذابح هو الثانى والعشرون من منازل القمر وهما نجمان فى الجدى ومنازل القمر يسميها العرب نجوم الاخذ ، وعددها ثمانية وعشرون منزلا . ومنها : سعد السعود ، ومنزله الخامس والعشرون فى الدلو والجدى

لما رأيت الناس فى عسلاتهم ... من بين ملحود له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم ... نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرت إلى الهموم. ومن يبت ... جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها ... وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجبال يثرب كلها ... ونخيلها لحلول خطب مفدح!
ولقد زجرت الطير قبل وفاته ... بمصابه، وزجرت سعد الأذبح!

وأبو ذؤيب هذا هو صاحب العينية المشهورة التى رثى بها أولاده الخمسة. وكانوا قد ماتوا جميعا فى عام واحد نتيجة إصابتهم بالطاعون. ومطلعها

أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

والهذلى هذا شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. وأسلم فحسن إسلامه، وشارك فى عدد من الغزوات. وامتد به العمر حتى شارك فى فتح أفريقية سنة ست وعشرين من الهجرة

والذى يلفت النظر أن أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ترجم له فى الجزء السادس فى بضع عشرة صفحة. وذكر طرفاً غير قليل من أخباره وأشعاره. ولكنه لم يشر إلى شهوده وفاة النبى عليه السلام وحضور دفنه. كما لم يشر إلى مرثيته له التى أوردها السهيلى صاحب (الروض الأنف) فى شرح السيرة النبوية لابن هشام. كما ذكرنا قبل ذلك بسطور والسهيلى — كما أراه — حجة موثوق به. فمن أين أتى بهذه الرواية؟ لعله اطلع عليها فى مصدر مفقود والعلم عند علام الغيوب.

أربعة شعراء وأديبـــان رحلوا فى سن الشباب

تصادفنا فى الأدب العربى، كما تصادفنا فى غيره من الآداب الأخرى، شخصيات أدبية كثيرة اختطفها الموت وهى فى الريعان، ولم يبال بشبابها الناضر، وحينها الباكر. ومن الملاحظ أن أكثر هذه الشخصيات المختطفة لم تغادر هذه الدنيا إلا بعد أن ملأتها إنتاجا، وأثرتها عطاء، وكأنها صنعت فى هذه الرحلة القصيرة من حياتها الوشيكة ما لم تكن تصنعه لو طال بها العمر، أو امتد بها الأجل كأن القدر يقوم لها هنا بعملية من التعويض تتم به عدالة التوزيع، ويعتدل به الميزان بين الزيادة والنقصان

فى الأدب الإنجليزى تصادفنا من هذا الشباب المهتصر ثلاث شخصيات من الشعراء البارزين الإنجليز تلاقوا فى زمن واحد، وجاءت وفياتهم متقاربة ما بين سنتى ١٨٢١، ١٨٢٤، وأولهم «كيتس» الذى عاش ستة وعشرين عاماً من سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٨٢١ وثانيهم «شيلى» الذى عاش ثلاثين عاماً، من سنة ١٧٩٢ إلى سنة ١٨٢٢، وثالثهم اللورد بيرون الذى مات بعد أن تجاوز الثلاثين بستة أعوام فعاش من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨٢٤

كما تصادفنا فى الأدب الفرنسى شخصيات منها «الفرد دى موسيه» الشاعر الفرنسى الغزل الذى رثاه الشاعر خليل مطران بقوله

عاش هذا الفتى محبا شقيـــاً ... وقضى نحبه محبا شقيّـــا
وبكى دمع عينه فى سطـور ... جعلته على المدى مبكيّـــا
منشـد للغرام لم يشـــــد إلا ... كان إنشاده نواحا شجيّـا

أما الأدب العربي فتصادفنا فيه بين قديم وحديث أسماء شعراء وأدباء اختطفهم الردى على نضرة من العمر وغضارة من السن . منهم طرفة ابن العبد ، وأبو تمام . وأبو فراس وابن هانئ الأندلسي في القدامى — وفخرى أبو السعود . وفوزى المعلوف . ومحمد تيمور . والتيجانى يوسف بشير . والشابي ومحمد عبد المعطى الهمشرى في المحدثين

على أننا سنتناول هنا كاتبين وأربعة شعراء من باقة الأدباء الذين ماتوا وأعوادهم مخضرة . وثمارهم مرجوة فلم يترك الموت فيهم بقية لآمل . ولا فسحة من العمر لراج . وهم غير من ذكرنا من الأسماء السابقة. وأحد الكاتبين هنا جمع بين الشعر والنثر . أما الكاتب الآخر فقد وقف قلمه على النثر وحده . وجود فيه حتى أوفى على الغاية فكان كاتب مقال مشهور .

الشاعر الثائر المفكر

نبدأ بأول هذه الجذوات المنطفئة الست . وهو «أديب إسحاق» الشاعر الثائر المفكر التواق إلى الحرية . ومن أوائل الداعين إليهـا في القرن التاسع عشر ولعل كثيراً من القراء لايعلمون أنه صاحب البيتين المشهورين اللذين جريا مجرى الأمثال وهما

قتل امرىء في غابـــة جريمة لا تغتفـــر
وقتل شعب آمـــن مسألة فيها نظـــر !

وأديب إسحاق متعدد النواحي . فهو أديب . صحافي . خطيب . كاتب مسرحي . مترجم . شاعر . ناثر . وهو مسيحي العقيدة. أرمني المذهب. لبناني الأصل . دمشقي المولد . كثير الرحلة . أقام في بيروت. ومصر. والإسكندرية وباريس وهو يتقن اللغات العربية والفرنسية والتركية. وهو خطيب عرفته المنابر واهتزت له أعوادها حتى لقد روى أن سعد زغلول قد ذكره في جملة الخطباء الذين تأثر بهم في الخطابة وشهد له

جرجي زيدان بأنه إذا خطب تدفق تدفق السيل ، يهتز له المنبر ، وتنقاد له الكلمات آخذاً بعضها برقاب بعض ومن عجيب أمره أنه كان يحفظ القرآن الكريم ويستشهد بآياته فى كلامه وخطبه وحفظ كثيرا من عيون الأدب العربى شعره ونثره . وسرعان ما اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وكان من رواد حلقته والمعجبين بآرائه وأهدافه ، وتعرض للنفى والتشريد كما تعرض جمال الدين

والحق أن أديب إسحاق يمثل فى الإنشاء العربى دور الانتقال من النثر المتكلف المصنوع المزدحم بالمحسنات التى لا طائل وراءها فى المعنى ، إلى النثر المتأنق الذى يبلغ المراد من المعنى بأيسر زخرف على أن نثره بالطبع لم يخل من السجع ولا من بعض الزخارف اللفظية التى لم يسرف فى استعمالها إسراف من سبقوه ، وكان لتراكيبه رنة موسيقية يدركها القارىء فى كتابته ، ويحسها السامع فى خطبه وقد شهد له مؤرخو الأدب فى عصره بأنه قدوة المنشئين وعمدة الكتاب ولقد وصفه الشاعر خليل اليازجى — الذى مات شابا مثله وكان صديقا له — بقوله

الكاتب ، اللبق ، الأديب ، وحسبه — أن اسمه الباهى عليه وسام
متنبه الأفكار يقظان الحجى — حتى لأعجب منه كيف ينام
فإذا تروى كاتبا فجميعه — فكر ، فتوشك تفصح الأقلام
وإذا اليراع تداولته يمينه — فصريره طرب به وهيام
وإذا امتطى يوماً جياد كتابة — فظهورهن على الرجال حرام ...

ولقد كان أديب إسحاق ثورى الروح فى كتاباته وأفكاره وتطلعاته للنهضة العربية ، ولكن موقفه من الثورة العرابية لم يكن مع عواطف الثوار ، فقد بعث إلى شريف باشا رئيس الوزارة المصرية — التى أسقطها الثوار وأعقبها وزارة الشاعر محمود سامى البارودى — بقصيدة دالية بعث بها من

بيروت . وتعد القصيدة إنحاء باللوم على العرابيين وشماتة فى خذلان حركتهم ، وإن كان فيها شديد الألم للمصير الذى انتهت إليه الثورة باحتلال بريطانيا لمصر

ولعل أديب إسحاق كان من أوائل الداعين إلى الوحدة العربية. وكان يرى أن فى وحدة العرب ضماناً لتقوية كلمتهم ، وصيانة حقوقهم ؛ ففي مقال له بعنوان « دولة العرب » يقول (قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ؛ وهبت الحاصبة تلها العاصفة ، فذرت حقوقنا ؛ فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ، ووقعت الواقعة، فصرنا كأن لم نغن بالأمس ولم نلك شيئاً مذكوراً ، فهلم نشهد الضالة ونطلب المنشود : لانقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن فى الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ؛ فكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان ، أتحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ؟ أم تخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سدى ؟ أم لا يعلمون أن مثل ذلك الاجتماع — منزها عن المقاصد الدينية ، منحصراً فى العصبية الجنسية والوطنية مؤلفا من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستحيل الدول جذباً وإرهابا ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا يحزنون)

ولم يصح لدينا أن أديب إسحاق له ديوان مطبوع عنوانه « أنيس الجليس » كما جاء وهماً فى الجزء الثانى من كتاب « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ؛ فديوان أنيس الجليس هو ليوسف الشلفون ، وإن كان يقال أن الشلفون هذا سطا على قصائد للدكتور لويس صابونجى ، وسليم نقاش ، ومصباح رمضان ؛ وأديب إسحاق ونسبها لنفسه

لقد تفرق شعر أديب إسحاق وتبعثر ولم ينشر فى كتاب . على أن له أبياتاً سارت ودارت على الألسنة ؛ وكان الناس يتناقلونها ويحفظونها ويدلون بها فى مواطن الاستشهاد منها أبياته الصادقة فى « المرأة »

حسب المرأة قوم آفـــة	من يدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم أمنيـــة	ملك النعمة فيها من ملـك
فتمنى معشر لو نبـذت	وظلام الليـل مشتد الحلك
وتمنى غيرهم لو جعلت	فى جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهلـه	حاكم فى مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بهـا	كل ما تنظره ، منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتهـا	وإذا أصلحتها فهى ملـك

ويشاء القدر أن يصاب أديب إسحاق بعلة الصدر ، وهو فى باريس ، وألا يعيش بعد الإصابة كثيراً فيموت فى سنة ١٨٨٥ فى قرية « الحدث » بلبنان عن تسعة وعشرين عاماً ، فهو من مواليد سنة ١٨٥٦ ، ويقول الذاكرون لحسنات الموتى أن علة الصدر جاءته من أثر البرد القارس ، فى باريس !!.

ويقول الصرحاء أن العلة جاءته من (تساهله فى طريق معاشرته ، وإطلاقه هوى النفس فيما تسوق إليه الشبيبة ، حتى أثر ذلك فى مزاجه وعجل منيته ، فقصفت غصنا رطيبا لم يبلغ ثلاثين ربيعاً) كما يقول جرجى زيدان

صاحب نسمات الأوراق

ولم يكن أديب إسحاق الوحيد من بين أدباء الشباب الذين أصيبوا بعلة الصدر وماتوا بها فى سن الشباب ، فقد كان الشاعر « خليل اليازجى » أحد هذه الأغصان المقصوفة وقد ولد خليل اليازجى بلبنان سنة ١٨٥٦ ، ومات سنة ١٨٨٩ ، وغريب أن يموت فى قرية « الحدث » كما مات من قبله أديب إسحاق ، وشيعت مدينة بيروت جثمانه بمشهد رهيب ولا يتفقان فى العلة ، والميلاد ، ومكان الموت وحسب كما رأيت ... ولكنهما اتفقا فى موقفهما

المتخاذل من الثورة العرابية... فقد نظم اليازجي قصيدة قافية يهنىء بها الخديو توفيق بخذلان الثورة العرابية ، وإخفاق العرابيين ويحيل القارىء على ديوانه « نسمات الأوراق » لخليل اليازجي ، ص ٤٩ ليرى فيها روح الشاعر وتكرار نغمة عقوق العرابيين وعصيانهم لمولاهم ! وكأن الشاعرين وغيرهما من أعداء الثورة العرابية كانوا يمتحون من معين واحد...

ولن يصرفنا هذا الموقف المتخاذل عن إيفاء الرجل حقه من البحث ، فهو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ، العلامة الكبير . وشقيق الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلات البيان ، والضياء ، والطبيب . ومن مؤلفاته المطبوعة — غير ديوانه المذكور — رواية «المروءة والوفاء» ، وتنقيح كتاب « كليلة ودمنة » ، حتى صارت نسخته أصح النسخ وأقربها إلى الأصل

ويظهر أن علة الشاعر خليل اليازجي في صدره جعلته يعطف على ذوى العلة من أصدقائه ومعارفه ، ويوصيهم بالصبر والتجلد ، ويعزيهم فيما رمتهم به الأيام ، فحين أصيب « إبراهيم الشخيلي » بمرض عضال ، بعث إليه بقصيدة يقول فيها

صبرت على ما لا يطاق من البلى طويلا : فنلت الأجر يقرن بالفخر
ولكن ما قد زال فوق الذى بقى ولو حل في صخر لأثرق الصخر
تجلدت حتى لات حين تجلد على محنة لله درك من در

ونرى له في مناسبة مثل هذه قصيدة جرى فيها على فلسفة الألم ، يقول فيها

لا بأس من ضنك السقام وبؤسه فعسى بسقم الجسم صحة نفسه
لم تأتنا صم الصخور بجوهر إلا على برد الزمان وشمسه
والجسم ترس النفس ، إذ ضحت به تحمى كما يحمى الكمى بترسه
لا تكرهوا شيئاً ، لعل لكم به خيراً كيوسف في عواقب حبسه

إن الزمان مبارز لكنـــه يبغى مبارزة الشجاع لبأسـه
لا تيأسن من الزمان . فربما نال الفتى آماله فى يأسـه

ولما مات صديقه أديب إسحاق قبله بأربعة أعوام أشار فى مرثية له إلى علته — أى علة أديب — وإنهاك جسمه فى المطالب العالية ، فقال فى مطلع رثائه

أخلق بجسمك أن يبيت كليــلا عن جهد نفسك ؛ أو يموت عليلا
نهكته نفسك فى المطالب والعــلا حتى تمنى للفراق سبيــلا

وقد أكثر الشاعر خليل اليازجي من الغزل والنسيب فى شعره ، وهو غزل تقليدى ، ليثبت به مقدرته على القول فى أغراض من الشعر ؛ ولا تبدو عليه أصالة الغزل وصحة الهوى... وتبدو الصنعة البديعية البيانية على غزليته التالية

سألتـه عـن حالـه فقال ليس يحتمـل
سألتـه عـن قلبـه فقال قلبي مختبـل
سألتـه عـن شوقـه فقال لى مثل الجبـل
سألتـه عن صبـره فقال صبرى قد رحـل
سألتـه عـن حبـه فقال مضرب المثـل
سألتـه عـن نفسـه قال لها الحب قتـل
سألتـه عـن جسمـه فقال جسمى فى عـلل

ومما يدل على إغراقه فى الصنعة ، لا تفانيه فى الحب ، أنه صنع قصيدة غزلية طويلة ضمن كل شطر منها حساباً بالتاريخ الهجرى لسنة ١٢٩١ هـ ؛ وليس بعد هذا عبث ، وبعد عن الحب الصادق

المتحرر من المحسنات اللفظية :

ومما ساقتنا قرابة الشيخ نجيب الحداد للشاعر خليل اليازجى إلى ذكره هنا

فى هذا المعرض . ولكن الذى ساقنا هو قدره المحتوم فى ميعة الشباب . فقد مات عن اثنين وثلاثين عاماً ، أى أصغر من خاله خليل اليازجى بعام واحد . وإذا كان من مواليد بيروت سنة ١٨٦٧ فأن مصر قد احتضنته فى سنة ١٨٧٣ وله من العمر ست سنوات . ومن هنا يبدو لنا حبه لمصر ، وإدارة اسمها فى كثير من شعره . ومما تغنى مصر له قوله فيها

يا أرض مصر تحية وسلام ... وسقاك من صوب الغمام ركام
بل أنت غانية عن المطر الذى ... يهمى ، فأن النيل فيك غمام
نهر تبارك ماؤه فتكاد أن ... تحيى بطهر مياهه الآثام
ويكاد لو رشف العليل زلاله ... يشفى العليل ، وتذهب الأسقام
يحيى البلاد بمائه . فكأنه الـ ... ـروح التى تحيا بها الأجسام
إن شابه كدر . ففى أكداره ... صفو ، وفى فيضانه إنعام
يجرى على أرض مباركة . كما ... تجرى فتحيى الشاربين مدام
أرض إذا لم يعل فى أرجائها ... علم . فأن كرامها أعلام

ومما تغنى له مصر قوله فيها من قصيدة أخرى

زر أرض مصر وقف على ربواتها ... واحفظ فؤادك من ظبا ظبياتها !
وتوقَّ أنفاس النسيم فأنها ... ممزوجة بالحب من غاداتها
أرض كساها النيل زخرف وجهه ... وأعار برد مياهه نسماتها
فبدت كأن الأرض وجه مليحة ... وكأنها خال على وجناتها
لله روضتها وقد حيا الصبا ... أغصانها . فحنت له هاماتها
وتحدثت أمواهها فوق الحصا ... توحى لطير أراكه نغماتها
والأرض من ظل الغصون كأنما ... نثرت دنانير على جنباتها !

وتبدو أوصاف الشاعر نجيب الحداد حية أكثر من أوصاف خاله خليل اليازجى ، فقد تحرر كثيراً من الصنعة التى أغرق فيها خاله . ولا يزال ديوانه

المعنون « تذكار الصبا » يحمل لنا قصائد فى وصفه للقمر ، والجبل لبنان ، وللبحر ، ولمدينة دمشق ولقطارات السكة الحديدية التى كانت مصر حديثة عهد بها ، وللسيدات المصريات - فى وقته - اللائى كن يركبن المركبات ذوات الجياد . وتذكرنا قصيدته فى وصف القمر بقصيدة صديقنا الشاعر الكبير المرحوم خير الدين الزركلى التى عنوانها « لم تنف يا قمر ! » والتى يقول فيها

لم تبق أيدى الحادثات ولم تذر	فعلام تضحك فى سمائك ياقمر ؟
أرأيت تائهة على أترابهـــا	فتـــانة بسفورها وحجابهـــا
خلابة بدلالها وعتابهـــا	غلابة بحديثهـا وخطابهـــا
ذهب الزمان بمالها وشبابهـــا	وتفردت بأنينهـا ومصابهـا
ناجتك شاكية تصاريف القدر	وظللت تضحك فى سمائك ياقمر !

و (قمرية) نجيب الحداد لا تنعكس فيها الانفعالات والأحاسيس ، ولا مفارقات الحياة ، ولا فروق ما بين أعراس السماء ومآتم الأرض كما فى (قمرية) الزركلى : فصور الحداد جامدة باردة ، وصور الزركلى زاهية متحركة عاطفية . وحتى لا نظلم الحداد نأتى بأبيات من قصيدته يقول فيها

إذا ملئت من البدر العيـــون	وهاجت منه أوسكنت جفون
وأقبل فى منازله انتقـــالا	يحف به من الليل السكـون
رأيت بدائع الأفلاك تجلـى	بما يجلو به الهم الحزيـــن
وسار البدر يسبح فى سمـــاء	عليها من كواكبها سفـــين
تمر به السحائب مسرعـــات	فيخفى تحتهن ويستبـــين

فهنا وصف تقريرى سردى لا مجال فيه لتصوير أحاسيسنا بالقمر ، ولا انعكاس أوصافه على مشاعرنا وكذلك وصف نجيب الحداد للبحر فى الأسكندرية يعتمد على التقرير أكثر مما يعتمد على تصوير الأحاسيس .

وقد كان « الحداد » موزع الحب بين مصر ولبنان ، فما فتىء دائم الحنين إلى قمم لبنان وأوديته على أنه وهو يمدح الجبل لا يفوته أن يمدح أفراده ويعدد مآثرهم ، فمن شعره فى ذلك قوله

قف فى ربى لبنان بين وهاده ... واقرا السلام لأهله وبلاده
جبل بأرض الشرق قام وفوقه ... قد قامت الأطواد من أفراده
أنقى نفوساً من بياض ثلوجه ... وأسمح جوداً من مسيل عهاده
وأشد من آساده ، وأشم من ... أطواده ، وأعز من أنداده
قوم لهم عمن سواهم رفعة ... مثل ارتفاع الطود عن أنجاده

وكما كان نجيب الحداد سابقاً فى الموت المبكر ، فقد كان سابقاً فى النبوغ المبكر ، فقد حرر فى صحيفة الأهرام المصرية وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وظل يحرر فيها اثنى عشر عاماً بلا انقطاع ، وأنشأ صحيفة « لسان العرب » سنة ١٨٩٤ وسنه سبعة وعشرون عاماً ، واشترك فى حركة ترجمة القصص والمسرحيات الأجنبية وهو قبل العشرين بسنوات ، وألف كثيراً من القصص والروايات فى ذلك الحين . وقد قضى سنوات عمره القصير فى العمل الدائم بلا انقطاع بين التأليف والترجمة والكتابة فى الصحف والمجلات ، ونظم الشعر ، إلى أن أصيب بذات الرئة ، فلم تمهله العلة طويلا وانتهت حياته فى سنة ١٨٩٩

كاتب المقال الأدبى الممتاز :

لقد عاش الثلاثة الأدباء السابقون فى القرن الماضى وماتوا شباباً فيه ، فإذا ما جاء القرن العشرون ، رأينا يد المنون تمتد إلى كاتب فلسطينى وأديب عربى جهير الصوت فتختطفه وهو فى سن الثالثة والثلاثين ذلكم هو الكاتب القصاص المترجم أحمد شاكر الكرمى الذى نسيه الناس أو كادوا منذ انتقل إلى جوار الله سنة ١٩٢٧

وأحمد شاكر الكرمى ليس دخيلا على الأدب ولا غريباً عن العلم ، فأبوه الشيخ سعيد الكرمى أحد الأعضاء الثمانية المؤسسين للمجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩١٩ بريئاسة المرحوم محمد كردعلى ، ولا تزال مقالات الشيخ سعيد الكرمى وبحوثه الضافية فى الأعداد الأولى من مجلة المجمع شاهدة له بالفضل والتبحر فى العلم وخاصة دراساته القيمة فى افتتاحيات المجلة لنفائس المخطوطات العربية . وأخوه صديقنا الشاعر المرحوم عبد الكريم الكرمى « أبو سلمى » الجهير الصوت على منابر الشعر ، وأخوه محمود الكرمى شاعر كذلك ، وأخوه حسن الكرمى صاحب « طبقة الفهماء » ، و « قول على قول » فى أذاعة لندن وغيرهما من اللمع اللوامع ، وأخوه عبد الغنى الكرمى أديب موهوب

ولد أحمد شاكر الكرمى فى طولكرم بفلسطين سنة ١٨٩٤ ، ولما ترعرع جاء إلى مصر ليكون فى عداد طلبة الأزهر ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حالت دون رجوع الفتى إلى وطنه ، فسافر إلى الحجاز ، ودعاه المرحوم محب الدين الخطيب إلى الاشتراك معه فى تحرير جريدة « القبلة » التى صدر أول أعدادها سنة ١٩١٦ ، وقد توطدت الصلة بين الشابين وألف بين قلبيهما هدف إسلامى عربى جليل ، واصطحبا على الحلو والمر ، واجتمعا بعض الحين وافترقا بعض الحين إلى أن دعت شاكراً منيته فى دمشق سنة ١٩٢٧ فرثاه فى مجلة « الزهراء » صديقه ورفيق نضاله المرحوم محب الدين الخطيب قائلا من كلمة كريمة وفية (صحبته فى البر والبحر ، وعرفته فى أوقات الرخاء وساعات الشدائد ، وسلخنا الأيام معاً من الصباح إلى الليل سنة كاملة أو أكثر من سنة ، وكنا نتفق فى الرأى ونختلف فكنت — فى كل ما بلوته من أحواله — أزداد إعجابا بمكانة أخلاقه ، وطهارة نفسه ، وادخاره القوة بالصمت ليوم العمل)

ولقد خلق أحمد شاكر الكرمى ليكون كاتب مقال أدبى ممتاز وانتهز

فرصة وجوده فى مصر بعد عودته من الحجاز فتعلم اللغة الإنجليزية ، ووصل فيها إلى درجة تعينه على الترجمة منها والنقل عنها وقد ساعدته قراءاته على التجويد فى الكتابة ، حتى إذا ما ذهب إلى دمشق سنة ١٩٢١ اشتغل بالتحرير فى صحيفة « الفيحاء » ثم وجد من نفسه القدرة على إنشاء مجلة « الميزان » وكان يحرر أكثر أبوابها ، ويترجم عن الإنجليزية ، وكان من قبل ينشر مقالاته الأدبية والاجتماعية فى جريدة (ألف باء) الدمشقية بتوقيع « قدامة » وقد أعانته مقدرته فى الكتابة ، وشهرته الأدبية على أن يكون له جمهور من القارئين المعجبين به المواظبين على قراءة مقالاته ، ولم تمنعه مقالاته وترجماته عن المشاركة فى ألوان من النشاط الأدبى فى الشام ، فأسهم فى إنشاء أول هيئة أدبية فى سورية عرفت باسم « الرابطة الأدبية » كما اشترك فى تحرير مجلتها التى كانت تحمل اسمها

ولا أعرف العلة التى مات بها أحمد شاكر الكرمى فى تلك السن المبكرة ، ولكن الذى أعرفه أنه مات فى دمشق سنة ١٩٢٧ ، وأنه دفن فى مقبرة باب الصغير ، وأن الشاعر السورى الفحل « محمد البزم » نظم تاريخاً ليكتب على قبره وجعله فى هذين البيتين

ثوى تحت هذا الثرى أحمد ... فأشعل فى القلب نيرانـــه
وأسرع يبغى رضا ربـــه ... وتاريخه ود غفرانـــه

الشاعر الانسان المحب للحرية :

وإذا كانت دمشق قد ضمت رفات أديب عربى مات فى ريعان الشباب ، فأن مدينة حمص — بعد موت أحمد شاكر الكرمى بثلاث سنين — كادت تقدم إلى الدنيا شاعراً إنسانيا محبا للحرية ، حتى تلقت فى سنة ١٩٦٠ نبأ مصرعه ولم يكن بين الميلاد والوفاة إلا ثلاثون عاماً . وهذا الشاعر هو « عبد الباسط الصوفى »

ولد عبد الباسط الصوفى بمدينة حمص ونشأ بها وتعلم فى مدارسها، ثم يمم شطر دمشق ليدرس فى جامعتها . وتنقل فى العمل بين الإذاعة والتدريس، ولكن المدرسة التى عين فيها كانت بقرية « دير الزور »: فقضى ثلاث سنوات فى هذه القرية يجمع بين رتابة الحياة فى التدريس، ورتابة الحياة فى القرية، وهو لون من الحياة لا يقوى عليه صبر شاعر. وهنا فكر جدياً فى الانطلاق من هذا الأسر الرتيب

واتجه تفكيره إلى بلد أفريقى بعيد. فذهب إلى غينيا، وهناك وفى لفح الهجير فى شهر يوليو سنة ١٩٦٠ أصيب الشاعر الشاب بضربة شمس شديدة: فطلب من سفارة بلده أن تعيده إلى وطنه، ولكن شركة الطيران لم تأخذ على عاتقها مسئولية سفره على إحدى طائراتها إلا فى رفقة ممرضة . فأن مرضه لم يكن ليسمح له بالسفر وحده. فلما لم توافق السفارة على طلب الشركة آثر شاعرنا المسكين أن يخلص من نزاع الطرفين بأن يتخلص من الحياة جملة فانتحر

فى مهرجان الشعر الأول الذى أقيم بدمشق سنة ١٩٥٩ كان شعر عبد الباسط الصوفى يرتفع على المنبر بقصيدة عنوانها « موعد المدينة »، ولعل هذا المهرجان كان أول عكاظ جديدة يسمع فيها شعر عبد الباسط : وأن كان عدد من قصائده نشر فى مجلة « الآداب » البيروتية: ومنها قصائد الغرب وطبول أفريقيا وغيرهما. وكان حريصا على أن يختم كل قصيدة بنشيد للحرية. وقصيدة « موعد المدينة » التى سمعتها مهرجان الشعر الأول فى دمشق لم تكن إلا تحية لجمال عبد الناصر وفيها يقول الصوفى

مدينتى لا تملك الـــــذرّة	مدينتى طيبة حــــــره
لا تصلب الإنسان فى آلــــة	أو تمضغ الأحقاد فى فكره
مدينتى نبضات قيثـــارة	حينا : وحينا ضحكة ثـرّه
قديمة : كالحب : ميلادهـــا	لنا صحا درب الهوى مـــرّه

اشعار الحنين والاغتراب :

وإذا كنا قرأنا فى أوائل هذا المقال أن علة النائر الشاعر أديب إسحاق التى مات بسببها قد جاءته - كما يقول المؤرخ جرجى زيدان - من إطلاقه هوى النفس فيما تسوق إليه الشبيبة ، فأن هناك شاعراً عراقيا مات فى أواخر عهد الشباب وأوائل عهد الكهولة بالعلة نفسها التى مات بها أديب إسحاق

وندع الحديث عن مزالق الشاعر العراقى عبد القادر رشيد الناصرى ومهاويه إلى الأديب العراقى الأستاذ حارث طه الراوى فى كتابه « مع الشعراء » فقد هتك المؤلف أستار هذا الشاعر الوجدانى الرقيق على الرغم مما بينهما من أخوة وصداقة

ولقد عرفت «الناصرى» فى القاهرة ولقيته مرة أو مرتين لا أذكر ، ثم نسيت كل شىء عنه إلا شعره ، فقد كنت أعاود قراءته من حين إلى حين . ثم جمع الأستاذ هلال ناجى ، وزميله الأستاذ عبد الله الجبورى بقية شعر عبد القادر الناصرى فى جزء ثان جعلاه تتمة للجزء الأول الذى أصدره الأديب السيد كامل خميس سنة ١٩٦٥

وقد ترجم مؤلف كتاب (شعراء العراق المعاصرون) للناصرى ترجمة وافية فى حياته ، لحياته ومولده ونشأته ودراسته ووظائفه ومؤلفاته المطبوعة التى تبلغ عددها ثلاثة كتب . وغير المطبوعة التى كانت فى تقدير الأديب غازى الكنين - مؤلف الكتاب - أربعة عشر مؤلفا . كما ترجم له قبل وفاته بأربعة أعوام صديقنا المرحوم الأستاذ رضوان إبراهيم فى تعليقاته المفيدة على كتاب «شعراء العرب المعاصرون» للدكتور أحمد زكى أبو شادى . كما ترجم له فى ثلاثة أسطر الأستاذ أحمد أبو سعد فى كتابه (الشعر والشعراء فى العراق) . ونقل الأستاذ حارث طه الراوى كثيراً من الترجمة التى جاءت

فى كتاب (شعراء العرب المعاصرون) ، وصرح بذلك فى الفصل الذى كتبه عن الناصرى فى كتابه « مع الشعراء »

ونخلص من هذه التراجم أن الناصرى ولد سنة ١٩٢٠ فى لواء السليمانية من أبوين كرديين ، ثم انتقل إلى بلدة الناصرية مع أسرته التى تركت لواء السليمانية إلى لواء المنتفك . ومن الناصرية جاء تلقيبه بالناصرى . وفى الناصرية أنجز شاعرنا دراسته الابتدائية والمتوسطة ، ثم قصد بغداد لأكمال دراسته الثانوية وفى العاصمة العراقية انفتح أمامه باب الاتصال برجال الأدب والشعر كالمهدى الجواهرى ، ومحمد حسين الشبيبى ، وعبد المجيد الملا ، فؤاد عباس . وأفاد فى البلاغة والبيان والمنطق من دروس الشيخ عبد القادر عبد الرازق الخطيب خطيب جامع الأمام الأعظم . وفى سنة ١٩٤٨ اشتغل بالإذاعة العراقية فوق اشتغاله بالكتابة فى بعض الصحف والمجلات ، وفى سنة ١٩٤٩ أوفدته الحكومة فى بعثة دراسية إلى باريس لإكمال دراسته . ولم تطل مدة مقام الناصرى فى باريس أكثر من عام واحد . عاد بعده إلى بغداد ليعمل موظفا فى أمانة العاصمة . ومن باريس نظم الشاعر الناصرى أرق قصائد الحنين إلى الوطن كقصيدته (بين بغداد وباريس) التى يقول فيها

أنا مالى فقدت حتى رشادى ... أقليل علىَّ هجر بلادى ؟
يا بلادى التى أراها بعينى ... مهلا سائغا إلى الوراد
الثلاثون عشتها فى مغانيـ ... ـك كطير فى مكمن الصياد
حاملا فى يدى جراح الليالى ... وعلى منكبىَّ عبء الجهاد
يا هول الفراق ! أى جحيم ... أتلظى به ، وكيف ابترادى
قيل : باريس . قلت : أشهى لروحى ... باسقات النخيل فى بغداد ! !

ويمضى الناصرى فى هذه القصيدة ، فتمضى به الذكريات فى دار غربته إلى مفاتن بغداد ونهرها ولياليها الحمراء ، وفراشات الربيع فيها ورياضها ، وغصونها الخضر وإلى كل ملمح من ملامح الجمال فيها قائلا :

الوحدة النكراء تلهب خاطرى وفراق أحبابى وبعد الدار
ونشيج والدة ، وحسرة والد يتلو التمائم خيفة النظـــار
طارت نفوسهم شعاعا حينما أزف الرحيل كفتية أغــرار
وقفا لتوديعى ،وقد ربما أسى والثغر يضحك والدموع جوار

وإذا كان الشاعر الناصرى قد أحس بالغربة والوحدة فى باريس . فأن غربته هذه هينةبالنسبة إلى غربته الكبرى فى وطنه العراق وفى عاصمته بغداد فقد كان صاحبنا المسكين يحس العذاب والألم ، ويكابد المعاناة ضائعا فى المجتمع العراقى وعلى الرغم من حنينه وهو فى الغربة للوطن فأنه لم يكذبنا أن يصف شعوره بالغربة والجراح فى قلب بلاده . فيقول من قصيدة « يا جحيم الهوى » المنشورة فى مجلة الرسالة سنة ١٩٥٠

أن تنعمت فى الحياة بباريس وألهاك سحرفوها المحبـوب(١)
فأنا فى العراق أزرع عمــرى أمنيات حصادهن ندوبــى
وأنا فى العراق طير حـــزين ملء ألحانه عويل الكـــروب
وأنا فى العراق أطوى جنــا حىّ على غربة وجرح خضيب

ولم يسلم شعر الناصرى على قوة أسره وأشراق ديباجته وعمق خياله وأحكام نسجه .من بعض المآخذ ، كاضطراب الوزن أحياناً قليلة — وخاصة فى البحر الخفيف — وكالاتهام بالسرقة وكتكرار الأبيات وورودها على أكثر من قصيدة كأنما قد استهلك عباراته فعاد يطلكها فى قصائد أخرى وهى مآخذ لا تغض قدر أنملة من قيمة هذا الشاعر الوجدانى الغزل الرقيق

---

(١) فى الشطر الثانى من هذا البيت كسر ملحوظ فى الوزن

فهرس الكتاب

دار الهنا للطباعة ت ٧٦٦٣٢٧